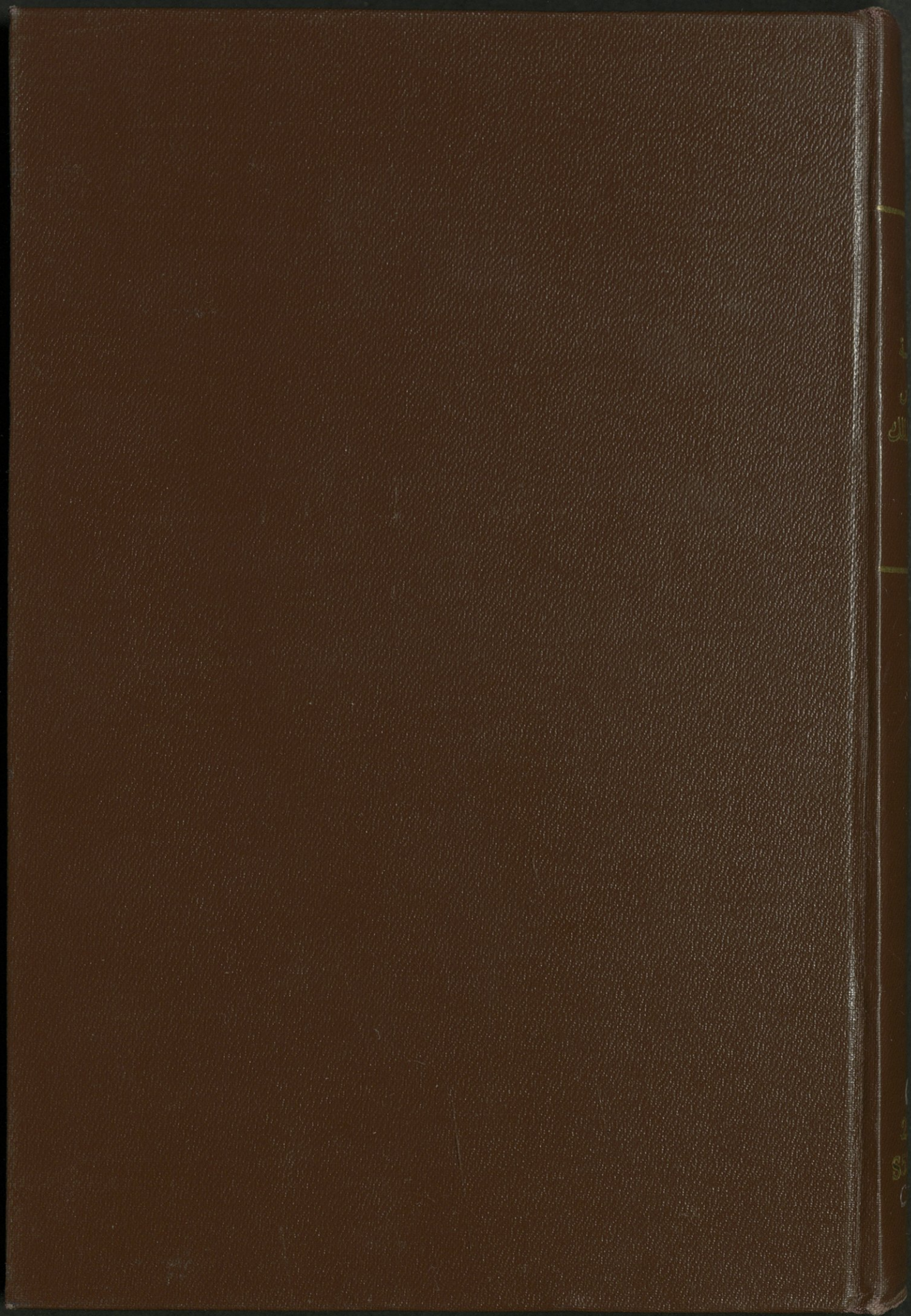
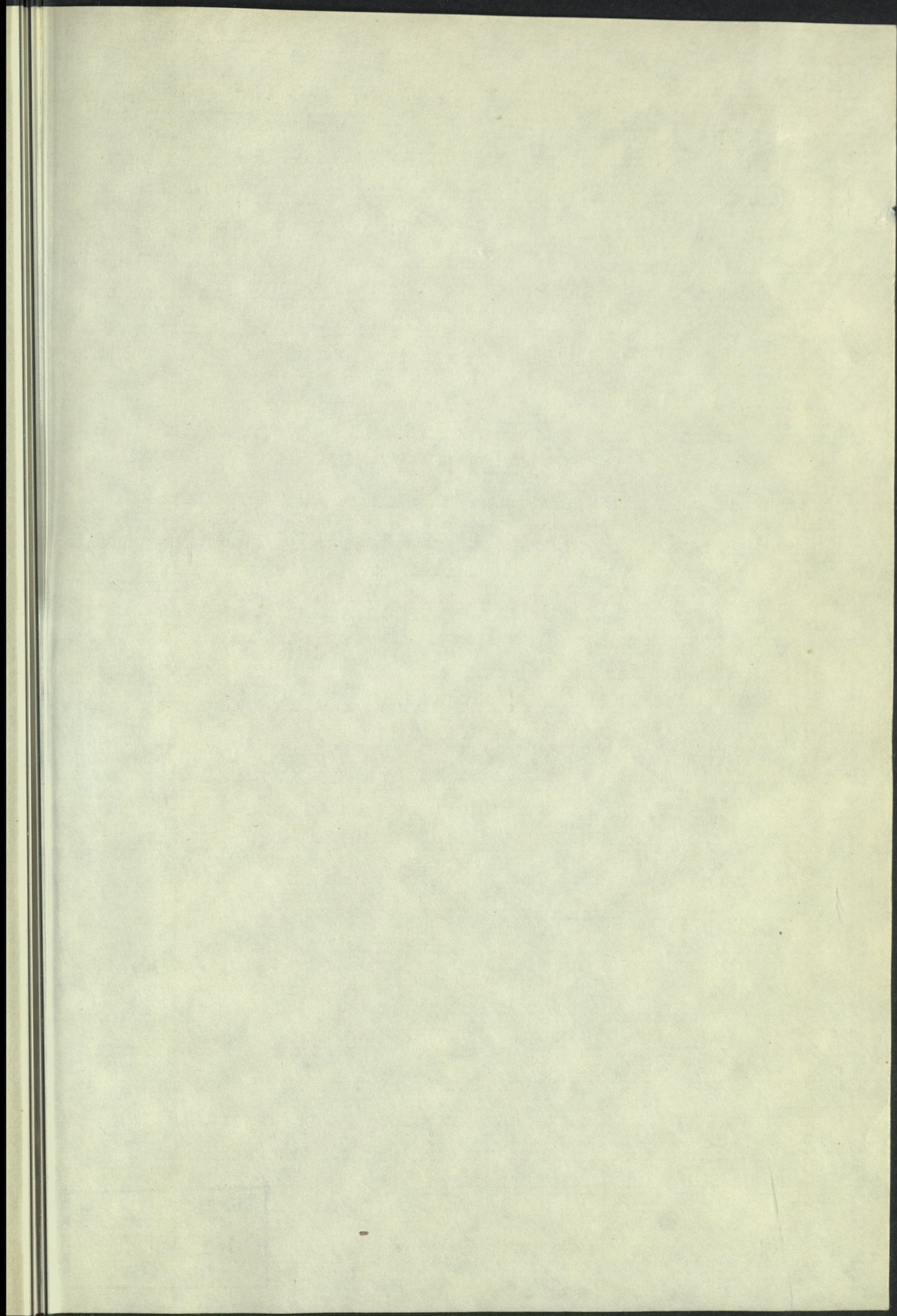


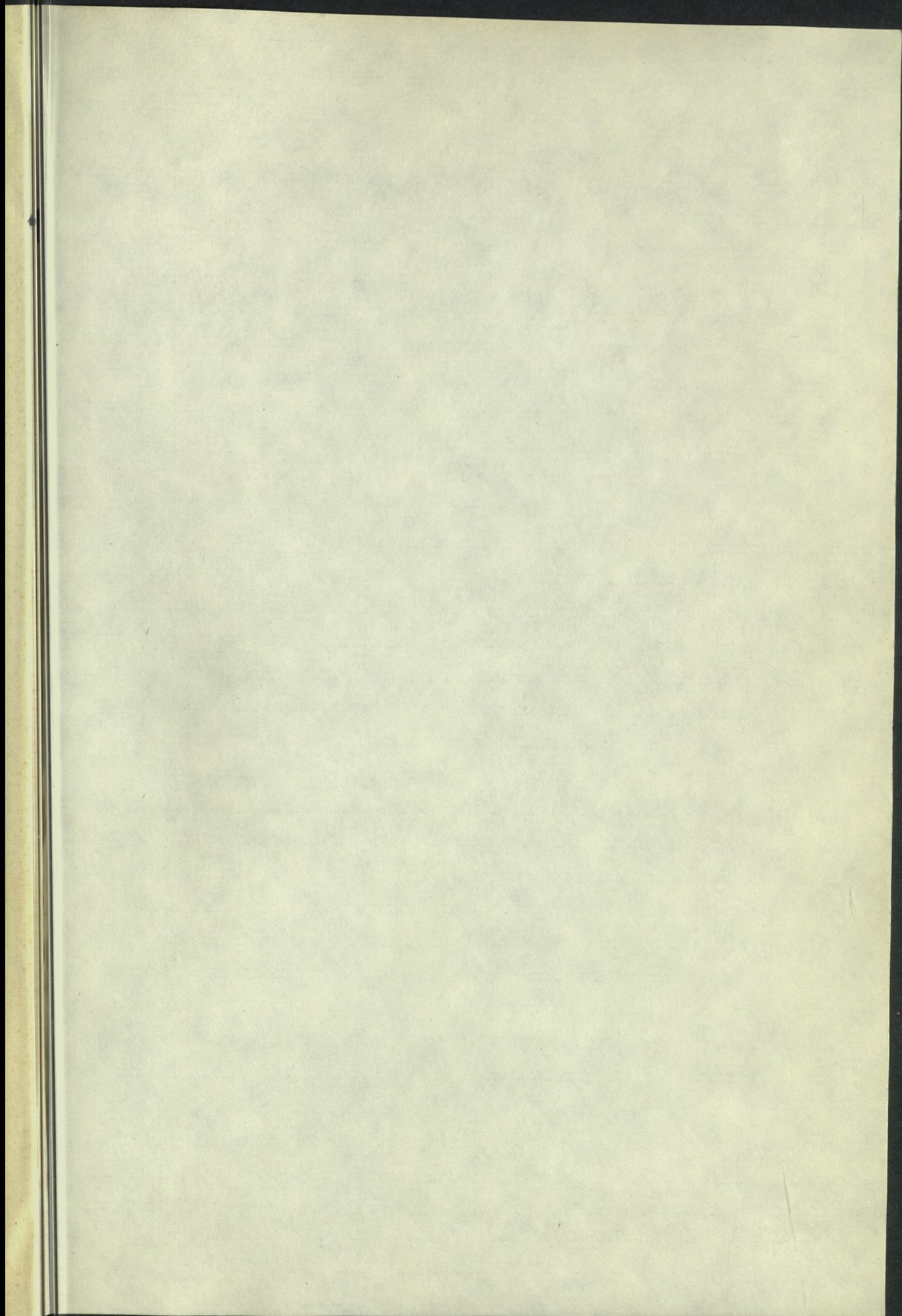




N. MAKHOUL
BINDERY
16 APR 1970
Tel. 260458



الكنيسة
عزير صوح اللاد



الكنيسة

عروس يسوع الملك

1863

May 15 1863

CA
281.5
S53kA
C.1

الكنيسة

عروس يسوع الملك

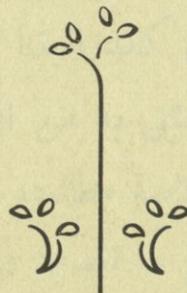
مجاذبات القاهيا في كاتدرائية القديس يوسف الكاثوليك

بمصر القاهية

الأرشمنديت يوفانس

من الاكليروس البطريركي

الحقوق محفوظة للمؤلف



مطبعة القديس يوسف في خريصا

سنة ١٩٣٣

مكتبة

المكتبة

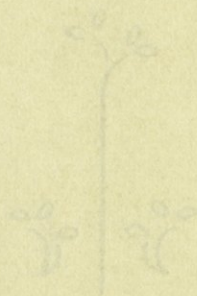
المكتبة

المكتبة

المكتبة

المكتبة

المكتبة



المكتبة

المكتبة

بَيْتُ الْبَرَكَةِ

انطاكية والاسكندرية واورشليم وسائر المشرق

مكاتب المطابع

بيروت في ١٤ تموز ١٩٣٣

سجل - عدد

٣٦٣ ٦

لحضرة الابن العزيز والارشمندريت الفاضل ثاوفانوس شار
الجزيل الاحترام

سلام وبركة رسولية

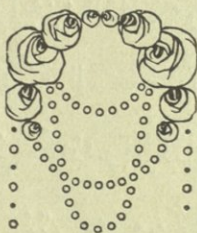
رفعتم اليينا نسخة من الجزء الثاني من محاضراتكم في « الكنيسة
عروس يسوع الملك » تمة للمحاضرات السابقة في « يسوع
الملك » التي القيتموها في كاتدرائيتنا بالقاهرة، والتمستم اجازة
طبعها . ونحن كلفنا من نشق به من اولادنا الكهنة لمراجعتها
فانجز ذلك ورفع اليينا خلاصة مطالعته مستحسنًا نشرها لفائدة
الدين والتقوى . فبناءً على ما تقدم، واظهاراً لرضانا وثنائنا على
غيرتكم البنوية وهمتكم السماء في سبيل خدمة النفوس وبذل
النفس والنفيس تعزيزاً لشأن الكنيسة وحملاً للمؤمنين على ممارسة
واجباتهم الدينية، قد اجزنا بكل ارتياح طبع كتابكم الجزء

الثاني البادئ الذكر ، مغتنمين هذه الفرصة للشناء عليكم
وتنشيطكم في هذا السبيل . وبركتنا الرسولية تشملكم
ثانياً وثالثاً

اعطي من الديوان البطريكي في مدينة بيروت في ١٤ تموز ١٩٣٣

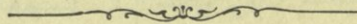
* كبرلس التاسع

محل الختم بطريك انطاكية والاسكندرية
واورشليم وسائر المشرق



فهرس

صفحة	
٥	مقدمة
١٠	السيد المسيح أسس كنيسة
٢٣	في علامات الكنيسة
٣٨	وحدة الكنيسة
٥٤	قداسة الكنيسة
٧٠	او من بكنيسة جامعة كاثوليكية
٨٥	الكنيسة الكاثوليكية رسولية
١٠٠	ما هو نظام الكنيسة
١١٤	اعضاء الكنيسة
١٣٠	سلطة الكنيسة في التعليم
١٤٤	سلطة الكنيسة الاشتراعية والقضائية والتأديبية
١٦٠	في رئاسة القديس بطرس على الكنيسة
١٧٣	في رئاسة البابا
١٨٨	الكنيسة والرسل
٢٠١	انتصار الكنيسة على الضلال
٢١٢	الكنيسة والبرابرة
٢٢٠	الكنيسة والإصلاح
٢٢٨	الكنيسة والتمدن
٢٤٠	الكنيسة والاعتراضات
٢٥٣	الاتحاد الكاثوليكي



تجدید و اصلاح در ایران

فصل اول	۱
فصل دوم	۲
فصل سوم	۳
فصل چهارم	۴
فصل پنجم	۵
فصل ششم	۶
فصل هفتم	۷
فصل هشتم	۸
فصل نهم	۹
فصل دهم	۱۰
فصل یازدهم	۱۱
فصل بیستم	۱۲
فصل بیست و یکم	۱۳
فصل بیست و دوم	۱۴
فصل بیست و سوم	۱۵
فصل بیست و چهارم	۱۶
فصل بیست و پنجم	۱۷
فصل بیست و ششم	۱۸
فصل بیست و هفتم	۱۹
فصل بیست و هشتم	۲۰
فصل بیست و نهم	۲۱
فصل سی و یکم	۲۲
فصل سی و دوم	۲۳
فصل سی و سوم	۲۴
فصل سی و چهارم	۲۵
فصل سی و پنجم	۲۶
فصل سی و ششم	۲۷
فصل سی و هفتم	۲۸
فصل سی و هشتم	۲۹
فصل سی و نهم	۳۰
فصل سی و دهم	۳۱
فصل سی و یازدهم	۳۲
فصل سی و بیستم	۳۳
فصل سی و یکم	۳۴
فصل سی و دوم	۳۵
فصل سی و سوم	۳۶
فصل سی و چهارم	۳۷
فصل سی و پنجم	۳۸
فصل سی و ششم	۳۹
فصل سی و هفتم	۴۰
فصل سی و هشتم	۴۱
فصل سی و نهم	۴۲
فصل سی و دهم	۴۳
فصل سی و یازدهم	۴۴
فصل سی و بیستم	۴۵
فصل سی و یکم	۴۶
فصل سی و دوم	۴۷
فصل سی و سوم	۴۸
فصل سی و چهارم	۴۹
فصل سی و پنجم	۵۰
فصل سی و ششم	۵۱
فصل سی و هفتم	۵۲
فصل سی و هشتم	۵۳
فصل سی و نهم	۵۴
فصل سی و دهم	۵۵
فصل سی و یازدهم	۵۶
فصل سی و بیستم	۵۷
فصل سی و یکم	۵۸
فصل سی و دوم	۵۹
فصل سی و سوم	۶۰
فصل سی و چهارم	۶۱
فصل سی و پنجم	۶۲
فصل سی و ششم	۶۳
فصل سی و هفتم	۶۴
فصل سی و هشتم	۶۵
فصل سی و نهم	۶۶
فصل سی و دهم	۶۷
فصل سی و یازدهم	۶۸
فصل سی و بیستم	۶۹
فصل سی و یکم	۷۰
فصل سی و دوم	۷۱
فصل سی و سوم	۷۲
فصل سی و چهارم	۷۳
فصل سی و پنجم	۷۴
فصل سی و ششم	۷۵
فصل سی و هفتم	۷۶
فصل سی و هشتم	۷۷
فصل سی و نهم	۷۸
فصل سی و دهم	۷۹
فصل سی و یازدهم	۸۰
فصل سی و بیستم	۸۱
فصل سی و یکم	۸۲
فصل سی و دوم	۸۳
فصل سی و سوم	۸۴
فصل سی و چهارم	۸۵
فصل سی و پنجم	۸۶
فصل سی و ششم	۸۷
فصل سی و هفتم	۸۸
فصل سی و هشتم	۸۹
فصل سی و نهم	۹۰
فصل سی و دهم	۹۱
فصل سی و یازدهم	۹۲
فصل سی و بیستم	۹۳
فصل سی و یکم	۹۴
فصل سی و دوم	۹۵
فصل سی و سوم	۹۶
فصل سی و چهارم	۹۷
فصل سی و پنجم	۹۸
فصل سی و ششم	۹۹
فصل سی و هفتم	۱۰۰

المقدمة

رأينا في كتاب يسوع الملك ما كان من تأثير المسيح المخلص في العالم قبل مجيئه، وكيف ان كل تاريخ البشرية كان تمهيداً وانتظاراً لتجسده الالهي، فلم يكن للشعب الاسرائيلي غاية في الوجود سوى أن يكون مؤتمناً على الوعود الالهية وشعباً مختاراً يكون المسيح المنتظر واحداً من ابنائه، كما بشر به الانبياء وعلموا. ولم تتعاقب الممالك العظمى إلا طبقاً للخطة التي رسمها الله بعنايته وأوحى بها الى انبيائه، فسبقوا وأخبروا بما سيكون وحددوا عدد هذه الممالك وأزمان قيامها، واسماء بعض ملوكها. ورأينا كيف أن البشرية كانت تئنّ من وقر شقائها الادي وتتوق الى مجي «الماسيا» أي المسيح المنتظر ليرفعها من هوة الانحطاط الادي والديني، ويعلمها حقائق الخلاص وواجباته وطريقه، ويصلح بين الله والانسانية الخاطئة

ولما ظهر المخلص نظرنا كيف أن حقارة المذود وشظف العيش وعار الصليب وكل مظاهر التواضع العجيب في حياته كانت تشفّ مع مهانتها عن قدرة الهية متحدة بطبيعة بشرية. فبينما هو يقول عن نفسه «ان ابن الانسان ليس له موضع يسند اليه رأسه» ويعلن انه «جاء لا ليخدم بل ليخدم» نسمعه ينادي انا الطريق والحق والحياة. قبل ابراهيم انا كائن. انا والآب واحد. وبيننا نراه

يهرب من هيرودس ومن اليهود مضطهديه نراه بقوة الهية يزجر
البحر الهائج، واذا بامواجه تسكن هيبّة واحتراماً، ويأمر الميت
بكلمة فيقوم. وبيننا نسمع هذيان الشامتين به بعد أن علّقوه على
خشب العار، وظنّوا أنهم غيّبوه بعد ذلك الى الابد في ظلمات
القبر، نراه يهبّ من رقدة الموت، من ذات نفسه، بقوة العزيز
الجبار محطماً أخال الجحيم ثم صاعداً الى السماء، بعظمة الهية
ومجدٍ عظيم

وقصارى الكلام كان يتصرّف في الطبيعة أمراً ونهياً
باجتراح العجائب والقوّات تصرّف الخالق في مخلوقاته، وينبئ
بما لا يقدر على معرفته الا الله، كأن مستقبل الادهار حاضر
امام عينيه، وهو فوق ذلك يُبدي في كل اعماله وحركاته
وسكناته من الكمالات السامية والتعاليم الجليلة ما لا يكون
الا في خالق الطبيعة مُتجسّداً ليزور خليقته

ولمّا آنسنا في إصدار كتاب يسوع الملك تشجيعاً عاماً من غبطة
السيد البطريرك كيرلس التاسع الكلي الطوبى، والسادة الأساقفة
الأجلاء، وعدد من الكهنة المحترمين ومن أفاضل الشعب، رأينا
من واجب الشكر ان نبتع تلك المحاضرات بأخرى نشاهد فيها حياة
السيد المسيح في كنيسته على توالي العصور، ونرى بذلك كيف
أنه يحقّق وعده لها بان يكون معها الى منتهى الدهر، وكيف
أنه يحميها كحدقة العين، ويحسب كل اضطهاد لها عداءً له بالذات

حتى نسمعه يقول لشاول الذي كان يضطهد كنيسته « شاول شاول
لم تضطهديني؟ »

وقد سمينا الكنيسة «عروس يسوع الملك» لان القديس بولس
وصفها بهذه الصفة اذ قال في رسالته الى اهل افسس (٢٥: ٥ و ٢٦)
« ان المسيح أحب الكنيسة وبذل ذاته لاجلها لكي يقدسها
مطهرًا اياها بجميع الماء بالكلمة ويهذيها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس
فيها ولا غضن ولا شيء من مثل ذلك . لا بل تكون مقدسة
منزهة عن كل عيب »

وقد رأينا من الواجب ان نبحث في مُستهلّ كلامنا عن
الكنيسة، هل أسس السيّد المسيح كنيسة، وهل وضع لها علامات
فارقة تميز بها عن غيرها من الكنائس، فاثبتنا من الانجيل
وقانون الايمان والتقليد المتواصل ان السيد المسيح أراد ان
تكون كنيسته واحدة في تعليمها واسرارها وادارتها، وان تنتشر
في كل العالم انتشار النور الساطع من منارة عالية ليرى الجميع
نور الخلاص، وان تظهر فيها ثمار القداسة، وان يكون رؤساؤها
متسلسلين عن بطرس والرسل . فالكنيسة الحاصلة على هذه
المميزات نحّي فيها كنيسة المسيح ونتبعها

وبعد تعريفنا لكنيسة المسيح بتلك المميزات الجوهرية ندرس
نظامها وترتيبها وسلطانها وأعضائها ورأسها . ونُفرد فصلاً خاصاً
لزعيم الرسل وخليفته الخبر الاعظم . ثم ندرس حياة السيد المسيح
فنراها تتدفق في حياة الرسل الذين اختارهم وأولاهم سلطاناً على

الطبيعة والشیطان، فوق كل سلطة بشرية، وقد سَهم حتى تغلبوا على كل أهواء الطبيعة المنحرفة، ثم أرسلهم ليبشروا العالم بأسره ويُخضعوه لسلطان الايمان به لسيطرة محبته الالهية . ثم نواصل درس حياة السيد المسيح في الشهداء الذين لم يخل منهم عصر من عصور الكنيسة حتى أيامنا . وقد كانت القرون الثلاثة الاولى على الاخص حافلة بهم، اذ قُتل منهم ما يزيد على عشرة ملايين بين أشد الأعدبة وأهولها . وكانت الكنيسة ولا تزال تمتد وتنتشر في العالم بقوة قهارة، على قدر اشتداد الاضطهاد عليها والعذاب على أولادها

وكما عقب آلام الجلجلة انتصارُ القيامة هكذا عقب عذاب الرسل والشهداء انتصارُ الصليب والديانة المسيحية . وتحول مضطهدو الكنيسة جنوداً لها يوم تحول القيصر الروماني العظيم الملك قسطنطين ابناً وخادماً لها . فانفسح أمامها سبيل العمل وازدهر ذلك العهد بالعدد العديد من آباء الكنيسة وعلمائها الفطاحل، وفاحت فضائل قدسيها وازدهرت البراري والقفار بالعدد الكبير من الرهبان والنسك، كأنهم اجواق الملائكة بين الناس . وبعد ما تقدم نطالع بعض صفحات مجيدة من تاريخ الكنيسة، فنرى كيف نصرها السيد المسيح على الهراطقة والضلال، فأبرزت الحقيقة خالية من كل شائبة بفضل مجامعها المسكونية وعلمائها الافاضل، ونتأمل كيف نصر السيد المسيح كنيسته على البرابرة، فبددت جهلهم، وروّضت أخلاقهم وهدتهم الى الايمان المسيحي،

وانتهجت بهم في معارج الحضارة نحو النظام والرقى الحق تحت
راية الدين والآداب

ثم نشاهد كيف ان المسيح ساعد كنيسته على إصلاح
الفساد وتهذيب الاكليروس، بعد ان تطرق الى بعضهم الفساد
لأنهم بَشَر. وكيف جعل فيها النشاط لإنشاء الرهبانيات القائمة
الآن بنشر الايمان في العالم بأسره

ثم ننظر نظرة إجمالية الى تأثير الكنيسة في العالم بالحضارة
والترقى، فنرى كيف أثارت العالم بالعلوم، وهذبت الأخلاق
بالآداب، وعلمت اساليب الشفقة والرحمة الروحية والزمنية بتخفيف
الويلات والمصائب عن الانسانية

فاذا ما تجلّى كل ذلك للعيان، لا يبقى محل للخوف من تمحلات أصحاب
الأغراض المتعاضدين عن الحق الذين يحاولون تقويض عمل الكنيسة -
وهيئات - وهذا ما نتوخاه في هذه المحاضرات ليتشدد المؤمنون
ويفهموا ويعرفوا كيف وبماذا يردون تلك الترهات والسفاسف

واخيراً نقدم بالاتحاد الكاثوليكي مثلاً لانضمام القوى
في المشروعات الاقتصادية والروحية والأدبية، وفي كل هذه
الأحوال نشاهد السيد المسيح مالئاً الأزمنة مُسيطرّاً على الدهور،
الى ان يأتي في آخر الازمان لبيدين الاحياء والاموات، فهو
الألف والياء، والأوّل والآخِر «وهو هو اليوم كما كان بالامس
ولن يزال الى منتهى الدهور». له المجد والعزة. آمين

السيرة المسيح اس كنيسته

بعد أن جاء ابن الله المتجسد الى العالم، وفدى البشر من عقاب الخطيئة، وقدم لهم بحياته المقدسة المثال الأسمى للكمال الروحي، وعلمهم حقائق أوجب عليهم الايمان بها، وسنّ لهم شرائع جعلها ضماناً للهدى وسبيلاً الى غايتهم القصوى، بعد كل ذلك هل صعد الى السماء وجلس عن يمين أبيه الأزلي تاركاً عمله على الأرض ناقصاً فجعل تعاليمه هدفاً للاهواء المتقلبة والمزاعم المتباينة، وأباح لكل انسان ان يبين لنفسه وسائل الخلاص كيفما شاء وشاءت اهواؤه ؟ حاشا لمثل هذا حكيماً ان يجعل تعليمه عرضةً للزيف والضلال، وكنوز نعمه هدفاً للامتهان والضياع، بل انه ولا شك قد أراد ان يضمن لعمله واسراره وتعاليمه سلامة البقاء مدى الأجيال . ولكن كيف ضمن ذلك يا ترى ؟ فهل كان بكتابة الانجيل واعداداً كل من يطالعه بالهام الهي يعصم من الضلال ؟ اننا لا نجد من ذلك اثراً . فانه تعالى يعلم ان ليس بوسع كل انسان ان يتقن القراءة ولا ان يجيد فهمها . وإن كان الرسل قد كتبوا، فلم يقل احد منهم انهم كتبوا التعاليم كلها . بل هم يعلنون صريحاً ان هناك « اشياء كثيرة صنعها يسوع لم تكتب في الانجيل »، ثم ان ما كتبت من الانجيل يحتاج الى سلطة مفسرة، كما قال في اعمال الرسل خصي كنداكة ملكة

الحبشة للرسول فيلبس الذي سأله هل تفهم ما تقرأ؟ (وكان يقرأ الكتاب المقدس) فاجاب وكيف يمكنني إن لم يرشدني احد؟ (اعمال الرسل فصل ٨ عدد ٣١) . ويؤيد ذلك أننا لا نرى أثراً للوعد بالوحي الخاص والعصمة للفرد من المؤمنين، فالسيد المسيح إذا لم يترك عمله وتعاليمه فوضى، بل اقام على الارض كنيسة حيّة مؤلفة من بشر، قائمة على اساس رسله الذين امرهم ان يبشروا كل الامم ويعلموهم حفظ ما اوصاهم به، واعطاهم سلطان حل الخطايا وربطها وخص زعيمهم القديس بطرس بملء الرئاسة مسلماً اليه رعاية النعاج والغنم والخراف، ووعدهم بان يكون معهم كل الايام الى منتهى الدهر

على ان رجال الاصلاح الموهوم، الذين ظهوروا في الغرب منذ اربعة قرون، قاموا ينكرون على الكنيسة سلطتها، ويعلمون انها جمعية روحية خفية لا سلطان فيها لأحد على غيره، ويدعون ان الكنيسة في نظامها الحاضر المؤلف من حبر اعظم واحبار وكهنة لا ترتقي الى ما قبل القرن الثالث للمسيح، ولم يكن لها من وجود في القرون الاولى . لذلك نرى من الواجب في بدء محاضراتنا عن الكنيسة أن نبرهن

اولاً : أن هذه الكنيسة هي في عصرنا كما كانت في القرنين الاول والثاني وعلى عهد الرسل
ثانياً : ان المسيح أسس فعلاً هذه الكنيسة في كيانها كما هي في وقتنا الحاضر

٦ انه الكنيسة كانت في القرنين الثاني والاول وعلى عهد الرسل
كما نراها في عصرنا

ان الكنيسة كانت في القرن الثاني كما هي في عصرنا .
فلنسمع مثلاً ما كتبه في ذلك القرن القديس ايريناوس الى احد
المهرطقة (ولا يخلو عصر من هراطقة) : « يطول بنا ان نورد لائحة
جميع الاساقفة الذين تعاقبوا في كل الكنائس ، فنقتصر على كنيسة
رومة أعظم الكنائس واقدمها واشهرها ، وقد أسسها الرسولان
المعظمان بطرس وبولس وعلمهاها التعليم الذي بشرت به العالم بأسره
وقد تعاقب اساقفتها الى وقتنا ، فهذا البرهان وحده كافٍ لأن
يُنجل كل الذين يعدلون عن الحقيقة مدفوعين بعوامل الكبرياء
او المجد الباطل او العمى او النيات السيئة . الى هذه الكنيسة
يجب ان تلتجئ سائر الكنائس اعني مؤمني العالم بأسره ، لان
الرسولين اللذين أسساها وعلمهاها سلماً ادارتها الى لينوس وقد
خلف لينوس انا كليتوس ثم اكليمندوس وافارستس والاسكندر
وسكتس الذي عقبه تلسفورس وهيجينوس وبيوس وانيكييتوس
وسوتير والفتيريوس هو الثاني عشر الذي يُدير شؤون الكنيسة
منذ عهد الرسل » (Adversus Hæreses. Lib. III c. 3 n. 1-4)

هوذا نص صريح من قديس شهير هو من كبار معلمي
الكنيسة في الجيل الثاني ، تلقى الايمان والتعاليم الدينية من تلاميذ
الرسل مباشرة في الشرق ، وعاش في الغرب أسقفاً على ليون ، فهو

يسرد اسماء اساقفة رومة منذ عهد الرسل، ويشير بوضوح الى ان الكنائس مُلزَمة بالالتجاء الى كرسي رومة، أفليست هذه الشهادة برهاناً قاطعاً على وجود الكنيسة قبل القرن الثالث كما هي الآن؟ بل فلنرتقِر الى ما هو اقدم عهداً، ولنقرأ رسائل القديس اغناطيوس بطريرك انطاكية وتلميذ الرسل، المستشهد في رومة في ايام تراجان سنة ١٠٧، فان ما يقوله هو من الوضوح والجلاء بـمكان لا مجال معه الى الريب وهذا نصّه في رسالته الى اهل فيلادلفيا بالحرف الواحد: «حيث يكون الراعي هناك يجب ان تكون الخراف، وحيث يكون الاسقف هناك يجب ان تكون رعيتّه، كما انه حيث يكون المسيح هناك يجب ان تكون الكنيسة الكاثوليكية، فلا تنفصل الكنيسة عن اسقفها وكهنيتها وشمامستها، وكلّ من يخص المسيح فليتفق مع اسقفه؛ لا نعملن شيئاً بدون الاسقف . من يعمل شيئاً بدون الاسقف يخدم الشيطان . منبر واحد وكأس واحدة ومذبح واحد»

فهل يتكلّم احد منّا الآن، ونحن في القرن العشرين عن الكنيسة وسلطة الاسقف بأوضح جلاء من كلام القديس اغناطيوس؟ الا فليسمع ذوو الاصلاح الموهوم اسم الكنيسة الكاثوليكية معروفاً كما هو الآن منذ القرن الثاني

واذا ارتقينا الى الجيل الاول الى نحو سنة ٩٧ نرى اعظم شهادة عن وجود الكنيسة في رسالة وجهها البابا اكليمنضوس الى كنيسة كورنثس (فصل ١ عدد ٣) فهذه الكنيسة التي

أسسها القديس بولس قد جرى فيها مشاحنات وخصومات تفاقم امرها بين المؤمنين فوجه اليها القديس اكليمنضوس بابا رومة رسالة لم ترل بين ايدينا قال فيها : « ليلزَم كل واحد منكم مكانه ووظيفته : الاسقف ثم الكاهن والشماس والعالمي . بهذه الوساطة يقوم النظام . وهذا هو الدواء للداء الذي انتشر في كورنثس ، مَنْ لا يطيع ما يأمر به يسوع بفمنا فليعلم أنه مخطئ ومعرض نفسه لخطر عظيم ، ونحن ابرياء من هذا الاثم »

فترون في الكنيسة باواخر القرن الاول في رومة سلطة فوق سلطة الاسقف ، وتلاحظون الرتب الكنسية متسلسلة كما هي في الوقت الحاضر : الحبر الاعظم ثم الاسقف ثم الكاهن والشماس والعالمي ، فالكنيسة الكاثوليكية لا ترال اذاً على هيئتها منذ القرن الاول

بل لنترق الى ما هو أقدم عهداً ، الى القديس بولس ، وقد صرنا في أواسط القرن الاول ، لنرى هل كان للكنائس التي يكتب اليها القديس بولس الصفة الكاثوليكية ، وهل كان فيها رتب منظمة للكهنة ، وهل كان في الكنيسة سلطة يطيعها المؤمنون ؟ اي نعم قد كان ذلك كله . كان القديس بولس يؤسس كنائس وكان يسن شرائع ويصدر احكاماً . ففي كورنثس مثلاً فصل عن جماعة المؤمنين رجلاً عاجزاً فاسقاً . وفي المدن التي لم يستطع ان يُقيم فيها هو بنفسه قد اقام كهنة واساقفة وكلف تيموثاوس في أفسس وتيطس في أقريط ان ينظما جماعة المؤمنين

وخولها السلطة حاضاً إياها على حفظ وديعة الايمان والمحاماة عنها
ونرى القديس تيموثاوس يضع يده على بعض الأقدمين
ويوليهم بذلك سلطاناً في الكنيسة، ويقدرهم كما وضع عليه
القديس بولس يده . فاين كل ذلك من مزاعم البروتستانت أن
الكنيسة غير منظورة يطيع فيها المؤمنون الالهام الشخصي ؟
وها نحن نرى كنيسة حسيّة منظمة خاضعة لرئاسة ظاهرة منذ
عهد الرسل الى ايامنا بدون انقطاع ونسمع القديس بولس يأمر
ويحضّ تيطس وتيموثاوس على أن يأمرنا نظيره

واذا رجعنا الى اعمال الرسل اي تخطّينا من الكنائس التي
أسسها القديس بولس الى الكنيسة الاولى اي كنيسة اورشليم
والى بدء تأسيسها، رأينا ترتيب الكنيسة الكاثوليكية لم يتغيّر
قطّ اذ نرى في ذاك الحين سلطة بطرس والرسل كما نرى الآن
سلطة الحبر الاعظم والاساقفة . عندما احتاج الرسل ان يختاروا
خلفاً ليهودا فالذي تكلم كان بطرس، وهو الذي اقام خلفاً
ليهودا . ويوم حلول الروح القدس على التلاميذ . من كان
الاول في التبشير ؟ هو بطرس . وعندما أوقفوا الرسل أمام
المحاكم، فمن تكلم امام المجلس غير بطرس ؟ ولماذا ؟ ألاّنه
انتخب قبل سائر الرسل، ام لانه كان اكبر الجميع سنّاً ؟ لا، لم
يكن المنتخب اولاً بل اندراوس اخوه، ولم يكن اكبر الجميع
سنّاً، لكن لان السيد المسيح اختاره رأساً للكنيسة، وخولّه فيها
السلطان الاعلى، لذلك نرى في اعمال الرسل ان للقديس بطرس

ذكرًا خاصًا بين الرسل اذ ورد فيها : « بطرس والاحد عشر رسولاً ». ولم يكن للقديس بولس تعبير آخر، وهذا قوله « لقد ظهر الرب لكيفا اي لبطرس ثم للاحد عشر ». والقديس بولس نفسه الذي قال انه استمد سلطته مباشرة من المسيح اقرّ بسلطة بطرس فهو قد اتي الى اورشليم ليرى بطرس . لقد عقدت الكنيسة منذ نشأتها مجعاً للبت في بعض المسائل . فمن حضر هذا المجمع ؟ حضره القديس بطرس والرسل والاقدمون اي الكهنة الذين سامهم الرسل وبولس وبرنابا اللذان رجعا من الرسالة . وماذا كان موضوع الكلام في هذا المجمع ؟ كان البعض يرون ان المرتدين الى الايمان المسيحي ملزمون بحفظ الشريعة الموسوية التي كان يحفظها اليهود المتنصرون والبعض الآخر يرون عكس ذلك . ولا تخفى اهمية الامر لعلاقته بجوهر نظام الكنيسة، فتباحث الرسل في هذه المسألة، ومن الذي حلّ المشكل و كان قوله فصل الخطاب ؟ انما هو القديس بطرس . وبعد بحث وجدال، قرّر المجمع طبقاً لقول بطرس : ان الوثنيين المرتدين غير ملزمين بالختان، وكتبوا هذا الكتاب : « من الرسل والكهنة والاخوة الى الاخوة الذين من الامم في انطاكية وسورية وكيليكية السلام . قد رأى الروح القدس ونحن ألا نضع عليكم ثقلاً فوق هذه الاشياء التي لا بُدّ منها، وهي ان تمتنعوا عما ذُبح للاصنام وعن الدم والمخنوق والزنى فاذا صنتم انفسكم من هذا احسنتم فيما فعلتم . كونوا معافين . » (اعمال فصل ١٥ : ٢٣ و ٢٨ و ٢٩)

أفلا يظهر من هذا المجمع ان فيه سلطة الكنيسة الكاثوليكية أعني سلطة رئيس يتقدم بالكلام وهو بطرس، وسلطة أساقفة وهم الرسل، وكهنة وهم الاقدمون، أفلا ترون سلطة تعليمية وسلطة اشتراعية وسلطة قضائية في كل ما سبق؟ ألا ترون كنيسة ظاهرة خلافاً لما يدعي البروتستانت؟

فاذا كنا ارتقيننا من اواخر القرن الثاني الى عهد الرسل، وراينا في ترتيب الكنيسة الكاثوليكية سلطة منظمة، افلا يحق لنا ان نستنتج من ذلك ان السيد المسيح اراد كنيسته على هذه الصفة وان الرسل باتباعهم هذه الخطة انما هم مطيعون امره

٢ السيد المسيح اسس فعلاً كنيسة كما هي في وقتنا الحاضر

لو لم يكن الانجيل بين ايدينا، وهو صريح في هذا المعنى، لكان بما تقدم شرحه الكفاية للاستنتاج الصحيح . ولكن لدينا الانجيل ايضاً، وفيه برهان واضح على تأسيس الكنيسة، ومنه يتضح ان السيد المسيح اسس كنيسة اي سلطة شرعية ظاهرة مؤلفة من الرسل ثم من خلفائهم ولها راس منظور وهو القديس بطرس الرسول .

ان السيد المسيح اعلن للرسول إرادته وهي ان يكملوا عمله على الارض ويبنوا بملكوت السموات، واسس اسراراً جعل فيها وسائل الخلاص . وقد كان ابتداءً هو بنفسه فبشر بمملكة جديدة لم يكن العهد القديم الا رمزاً اليها، وهي التي انبأ بها

الانبياء انها تمتد من البحر الى البحر ولا يكون لها انتهاء، وقد مهد الطريق الى هذه المملكة القديس يوحنا المعمدان بقوله : «توبوا فقد اقترب ملكوت السموات» وهذه المملكة، وهي مملكة ظاهرة، شبهها السيد المسيح بحقل جمع بين الحنطة والزوان وبشبكة جمعت من كل انواع السمك، وبوليمة يُدعى اليها الجميع صَلاح وارشار، واختار لهذا التبشير بملكوت السموات رسلاً قال لهم : « اتبعوني فاجعلكم صيادي الناس » وكان يفسر لهم على حدة الغوامض والمشكلات التي كان يلتوي فهمها عليهم وعلى الشعب، لكي يُعدّهم لعمله بعناية خاصة . وللمرسل لا للشعب اعطى سلطاناً خاصاً وميزات تميّزهم عن بقية الشعب، فلهم قال : « انطلقوا خاصة الى الخراف الضالة من بيت اسرائيل » . « اني ارسلكم مثل الخراف بين الذئاب » كل ذلك توطئة لمقاصده بأن يُقيم اناساً يجعل بين ايديهم ادارة الكنيسة

بعد هذا التمهيد وعد السيد المسيح بتأسيس كنيسة اي بوضع سلطة حية دائمة تكمل عمله على الارض

لما سأل السيد المسيح تلاميذه : « من تقول الناس اني انا؟ » واجابه بطرس : « انت المسيح ابن الله الحي » وعده السيد المسيح بان يكون اساساً لكنيسته بقوله « طوبى لك يا سمعان ابن يونا لانه ليس لحم ولا دم اعلن لك هذا، لكن مشيئة ابي الذي في السموات، وانا اقول لك انت الصخرة وعلى هذه الصخرة سأبني كنستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها » . ثم وعده

بالسلطة على الكنيسة بقوله «وسأعطيكم مفاتيح ملكوت السموات فكل ما حللته على الارض يكون محلولاً في السموات وكل ما ربطته على الارض يكون مربوطاً في السموات» (متى ١٦: ١٧-٢٠) ولا يغرب عن الفهم ان تسليم المفاتيح إشارة الى منح السلطة وذلك لو افتتح قائد غازٍ مدينة لسلموا اليه مفاتيحها وكما نفعل نحن لو بعنا رجلاً بيتاً لسلمنا اليه مفاتيحه دلالة على تملكه اياه

وبعد ان جعل السيد المسيح بطرس اساساً للكنيسة نراه يُعطي باقي الرسل شيئاً من سلطة بطرس اي سلطان حلّ الخطايا بقوله لهم «كل ما حللتموه على الارض يكون محلولاً في السموات وكل ما ربطتموه على الارض يكون مربوطاً في السموات». فهذه المواعيد «سأبني كنيسة وسأعطي مفاتيح ملكوت السموات» تدلّ جلياً على ان السيد المسيح اراد ان يكون في الكنيسة سلطة تستمدّ منه قوتها، سلطة يكون بيدها مفاتيح ملكوت السموات اي سلطة الحلّ والربط

هذه مواعيد السيد المسيح، ولم يتممها في حياته وهو مع الرسل اذ لم يكن من داعٍ لوجود سلطة الى جانب سلطته . ولذلك نرى هذه المواعيد مفرغة في صيغة المستقبل كما كان يقول لهم «ولي اشياء كثيرة اقولها لكم ولكنكم لا تطيقون حملها الان» . فلماً قرب وقت انتقاله الى السماء، واصبح من الضرورة ان تقوم مقامه سلطة خارجية، اصبحت تلك المواعيد

ناجزة وصار المستقبل حاضراً، فالذي وعد بطرس بان يكون اساس الكنيسة جعله اساساً لها، والذي وعد الرسل ان يعطيهم سلطان الحل والربط سلمه اليهم، وذلك ما جرى بين قيامة السيد المسيح من بين الاموات وصعوده الى السماء.

ظهر السيد المسيح لرسله خاصة ثلاث مرار، وفيها اسس الكنيسة . ظهر لهم اولاً يوم القيامة في عليّة صهيون، حيث كان التلاميذ مجتمعين، فقال لهم : « السلام لكم » كما ارسلني الاب كذلك ارسلكم » لم يقل بصيغة المستقبل كما كان يقول سابقاً : « سأجعلكم صيادي الناس ... سأرسلكم ... بل قال ها انا ارسلكم » محققاً بذلك وعده . ثم نفخ فيهم وقال « خذوا الروح القدس، من غفرتكم خطاياهم تغفر لهم، ومن امسكتكم خطاياهم تمسك لهم » (يوحنا ٢٠ : ٢٢)

ظهر لهم ثانية على بحيرة طبرية على إثر الصيد العجيب الوافر وبعد ان اكل معهم، قال لسمعان بن يونا : « أتتجني اكثر من هؤلاء؟ » قال له : نعم يا رب أنت تعلم اني احبك، قال له : ارع خرافي . ثم قال له ثانية : يا سمعان بن يونا اتجني ؟ قال له : نعم يا رب انت تعلم اني احبك . قال له : ارع خرافي، ثم قال له ثالثة : يا سمعان بن يونا، هل تجني ؟ فحزن بطرس لانه قال له ثالثة اتجني . فقال له : يا رب انت تعلم كل شي، وانت تعلم اني احبك . فقال له : ارع غنمي » (يوحنا ٢١ : ١٥ - ١٧)

طلب السيد المسيح ان يحبه بطرس اكثر من الرسل لكي

يعهد اليه رعاية الخراف والغنم والنعاج، اي رعاية المؤمنين وآبائهم الروحانيين من كهنة واساقفة، فيطيعونه جميعاً كما تطيع الغنم والخراف وامهاتها راعيها. بهذا الكلام اشار السيد المسيح الى كنيسته واقام فيها سلطة مرتبة جعل في اعلاها الراعي الاعظم ثم التلاميذ الذين هم بمنزلة النعاج ثم المؤمنين المشبهين بالخراف

واخيراً في ظهور ثالث تقدم يسوع الى التلاميذ على جبل الجليل وقال لهم: « أُعْطِيتُ كُلَّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا كُلَّ الْأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الْآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ وَعَلِّمُوهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا جَمِيعَ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ، وَهَاءِذَا مَعَكُمْ كُلَّ الْيَامِ إِلَى مُنْتَهَى الدَّهْرِ » (متى ٢٨ : ١٨-٢٠)

بهذه العبارات السامية اعطى السيد المسيح تلاميذه سلطته وفوض اليهم ان يقوموا مقامه، وجعلهم سفراءه على الارض واعطاهم ملء السلطة في كل ما يخص امتداد مملكته وإدارتها، وامرهم ان يعلموا كل الامم، وامر في الوقت نفسه جميع المؤمنين ان يطيعوه، وقد اعطى خلفاءهم من بعدهم هذه السلطة نفسها ولذلك وعدهم بان يكون معهم كل الايام اي مع خلفائهم: « انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر »

ثبت مما تقدم ان السيد المسيح أسس كنيسة وهذه الكنيسة لا تزال في عصرنا كما كانت في القرنين الثاني والاول، حتى ان كثيرين من البروتستانت الذين يدرسون التاريخ عن اخلاص واستقامة نية، عندما يرون هذه الحقائق، يرجعون الى حضن

الكنيسة . فلنتمسك بالكنيسة لان بيدها سلطة المسيح في التعليم والحلّ والربط . فلنتمسك بها لانها هي المكلفة ان تهدينا الى مراعي الخلاص ، ولان السيد المسيح وعدها بان يكون معها الى منتهى الدهر ، ولان ابواب الجحيم لن تقوى عليها . فلنعتصم بها لان من اطاع الكنيسة اطاع السيد المسيح على ما قال هو نفسه : « من سمع منكم فقد سمع مني » . فله المجد في الكنيسة الى جميع اجيال دهر الدهور . آمين »



(١) لوقا ١٠ : ١٦

(٢) افسس ٣ : ٢١

في عهومات الكنيسة

رأينا في المحاضرة الاولى ان السيد المسيح أسس كنيسة تواصل عمله الالهي على الارض، وخولها سلطة منظمة، وأمرها بان تحافظ على تعاليمه، وتوزع علينا كنوز النعم، فإين كنيسة المسيح هذه ؟ اذا القينا نظرة الى ما حولنا، رأينا كنائس كثيرة متعددة : فهناك كنائس البروتستانت على اشكال متباينة متناقضة في المبادئ، الجوهرية، والتعاليم الاساسية منها الجميلة في بروسيا، ولوتيرية في بلاد اسكنديناويه، واسقفية في انكلترا، وكاثوليكية في سويسرا وفرنسا وهولندا، وبرسبيترانية في ايكوسه، وباتيست ومتوديست في انكلترا والولايات المتحدة . وهناك الكنائس الشرقية المدعوة ارثوذكسية : منها كنيسة المسكوب واليونان والارمن واليعاقبة والنساطرة والاقباط والحبشة، وهذه ايضاً غير متفقة في كل عقائد الايمان الاساسية ولا في الادارة . وهناك ايضاً ما عدا هذه الكنائس الكنيسة الكاثوليكية وهي على اختلاف طقوسها ولغاتها متفقة في العقائد وخاضعة لسلطة واحدة

فهل يصح ان يقال عن كل من هذه الكنائس انها كنيسة المسيح الحقيقية ؟ وهل يسوغ لنا اتباعها على حد سواء ؟ كلا ! انه لا يمكن ان تكون كلها كنائس المسيح الحقيقية، وفيها ما فيها من الاختلاف الجوهرى في التعليم الاساسي وفي المعتقد، ممّا

يرجع الى المسيح نفسه والى الاسرار التي رسمها . فهذه مثلاً تعلم ان للسيد المسيح طبيعتين وتلك تقول بل طبيعة واحدة . والواحدة توجب استعمال الاسرار المقدسة كلها ، والاخرى تُنكر بعضها . هذه تقول ان المسيح ناط حفظ وديعة الايمان بهيئة منظورة . هي الكنيسة الظاهرة على الارض ، وتلك تقول عكس ذلك وهي ليس لها هيئة كنيسة ظاهرة . وبالجملة ان بين هذه الكنائس المتعددة اختلافات جوهرية لا يصح ان ننسبها الى المسيح لان المسيح لا يُناقض نفسه . فأين اذاً الكنيسة الحقيقية ؟ والحق في جانب ايٍّ من هذه الكنائس ؟ هل نستسلم امام هذا الواقع لعدم الاكثارات او اليأس او هل نلجأ الى الاعتراف بالنقيضين فنقول عنها انها كلها في الحقيقة سواء ، كلها كنائس المسيح ؟ انه لقول منافٍ للصواب لان الحق والبطل لا يجتمعان كما لا يجتمع النور والظلام . هل نقدر ان نعرف اين هي هذه الكنيسة التي أسسها السيد المسيح ، وان نجد فيها وسمه وروحه ؟ فهل يريد السيد المسيح أن نتبع كنيسة واحدة معينة دون اخرى ، وهل في كلامه ما يساعدنا على معرفة كنيسته ؟ وبعبارة اخرى هل وضع السيد المسيح للكنيسة علامات خاصة فارقة تميزها عن غيرها كما نقدر مثلاً ان نميز في طابع بريد مملكة دون أخرى وكما نميز راية دولة من أخرى ؟

نعم ان السيد المسيح وسم كنيسة واحدة معينة بوسم خاص اذ ميزها بعلامات فارقة بارزة جوهرية تسهل معرفتها ولا تدع

مجالاً للشك في أنها خاصة بكنيسته الحقيقية وحدها حتى ان من يراها لا يعود يجد سبيلاً أن يتبع كنيسة اخرى سواها . ان هذه العلامات أراد السيد له المجد ان تكون صريحة، وهي مجموعة في قانون الايمان حيث نقول «نؤمن بكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية» . وهذا القانون قد أجمع عليه آباء الكنيسة كلهم في مجمع نيقية المسكوني وذكروا فيه السمات الفارقة للكنيسة الحقيقية وهي صفات جوهرية لكنيسة المسيح . فالكنيسة التي تحصل عليها كلها انما هي كنيسة المسيح، أما الكنيسة التي تخلو ولو من واحدة منها فليست كنيسة المسيح . وها نحن نجتهد في هذه المحاضرة ان نعرف ما معنى كل من هذه الاوضاع : « كنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية » ونبين ان كل صفة من هذه الصفات الجوهرية اراد السيد المسيح ان تكون علامة فارقة مميزة لكنيسته

١ ما معنى قولنا كنيسة واحدة، وهل اراد السيد المسيح حقيقة

ان تكون كنيسة واحدة؟

لكي تكون كنيسة المسيح واحدة يجب أن تتجسم هذه الوحدة في العقول فتتفق على الايمان بعقائد واحدة اساسية جوهرية، وان يكون هذا الاتحاد في القلوب والعزائم، وذلك بالمحبة العامة، والاشتراك في استعمال وسائل الخلاص أي الاسرار المقدسة، وهذا الاتحاد في

العقول والقلوب لا يتم الا بوحدة الادارة والسلطة المنظّمة
اجل ان السيد المسيح اراد هذه الوحدة لكنيسته . ولا
حاجة بنا ان نلجأ الى براهين العقل والخبرة لنبين ان الوحدة
شرط اساسي لادارة كل جمعية او شركة او مشروع عام . فلو
كانت كل قوات الخلفاء مثلاً موحدة في كل اوقات الحرب الكونية
الاخيرة، لما دامت هذه الحرب طوال السنين . وبالعكس لما تحققت
هذه الوحدة فعلاً، وحدة النظام، ووحدة الادارة العليا والقيادة،
فانهم حينئذ نالوا اربهم، وظفروا ذلك الظفر العظيم الذي نعرفه
ولكن اذا ضربنا صفحاً عن براهين العقل لانها واضحة
للجميع، لا بُدّ لنا ان نتصفح الانجيل الذي يوضح رغبة السيد
المسيح بل ارادته الصريحة في الاتحاد والوحدة، فهو في صلاته
الاخيرة طلب هذه الوحدة . وقد جعلها علامة فارقة لكنيسته .
وهو قد مات « لكي يجمع ابناء الله المتفرقين الى واحد » ولذلك
أسس كنيسته بهيئة كنيسة واحدة ورعية واحدة وسلم زمامها الى
راعٍ واحد

ان رغبة السيد المسيح في اتحاد اعضاء كنيسته ظاهرة في
هذه الصلاة الجميلة التي ودّع فيها تلاميذه الوداع الاخير . قال
لاسمة السجود (في انجيل القديس يوحنا فصل ١٧) : « ايها الآب
القدوس احفظ باسمك الذين اعطيتنيهم ليكونوا واحداً كما
نحن واحد ولست اسأل من اجل هؤلاء فقط بل ايضاً

من اجل الذين يؤمنون بي عن كلامهم ليكونوا بأجمعهم واحداً كما انك انت ايها الآب فيّ وانا فيك ليكونوا هم ايضاً واحداً فينا حتى يؤمن العالم انك ارسلتني، وانا قد اعطيتهم المجد الذي اعطيته ليعكونوا واحداً كما نحن واحد . انا فيهم وانت فيّ ليكونوا مكملين في الوحدة حتى يعلم العالم انك انت ارسلتني وانك احببتهم كما احببتني . فاذا تأملنا في هذه الصلاة السيديّة رأينا رغبة السيد المسيح في وحدة الكنيسة مردّدة خمس مرات . يقول لآبيه الازلي انه حفظهم متحدّين مدة وجوده معهم، ويطلب ان يبقوا متحدّين، ويصلي لاجل من يؤمنون عن كلامهم ليكونوا متحدّين، ويطلب هذه الوحدة كعلامة فارقة ليؤمن العالم ان الآب ارسله . ولكي تتحقّق هذه الوحدة لا بُدّ من وحدة الايمان . فالسيد المسيح يصلي لاجل رسله ولاجل من يؤمنون بكلامهم ليكونوا متحدّين في الايمان

ولا ننس ان السيد المسيح كثيراً ما لذّ له ان يشبّه نفسه بالراعي الصالح الذي يجمع غنمه تحت رعايته، ويجمع في الحظيرة الغنم، ليس من أمة اليهود فقط بل من سائر امم الارض كلها ايضاً : « اني ابذل نفسي لاجل رعيّتي، ولي رعية اخرى ليست من هذا القطيع ينبغي ان آتي بها، وتسمع صوتي وتكون رعية واحدة لراعٍ واحد » (يوحنا ١٠ : ١٥ و١٦)

وضرورة هذه الوحدة في نظر السيد المسيح تتجلّى لنا في انه جعلها من غاياته في موته . فقد ورد في الانجيل ان يسوع

كان مُزْمَعاً ان يموت « ليس لاجل الامة فقط بل ليجمع ابناؤه الله المتفرقين الى واحد » (يوحنا ١١ : ٥٢)

ومن اصرح الذين فسروا فكر السيد المسيح في الوحدة القديس بولس في رسالته الى اهل افسس (الفصل الرابع عدده) « وللجميع رب واحد وايمان واحد ومعمودية واحدة وإله واحد واب واحد . هو فوق الجميع ومع الجميع وفي جميعكم . والمسيح جعل بعضاً رُسلًا وبعضاً انبياء . وبعضاً مبشرين وبعضاً رعاة ومعلمين لاجل تكميل القديسين ، ولعمل الخدمة وبنيان جسد المسيح ، الى ان ننتهي جميعنا الى وحدة الايمان ، ومعرفة ابن الله ، الى انسان كامل الى مقدار قامة ملء المسيح »

اراد اذا السيد المسيح ان يكون المؤمنون رعية واحدة تحت سياسة راع واحد ، وان يتحدوا في جسم واحد اجتماعي ، تحت ادارة واحدة . ولكي يكونوا متحدين على اختلاف لغاتهم ومشاربهم اتحاد اعضاء موحدة برباط الايمان ، ولكي تُضمّ العزائم والقلوب ، اسس لهم كنيسة واحدة على يس واحد هو بطرس ، وسلمها الى راع واحد لكي تكون تحت ادارة واحدة فيتحد الجميع بالطاعة لسلطة واحدة والخضوع لإدارة واحدة

وعليه فهذه الوحدة في الايمان وفي العبادة وفي الادارة هي العلامة الظاهرة الجوهريّة التي تميّز بها كنيسة المسيح الحقيقية . فكل كنيسة تقول عن نفسها انها كنيسة المسيح يجب ان تكون واحدة في معتقداتها ومبادئها وادارتها

٢ ما معنى كلمة مقدسة وهل طلب السيد المسيح من كنيسة القداسة

القداسة هي التشبه بالله جهد المستطاع، ومن يتشبه بالله يتمم ارادته تعالى ويتحد به . وبما ان الله هو الخير بالذات لا يقدر الانسان ان يشبهه الا اذا نزه نفسه عن الشر فتكون قداسته على قدر طهارته من دنس الخطيئة وامتلائه من حب الله . ولكي تكون الكنيسة مقدسة وتكون قداستها ظاهرة لانها هيئة اجتماعية، يجب ان تكون مبادئها وتعاليمها ووسائل الحياة الروحية فيها مقدسة بقداسة منشئها نفسه ليتمكنها ان تفيض القداسة على اعضائها، حتى اننا لو رأينا في جمعية دينية بعض رجال صالحين ولم تكن مبادئ هذه الجمعية مقدسة لما ساغ لنا ان نسميها جمعية مقدسة . ولكن لو كان اساس هذه الجمعية نفسها مقدساً وكانت غايتها مجد الله، ووسائلها النعمة والاسرار المقدسة، لكان حق لنا ان ندعوها مقدسة وان لم يكن كل اعضائها قديسين . فلكي يحق اذاً لكنيسة ان تدعى مقدسة، يجب ان نلاحظ فيها اولاً قداسة مبادئها كما تقدم، وان تظهر هذه القداسة فعلاً في عدد كبير من ابنائها . ويجب ان تكون هذه القداسة ناتجة عن تلك المبادئ . ومنعاً لكل التباس واثباتاً لحقيقة مصدر هذه

القداسة يجب ان تظهر العجائب في بعض اعضائها . فالعجائب هي ختم الله على قداسة كنيسته الحقيقية
واما قداسة الاعضاء فما ان الانسان حرّ وبما ان الحرية شرط أساسي لكل فضيلة وقداسة، لا يُشترط فيها ان تتحقق في الجميع وتظهر في كل عضو من اعضاء الكنيسة الحقيقية .
فاذا كان يهوذا وهو في مصف الرسل قد اساء استعمال حرّيته ولم يثبت في القداسة، فلا عجب والحالة هذه ان لم نر القداسة في كل عضو من اعضاء الكنيسة وهي جماعة بشرية . بل يكفي ان تتوقّر فيها وسائل التقديس للجميع، وان نرى القداسة في عدد كبير من اعضائها، وان تشمل هذه القداسة كل حياة الكنيسة من حيث الزمان ومن حيث المكان على مدى الاجيال، وان تظهر في كل طور من اطوار تأريخ الكنيسة مقرونة بالعجائب وممارسة الفضائل المسيحية بدرجة ممتازة

هذا ما نعني بكلمة مقدّسة . فهل اراد السيد المسيح القداسة لكنيسته ؟ هذا ما يظهر بوضوح في الانجيل الطاهر . قال السيد المسيح لرسله « كونوا كاملين كما ان اباكم السماوي كامل » . ولما طلب منهم ان يتشبهوا بكمال الله وعدهم بان يساعدهم على هذا الكمال مدى الدهر « انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر »

(١) متى ٥ : ٤٨

(٢) متى ٢٨ : ٢٠

تلك كانت رغبته التي ابداهها طول حياته على الارض وقد اوضحها بجلاء ليلة آلامه اذ طلب الى الآب السماوي ان يقدّس تلاميذه . « قدّسهم بحقك ان كلمتك هي الحق واني لاجلهم اقدّس ذاتي ليكونوا هم ايضاً مقدّسين بالحق » (يوحنا فصل ١٧ عدد ١٧ و ١٩) وقد شاء سبحانه ان تكون قداسة تلاميذه ظاهرة للعيان في اعمالهم بدليل قوله لهم « انتم نور العالم الخ » (متى فصل ٥ عدد ١٤) . وقد فهم الرسل جميعهم رغبة السيد المسيح هذه وحققوها فيهم وجعلوها من بعدهم أمانة في الكنيسة للمؤمنين . وعبر القديس بولس عنها ببلاغته المعهودة . فكتب في هذا المعنى الى اهل افسس ما نصه (فصل ٥ عدد ٢٥-٢٧) « لقد أحبّ المسيح الكنيسة وبذل نفسه لاجلها ليقدّسها مطهراً اياها بغسل الماء وكلمة الحياة ليهديها لنفسه كنيسة مجيدة لا كلف فيها ولا غضن ولا شيء . مثل ذلك ، بل تكون مقدّسة منزّهة من كل عيب » . فمن الواضح اذن ان السيد المسيح اراد ان تكون كنيسته مقدّسة وان تكون قداستها علامة فارقة سامية تمتاز بها عن غيرها من الجماعات الدينية

٣ ما معنى كلمة كنيسة كاثوليكية وهل اراد السيد المسيح

انه تكونه كنيسة كاثوليكية

اننا بكلمة كاثوليكية اي جامعة نعني انها تنتشر في العالم

كله وتتناول كل الامم والاجيال . وهذا عين ما سبق الانبيا . في وصف مملكة الماسيا اي المسيح ، فقد ورد في سفر المزامير « اني اعطيك الامم ميراثاً لك » وهو الذي قال عز من قائل « يجب ان يكرز بالانجيل في العالم كله » وقال لرسله : « ستكونون لي شهوداً في اورشليم واليهودية والسامرة والى اقصى الارض » وقال لهم ايضاً : « اذهبوا الى العالم اجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها » . ولا عجب في ذلك فان السيد المسيح اتى ليخلص العالم بأسره . فانبت الرسل في العالم كله عملاً بأمر الرب وقد تأصل في معتقد المسيحيين منذ ابتداء البشارة ان كنيسة الرب يجب ان تكون منتشرة في العالم بأسره والى منتهى الاجيال اي ان تكون كاثوليكية

ان القديس اغناطيوس الانطاكي والقديس بوليكر بوس في اوائل القرن الثاني يسميان كنيسة المسيح كاثوليكية اي جامعة . ونسمع القديس باسياناس في رسالته الى سامبرونيوس يعلن مفتخراً « ان اسمي مسيحي ولقي كاثوليكي » . والقديس كيرلس يقول « ان اسم الكاثوليك هو اسم الكنيسة المقدسة أمنا » . والقديس اوغسطينوس في رسالته عن وحدة الكنيسة يقول :

(١) مزمو ٢ : ٨

(٢) متى ٢٦ : ١٣

(٣) اعمال ١ : ٨

(٤) مرقس ١٦ : ١٥

«حيثُ الكنيسة الكاثوليكية هناك الكنيسة الحقيقية». ولكن الى اي حدٍ ينبغي ان تكون كنيسة المسيح جامعة كاثوليكية؟ وما معنى وعد السيد المسيح لها ان تكون شبه حظيرة لكل الامم والشعوب؟ ليس المراد من ذلك ان يدخل الكنيسة كل من افراد الامم حتماً بل ان تنتشر الديانة المسيحية بين كل الامم داعية اليها الجميع حتى يتسنى لكل احد ان يُقبل اليها. فليس من الضروري ان يكون كل افراد الامم مسيحيين لكي تتم هذه العلامة لانه، لا بُدَّ ان يبقى زؤان مع القمح ولا بُدَّ ان يبقى اشجار فتزداد فضيلة الصالحين ظهوراً، ولا بُدَّ ان يبقى أناس يضطهدون كنيسة المسيح ويبغضون المسيحيين لان السيد المسيح سبق فأنبأهم بذلك قائلاً «ويبغضكم الجميع لاجل اسمي» فعنى كاثوليكية يجب ان يكون نسبياً لا مطلقاً شاملاً كل افراد البشر. يجب ان يكون بين كل الامم مسيحيون من الكنيسة الحقيقية، وذلك في كل زمان وكل مكان معروف. فكلام السيد المسيح يتم إذا وُجد عدد كبير من اعضاء الكنيسة الكاثوليكية منتشرين بين كل الامم. وعليه فالكنيسة التي يوجد فيها عدد كبير في كل عصرٍ ومصرٍ، بين كل أمة من امم الارض المعروفة، هي التي يحق لها ان تُسمى كاثوليكية. ومعنى الكثرة يتم بوجود عدد منتشر بين كل أمم الارض ولو مضطهداً اكثر مما لو وُجد نفس هذا العدد في مملكة واحدة كبيرة عائشة براحة وطمأنينة

على ان هذه العلامة التي هي صفة جوهرية للكنيسة الحقيقية لا تكفي وحدها لتبين ان الكنيسة التي تتصف بها هي ولا شك كنيسة المسيح، ولكنها صفة ضرورية للكنيسة الحقيقية حتى لو خلت منها كنيسة بان كانت هذه الكنيسة محصورة في أمة معينة لكان ذلك دليلاً صريحاً على انها ليست كنيسة المسيح الحقيقية لان كنيسة المسيح لا تنحصر في شعب او في طائفة

٤ ماذا نعني بكنيسة رسولية وهل اراد السيد المسيح ان تكونه كنيسة رسولية ؟

لكي تدعى الكنيسة رسولية لا يكفي ان يكون مؤسسها رسولاً ككنيسة روما او الاسكندرية او انطاكية . ولا ان يكون تعليمها مطابقاً فقط لتعليم الرسل . بل لكي تكون صفة الرسولية علامة فارقة ومميزة للكنيسة المسيح يجب ان يكون احبارها خلفاء الرسل متسلسلين عنهم بلا انقطاع في ادارة الكنيسة منذ ايام الرسل

ان السيد المسيح اراد ان تكون كنيسته رسولية فامر الرسل بان يعلموا كل الامم واعداء اياهم بان يساعدتهم في تعليمهم وفي حفظ وديعة الايمان الى منتهى الدهر . فالكنيسة التي لها احبار يخلفون الرسل بلا انقطاع يكون احبارها حاصلين على سلطة الرسل عينها . ومن ثم يسهل على من له بعض الامام

بالتأريخ ان يعرف هل بقي احبار هذه الكنيسة متسلسلين من
الرسل ومحافظين على وديعة الايمان بلا انقطاع، وهذا ما جرى
عليه المسيحيون الاولون مع المرسلين الاتيين ليبشروهم بالايمان
فإنهم لم يكونوا يقبلون كرامة شرعيين الا من عرفوهم خلفاء
شرعيين للرسل، والا عدوهم مبتدعين وهراطقة واعرضوا عنهم
وهل اراد السيد المسيح ان تبقى كنيسته مؤسسة دائماً على
الرسل؟ ذلك ما لا شك فيه. فان السيد المسيح قال لتلاميذه
« كما ارسلني الاب كذلك انا ارسلكم. من سمع منكم فقد سمع
مني. انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر ». فهل يقول السيد المسيح
انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر ويعطي الرسل فقط سلطته؟
كلاً، بل كان قصده ان هذه السلطة ستمتد الى خلفائهم من
بعدهم الى منتهى الدهر. لقد اراد اذاً ان يكون لرساله خلفاء
فن الواجب ان تظل كنيسة المسيح مرتبطة به ورساله بسلسلة
متواصلة الحلقات ويجب ان يتعاقب في روما خلفاء بطرس واحداً
فواحداً بلا انقطاع

فإذا حدث في زمن او في بلد ان قام أحد خلفاء الرسل
وقطع سلسلة الرسل منفصلاً عن الكنيسة، وصار حلقة أولى
لسلسلة جديدة، فلا يبقى له اتصال بالسيد المسيح ورساله، ولا
تبقى خلافة هذا الخبر المنفصل عن وحدة الكنيسة شرعية اذ
ان السلطة لم تُعط له الا منضمماً الى باقي الرسل والى بطرس
الرأس والصخرة. ومن ثم يحق لنا ان لا ندعو كنيسة هذا

الجبر المنفصل رسولية . لأنها انما بدأت في وقت انفصاله وقد انقطع عقد صلّتها مع الرسل . هذا البرهان كان يستعمله الآباء القديسون لدحض هرطقة المنشقين فكانوا يقولون « ان كل من لا يطيع خلفاء الرسل الشرعيين يستحق اسم منشقّ او هرطوقي » فان الطاعة محكّ الحقيقة بدليل قول السيد : « من سمع منكم فقد سمع مني » ومن أهانكم فقد أهانني » . قال ترتوليانوس لبعض هراطقة عصره « اظهروا لنا اصل كنائسكم ، وقدموا لنا لائحة اساقفتكم منذ نشأتها هل كان اول اسقف لها خليفة لرسول من الرسل ، او احد الرجال الذين عاشوا مع الرسل » وعلى هذا المنوال كان يتكلم الآباء القديسون

فصفة الرسولية اذاً هي خلافة الرسل بلا انقطاع ، لانهم رؤساء الشركة المسيحية . فحيثما وجدت هذه الصفة ووجدتم معها صفة الوحدة والكثلكة والقداسة في كنيسة فثقوا ثقة لا تردّد فيها ان بيدها صكّ السلطة من السيد المسيح : سلطة الحلّ والربط والتعليم والإدارة

هذه هي صفات الكنيسة الحقيقية . فينتج من ذلك ان كل كنيسة ليس لها هذه الصفات مجموعة بل ولو فقدت واحدة منها فليست هي كنيسة المسيح الحقيقية ، لانها خالية من الصفات الجوهرية الخاصة بكنيسة المسيح . وينتج ايضاً ان الكنيسة التي

(١) لوقا ١٠ : ١٦

(2) De Prescriptione. Rouët de Journal n° 296.

نجد فيها بنوع واضح هذه العلامات الاربع مجتمعة معاً انما هي
كنيسة المسيح الحقيقية، الكنيسة التي اسسها واعطاها السلطة
واراد ان تدوم الى منتهى الدهر، الكنيسة التي اتخذها الله
وسيلة لتتميم عمله على الارض. وهي التي يمكننا بل يجب علينا
ان نطيعها بطمأنينة وفرح كطاعتنا لله تعالى



وحدة الكنيسة

رأينا ان السيد المسيح أسس كنيسة، وميزها بعلامات فارقة وصفات جوهرية ليعرفها الجميع، وجعلها واحدة جامعة مقدسة رسولية. فبقي ان نعرف اي الكنائس حاصلة على هذه العلامات. لان الكنيسة التي تكون مزدانة بها تكون هي كنيسة المسيح، وكل كنيسة تخلو ولو من واحدة منها لا تكون كنيسة المسيح

ولنبحث الآن عن الكنيسة الحاصلة على العلامة الاولى منها اي على الوحدة

يمكننا ان نردّ الكنائس المسيحية الى ثلاثة انواع : اولاً

(١) يقسم جوزف ديمستر الكاتب الشهير الكنائس الى نوعين فقط : الكنيسة الكاثوليكية والكنائس البروتستانتية. وهو يوضح فكره كما يلي : « انها حقيقة أساسية في كل المسائل الدينية ان كل كنيسة ليست كاثوليكية هي بروتستانتية. ولا داعي الى التمييز بين الكنائس الهرطوقية والكنائس المنفصلة . اني اعرف ماذا يعنون بهذا التمييز، ولكن اذا تقصينا في البحث رأينا ان الفرق ليس الا في الكلام . لان كل مسيحي لا يعترف بسلطة الجبر الاعظم هو بروتستاني . فكلمة بروتستانت مشتقة من فعل Protester اي احتج . فالبروتستاني هو المحتج، فاذا احتج ضد حقيقة او ضد حقائق فاحتججه يكون على درجات مختلفة ولكنه محتج في كل حال اي بروتستانت » . على انه نظراً للفرق

الكنائس البروتستانتية التي نشأت منذ الإصلاح المزعوم في القرن السادس عشر، ثانياً الكنائس الشرقية المدعوة بالارثوذكسية التي انفصلت عن وحدة الكنيسة في القرن الحادي عشر، ثالثاً الكنيسة الكاثوليكية . ففي اي هذه الكنائس الثلاث نجد العلامة الاولى اي الوحدة ؟

قلنا ان الوحدة في الكنيسة هي وحدة المبادئ ووحدة وسائل الخلاص ووحدة الادارة . فوحدة المبادئ تقوم بقانون ايمان واحد تدعن له عقول المؤمنين جميعاً . ووحدة الوسائل تقوم بالاتحاد في استعمال الاسرار التي وضعها السيد المسيح وجعلها ينابيع النعمة وحياة القداسة في الكنيسة . ووحدة الادارة تقوم بان يكون في الكنيسة ادارة واحدة منظمة مرجعها سلطة واحدة عليا

فمن خرج على الكنيسة ولو في بند واحد من قانون الايمان سمي هرطوقياً، ومن خرج على سلطة الرعاة الروحانيين سمي منشقاً او منفصلاً

رأينا ان هذه الوحدة في الكنيسة هي رغبة السيد المسيح وارادته : فقد طلب لاسمه السجود وحدة الايمان في صلاته الثانية الاخيرة اذ قال : « ايها الآب القدوس احفظ باسمك الذين اعطيتني ليكونوا واحداً كما نحن واحد . ولست اطلب

العظيم بين كنائس البروتستانت والكنائس الارثوذكسية قسمنا الكنائس الى ثلاث خلافاً لنظرية هذا الكاتب الشهير

من اجل هؤلاء فقط بل من اجل الذي يؤمنون بي عن كلامهم
ليعلم العالم انك ارسلتني^١»

ولم يكتفِ بوحدة الايمان بل قرّر وحدة السلطة بقوله :
« ولي خراف^٢ أخر ليست من هذا القطيع ينبغي ان آتي بها
ايضاً، وتسمع صوتي وتكون رعية واحدة لراعٍ واحد^٣ . » فإذا
عمل السيد المسيح ليحقق حفظ هذه الوحدة ؟ انه قد أسس
سلطة عهد اليها في إنارة العقول، وتأليف القلوب، واقام لذلك
رؤساء لكنيستته، اذ قال لرسله : « كما ارسلني الآب كذلك
انا ارسلكم^٤ . » « من سمع منكم فقد سمع مني، ومن اهانكم
فقد أهانني^٥ . » ولا عجب في كون السيد المسيح اراد الوحدة
لكنيستته وهو القائل « كل مملكة تنقسم على ذاتها تخرب^٦ . »
ونحن نعلم ان كل مشروع وكل شركة وادارة لا تكون فيها
الوحدة فعاقبتها الخراب

فالوحدة هي علامة جوهريّة في كنيسة السيد المسيح .
ففي ايّ من الكنائس نجدها ؟

(١) يوحنا ١٧ : ١١ و ٢٠

(٢) يوحنا ١٠ : ١٦

(٣) يوحنا ٢٠ : ٢١

(٤) لوقا ١٠ : ١٦

(٥) متى ١٢ : ٢٥

١ الوحدة لا نجد لها في الكنائس البروتستانية

هل نجد الوحدة في الكنائس البروتستانية وأساس وجودها وكل مظاهرها نفيً عليّ لذلك ؟ فهي قد نشأت في النزاع، ومبادئها تنفي الوحدة والاتحاد، لان كل بروتستانتى مستقلّ برأيه، ولا يعرف لسلطة على الأرض حقاً في تدبير او تعليم بل يزعم ان لكل فرد أن يفهم ويفسّر الكتاب المقدس كما يترأى له . وبما انّ العقول والمدارك تختلف باختلاف الاشخاص فإيمان كل واحد يختلف عن ايمان الآخر . فكل بروتستانتى في رأي نفسه هو كاهن، وليس لسلطة على الأرض أن تأمره أو تحدّد له معتقداً . فالكنائس اللوثرية والكلفينية لا توجب الطاعة لسلطة معلّمة او لسلطة روحية تضمن وحدة الايمان والعبادة والنظام . ولذلك نرى الفوضى سائدة في تعليمهم حتى انه لا يُعرف لهم حقائق عامّة يرجعون اليها . ولا خطة لهم في التعليم سوى مقاومة الكنيسة الكاثوليكية وإنكار حقائقها . فمنهم من ينكرون اسفاراً برمتها من الكتاب المقدس، ومنهم من ينكرون الأسرار او بعضها، ومنهم من يختلفون في أهمّ الحقائق المسيحية، حتى ان عدداً من المعلّمين الآن في كليات ألمانيا وباريس قد بلغ بهم التماهي ان قالوا : ليس شرطاً على من يريد أن يُدعى مسيحياً ان يؤمن بالوهية السيد المسيح . وهذا منتهى التماهي في نقض الاتحاد والابتعاد عن ديانة السيد المسيح ولا حاجة الى القول ان شيّع البروتستانت تعددت بسبب

هذه الفوضى الى حدّ يعجز عنه الإحصاء، ونجم من ذلك تباين شديد في الامور الجوهرية . فبعضهم يخضع لسلطة روحية وبعضهم لا يقرّ بسلطة . فكنيسة انكلترا تعترف بالملك رئيساً روحياً عليها، واكثر افرادها ينكرون هذه السلطة، ومن ثم تبحث عبثاً فيها عن وحدة الكلمة في ايمانها او في ادارتها حتى انه لو رجع لوتير وكلفين الى الأرض لما عرفا الكنائس التي أسسها

كتب بوسويه في القرن السابع عشر عن تاريخ تقلب الكنائس البروتستانية قال : « لقد تقلبت وتطوّرت هذه الكنائس، وكان من المنتظر ان تتلاشى فيها قوانين الايمان واحداً فواحداً . لان العقول بعد ان استقلت برأيها، ولم يعد لها سلطة ترشدها وتقودها، تجاوزت في احكامها كل الحدود، واصبح تفرّقها سبباً لكل الخصومات، فهم ينكرون الاسرار، ويطلقون نار جهنم الابدية لكونهم لا يؤمنون بها، وليس لهم همٌّ إلا ان يتوسعوا في الديانة، ويستبيحوا لانفسهم ما يريدون الى ان يدّكوا صرح الديانة المسيحية برّمته »

هذا ما قاله بوسويه في القرن السابع عشر، فما عساه يقول لو أتى في وقتنا الحاضر ؟ وفي الواقع ينكر البروتستاني كل ما لا تفهمه كبرياؤه من الحقائق الغامضة، وينكر السلطة لانها تقيد، وينكر الصوم لانه يزعجه، ولا يعرف في الديانة الا الاحتجاج لانه بروتستاني

فاذا لم يكن في الكنائس البروتستانتية شيء من الوحدة، فهل نرى اتحاداً في الكنائس المنفصلة المسماة ارثوذكسية؟

٢ الوحدة لا نجد لها في الكنائس الارثوذكسية

اننا اذا نظرنا اليها من حيث الإدارة لم نرَ فيها اتحاداً، لانها في الغالب كنائس قومية شعبية مستقلة بعضها عن البعض الآخر في الرئاسة استقلالاً تاماً، ولا مرجع اعلى لها يضم شتاتها ويوحد عملها. فالكنيسة الروسية مثلاً لا تتعدى سلطتها وإدارتها بلاد روسيا، وكذلك قل عن كنيسة اليونان، والكنيسة الارمنية والقبطية والحبشية، فكل كنيسة مستقلة عن غيرها ولا رابط بينها، بل نرى الكنائس اليونانية نفسها تتبع المبدأ القائل: « الكنيسة حرة في الحكومة الحرة ». فان كنيسة اثينا لا تسمح بتدخل البطريرك المسكوني القسطنطيني في شؤونها. وحتى كنائس انطاكية واورشليم واسكندرية نفسها لا تعترف بسلطة ادارية للبطريرك المسكوني عليها. وعند قيام خلاف بينها فللحكومة المحلية المدنية ان تفصل فيه، ولو كانت تلك الحكومة غير مسيحية كالخكومة التركية. وخلاصة القول انه لا رأس لهذه الكنائس كلها بل هي كلها رؤوس وما اسهل تأييد قولنا بالشواهد واما وحدة الايمان فاننا نرى ايضاً انها مفقودة بين تلك الكنائس، بحيث لا يجمعها الا وحدة اللقب لا غير. فمنها من

يقول مثلاً ان في المسيح طبيعة واحدة، ومنها من يقول ان فيه اقنومين الخ

الا ان لهذه الكنائس الارثوذكسية أفضلية عظيمة واحدة على الكنائس البروتستانتية، في انها تنكر الحرية المتطرفة في التعليم، ولها شي من المظهر النظامي؛ وعندها سلطة متسلسلة الدرجات لتعليم وادارة المؤمنين . ولكن الوحدة في الايمان والرئاسة، التي تربط كل فريق من المؤمنين في هذه الكنائس بكنيسته، ليست هي الوحدة الكاثوليكية الجامعة التي يريدونها المسيح مؤسس الكنيسة، بل انما هي بالاحرى وحدة قومية سياسية . فال يوناني مثلاً متمسك بديانته، لانها ديانة وطنه، حتى يظن لو انفصل عن مذهبه انه يكون قد تخلى عن وطنيته

ثم ان وحدة التعليم في الكنائس الارثوذكسية حتى اليونانية منها غير ثابتة، لان هذه الكنائس الاخيرة مثلاً آمنت في القرون السالفة بما لا تؤمن به الآن . فهي كانت تدعن في الماضي لسلطة خليفة القديس بطرس حتى الجيل الحادي عشر ثم خرجت عليه . وهي الان تُنكر ما آمنت به في الامس . ومنذ انفصلت عن روما خسرت مبدأ الوحدة في التعليم والرئاسة العليا معاً . فاذا عرض لها مُشكل في تفسير الكتب المقدسة او جرى خصام فيما بين اعضائها، منعهم استقلال كل من فرقهم الشتى ان يتفاهموا وان يتفقوا على خطة عملية او على الاجتماع ليحلوا المشكل . وهم لا يعرفون سلطة الا للمجمع المسكوني ، ولكنها سلطة

وهمية ايضاً . لانهم منذ انفصلوا عن الكنيسة الرومانية لم يستطيعوا ان يجمعوا مجعاً واحداً مسكونياً مع كل ما جرى من المنازعات والانقسامات الدينية . ذلك لان كنائسهم اصبحت كل منها محصوراً في دائرة بعض الشعوب . على حين ان الكنيسة الكاثوليكية قد جمعت من بعد انفصالهم ثمانية مجامع مسكونية . يقولون ان ما اقرته ورتبته المجمع المسكونية السبعة الاولى هو وحده قانون الايمان ، وقاعدة التهذيب الكنسي . إذن ألم يكن من عقائد الايمان ما اعتقدته الكنيسة قبل المجمع المسكونية اي قبل سنة ٣٢٥ ؟ وهل كانت الكنيسة ناقصة قبل المجمع السابع اي قبل سنة ٧٨٧ ؟ فان كانوا يعتقدون بالمجمع السبعة فلماذا لا يعتقدون بالمجمع الثامن الذي عقد في القسطنطينية نفسها ، ألأن هذا المجمع اطلق الحرم على فوتيوس مسبب انفصال كنيستهم ؟ وهل حكم على الكنيسة بالجمود بعد المجمع السابع ؟ فما تقدم يتضح السبب في انه اذا طرأ عليهم ريب في حقيقة او جرى بينهم خصام لم يجدوا سبيلاً الى إزالة هذا الريب ، او دفع ذلك الخصام . فهم يقولون ان السلطة العليا للمجمع المسكوني بينما هم يعلمون ان لا سبيل لهم الى عقد مثل هذا المجمع . ولذلك فان عدم وجود السلطة بينهم لفض المشاكل والحكم في المسائل الدينية يُفضي بهم الى الفوضى ، وكثيراً ما يدفعهم نحو الكنائس البروتستانتية . وهذا ما فعلوه منذ عدة قرون ، ولا سيما في ايامنا ، اذ نرى البطريرك المسكوني ، وقد اصبحت سلطته محصورة في نحو نصف مليون

نفس، ونرى معه بعض البطارقة الارثوذكس يشتركون في حفلات بروتستانية دينية، ويرمون انفسهم بين ايدي الكنيسة الانكليكانية

فهذا حظ كل غصن ينفصل عن الكرمة الحقيقية . وقد كتب جوزيف ديمستر في هذا المعنى : « اذا كان قد بقي للكنائس المنفصلة هيئة كنيسة وحافظت على اكثر الحقائق فذلك عائد الى الجهل السائد فيها . حتى اذا هبت فيها ريح العلم زالت هيئتها القديمة ولم يبق منها الا الغبار؛ ولست في حاجة ان اعرف حالة هذه الكنيسة في كل مكان، ولكني اعرف منها المعرفة الكافية التي تضطريني ان اقول : اذا بقي الايمان القديم في بلدة منعزلة فذلك دليل على ان العلم لم يدخلها بعد، ومتى دخل العلم ذهب بالايمان . وهذا الانقلاب لا يتم فجأة، بل بالتدريج . وان هناك شريعة ثابتة وهي ان كل الديانات، ما عدا الديانة الكاثوليكية، لا تقدر ان تثبت امام العلم، فالعلم نوع من الحوامض يحل كل المعادن ما خلا الذهب »

٣ نجر الوحدة في المناسة الكاثوليكية

والآن بعد ان رأينا ان الوحدة غير متحققة في الكنائس البروتستانية ولا في الارثوذكسية، فهل نراها روثية جليلة في الكنيسة الكاثوليكية؟ نعم اننا نجد في الكنيسة الكاثوليكية

وحدة العقائد ووحدة العبادة ووحدة الادارة بنوع جلي لا ينكره الا كل مكابر

ان في الكنيسة الكاثوليكية على أقل تقدير نحو ٣٥٠ مليوناً من المؤمنين يسوسهم لا اقل من ٢٠٠ الف كاهن والفي مطران، وتراهم كلهم في الكنيسة كشخص واحد. فكل كنيسة رعوية هي شخص واحد مع خوريها، وكم من الكهنة يضحون بحياتهم في سبيل خدمة رعيتهم، وما اجل دعوة الكاهن! فهو الذي يقضي ايام صباه في المدارس الاكليريكية استعداداً منه لخدمة النفوس، فيترك ملذات الدنيا وأفراحها، ويقف نفسه وبتوليته على خدمة الله والنفوس: فهو القناة التي يجري الله فيها غيث نعمه، وعلى يده يتم سر المعمودية الذي يعطي الحياة الروحية، وهو في الكنيسة الشرقية يمنح مع سر المعمودية سر الميرون لاعطاء مواهب الروح القدس، ثم هو يغسل النفوس بحميم التوبة من ادناس الخطيئة، ويغذيها بجسد المسيح وبكلام الله، ويعزيها في مصائبها الروحية والزمنية، ويزور المرضى ويعزي المحزونين، ويهتم بالايتام والفقراء، ويصلح الخلاف بين الأسر، ولا تنأ له راحة الا بعد ان يكون قد اتم ما يجب عليه، ويحسن الجواب في منبر الله، لانه مسؤول عن النفوس، فكل كنيسة كاثوليكية هي متحدة مع خوريها، فيها ترون رعية واحدة وراعياً واحداً واذا كان المؤمنون يطيعون في الرعية كاهنهم فكل الكهنة يطيعون في الابرشية اسقفهم، الذي له وحده الحق بان يسلمهم

«بالكهنة المقدس، وهو وحده يقلدهم ادارة كنائسه، ويدير شؤون الابرشية، ويهتم بتشيد الكنائس والمدارس وبالاعمال الخيرية، ويرعى شعبه في مراعي الخلاص، ويرشده بكلامه وامثاله وصلواته وادارته . ففي كل ابرشية كاثوليكية ترون رعية واحدة وراعياً واحداً

وكما يطيع المؤمنون كاهنهم والكهنة اسقفهم، هكذا يطيع الاساقفة وروساء الاساقفة البطاركة، وهؤلاء جميعهم يطيعون الحبر الاعظم خليفة القديس بطرس زعيم الرسل، ويوزرون الكرسي الرسولي في اوقات معلومة ليقدموا التقارير الوافية عن حالة أبرشياتهم . فالحبر الاعظم يحفظ وديعة ايمان الكنيسة، ويفسر الحقائق خالصة من شوائب الضلال، ويرعى الخراف والغنم والنعاج، ويثبت اخوته اذا ترعزوا . من نظام الفلك ان يدور القمر حول الارض والارض حول الشمس، وهكذا نظام الكنيسة الكاثوليكية بين الرعية ورعاتها، واذا انفصل احد المؤمنين او الكهنة او الاساقفة عن هذا الاتحاد سقط وتدهور كاليازك او الشهب المتساقطة كأنها الشوارد التائهة في الفضاء.

فباتحاد المؤمنين مع الكهنة والكهنة مع الاساقفة والبطاركة والحبر الاعظم تتم هذه الوحدة العجيبة التي طلبها السيد المسيح في صلواته : « ليكونوا واحداً كما نحن واحد »

هذه هي السلطة التي سلمها السيد المسيح الى بطرس ورساله فبقيت سالمة في شخص الخبر الاعظم والاساقفة، ولم يطرأ عليها تغيير منذ تسعة عشر قرناً، وَلَكَمْ في العالم من دولة دالت ومملكة زالت من يوم منح الرب السلطة لرساله. نرى مثلاً انه قد توالى في حكم هذه البلاد المصرية الرومان والبيزنطيون والعرب والفاطيون والأتراك والمماليك الى ان استتبَّ الملك في الاسرة العلوية المالكة، واما سلطة الكنيسة في العالم فبقيت هي هي واحدة، ما برح بطرس والرسل وخلفاؤهم الخبر الاعظم والاساقفة يديرون شؤون الكنيسة، وما زالت الوحدة في ادارة الكنيسة، وهي قائمة كعمود بين خرائب الدول وتقلب الحكام وانقلاب العالم الكنيسة واحدة في ادارتها وفي اسرارها، يستقي الجميع النعمة من مناهلها اي من الاسرار السبعة البيعية، ولا فرق في ذلك بين كبير وصغير وغني وفقير وقدير وحقير. الكنيسة واحدة في معتقدها بقانون ايمان واحد. فهي توحد العقول والقلوب والعزائم واذا ما حدث في الكنيسة الكاثوليكية جدال او خلاف وتكلمت روما انجلي الريب وزال الخلاف، وهذا هو ابهى مظهر من مظاهر الاتحاد في كل زمان ومكان

ان هذا الايمان الذي نتلو قانونه في القرن العشرين هو نفس انجيل السلام الذي بشر به السيد المسيح على الجبل، هو تعليم القديس بطرس في انطاكية وروما، وهو تعليم فم الذهب في القسطنطينية، وتعليم القديس اوغسطينوس في هيبون، وتعليم

القديسين اثناسيوس وكيرلس في الاسكندرية ، والقديس باتريكوس في ايرلندا . تطيع الكنيسة الكاثوليكية الآن خليفة القديس بطرس كما كانت الكنيسة تطيع بطرس في عهده الرسولي ، و كما كانت الكنيسة الارثوذكسية تطيعه في خلفائه الى القرن الحادي عشر ، و كما كانت الكنيسة البروتستانتية تطيعه في خلفائه الى القرن السادس عشر ، وسبب وحدتها في العقيدة صادر من التعليم الذي يقوم به اساقفتها تحت اشراف الحبر الاعظم

الكنيسة الكاثوليكية واحدة في ايمانها في كل مكان ، فاسمع القداس في القاهرة واتل فيها قانون الايمان ، ثم طف في خمس قارات المعمور ، اذهب الى باريس او الى نيويورك او بكين او استراليا ، حيث تجد كنائس كاثوليكية ، ثم الى مجاهل افريقيا والهند ، حيث يبشر المرسلون بالايمان تجد ذبيحة واحدة ، وتسمع قانون ايمان واحد وترجع رئاسة واحداً . ومهما كان فيها من الطقوس المتنوعة واللغات المتباينة فإيمانها واحد ، ومعتقداتها واحد ، وادارتها واحدة . لم تزل الكنيسة الكاثوليكية واحدة في تعاليمها رغماً عن كل المحن والتجارب وتقلبات الزمان . لقد قاومها الفلاسفة الوثنيون بكل ما كان لديهم من البراهين السفسطية وقاومها رجال الفصاحة بكل ما أوتوا من المقدرة الخطابية ، وقاومها رجال الحكم بكل ما عندهم من القوات والمال ، فباد الكل وتلاشوا ، وظلت الحقيقة باقية واحدة الى الآن

لو بُعث اجدادنا الاولون من اجدادهم لرأوا كل شي. قد
تغير في حكوماتنا ولغاتنا وملابسنا ومظاهر بلداننا الطبيعية
والاجتماعية. الا انهم لو دخلوا الى اي كنيسة كاثوليكية
لسمعوا فيها عين التعاليم التي كانوا يسمعونها، ورأوا فيها عين
الوحدة في الحياة الروحية وفي الاسرار وفي الرئاسة ومراتبها كما
عهدوها في ايامهم. فهم مستعدون ان يتلوا معكم قانون الايمان
أجل لقد بقي ايمان الكنيسة الكاثوليكية واحداً تحافظ
عليه مهما اضطررها ذلك الى توضيحات عظيمة مؤلمة حتى ولو
ببتر العضو الفاسد منها وفصل اولادها العاقين عنها
قام آريوس مع اتباعه ينكر الوهية الابن، فحرمت الكنيسة
آريوس واتباعه. وأنكر اوطيخا الطبيعتين في السيد المسيح،
فرشقته مع اتباعه بسهام الحرم، وجحد نسطوريوس وحدة الاقنوم
في فادينا الالهي، وقام أصحاب المشيئة الواحدة فانكروا وجود
مشيئتين في المسيح، فحرمتهم الكنيسة الكاثوليكية جميعاً. ثم
انكر البلاجيون ضرورة النعمة ففصلتهم عن شركتها. وجحد
في الغرب بيرانجه وجود السيد المسيح في الافخارستيا فردلته.
قام فوتيوس وانكر وحدة الرئاسة في الكنيسة بانكاره سلطة
الحبر الاعظم فحرمته، فهددها بالانفصال عنها وانفصل مع اتباعه،
وهي باقية مع الحقيقة. اراد هنري الثامن ان يخرق سنن الزواج
المقدس، ويطلق امرأته الشرعية، فحرمته الكنيسة مفضلة المحافظة
على وديعة الايمان الالهية ولو بفقدانها شعباً برمته أصر على

الاندفاع ورآء ملِكِه نحو هوة الضلال ! ولقد تصدع قلب الكنيسة رافة بابنائها المنفصلين، لكن سلامة الايمان اثن لديها من اتحاد نفاقيّ مع الضلال، وسماع صوت الله الذي اقامها محافظة على وديعة الايمان اهمّ لديها من إرضاء البشر . وقد استعاضت الكنيسة الكاثوليكية من هؤلاء الاولاد المتمردين ببنين هدتهم الى الحقيقة، ورقّتهم في معارج التمدن، وأتت بهم من المشارق والمغرب فوضعتهم في احضان ابراهيم

وما أكثر شهادات الذين لا يدينون بالدين الكاثوليكي عند ما يزورون روما في حفلات اليوبيل، او يحضرون مجمعاً من مجامع القربان المقدس الذي يقام كل سنتين في بلدٍ . إنهم يقولون : ان ما نرى في الكنيسة الكاثوليكية من الابهة والعظمة والاتفاق ليفوق وأيمُ الحق كل وصف . فلا تستطيع دولة في العالم ان تُضارع القوة الادبية العظيمة التي يتمتع بها البابا . نرى شعوب الارض كلّها تتراكمض، وبينما نشاهدها في غير محلّ تتباغض، نشاهدها هنا قد رفعت حاجز النعرات الوطنية، لتظهر اتحادها بالبابا . ان هذا الحادث ليس له مثيل في الارض، وليس لدولة مهما كانت قويّة مثل هذه المنزلة

هذه نتيجة الوحدة في الايمان والنظام والادارة . فاذا كنتم تحبون الكنيسة فاسعوا ان تضموا الى حضنها كل النفوس، ولا سيما من يهتمكم امر خلاصهم وسعادتهم، اسعوا للاتحاد فهو واجب ديني على الجميع، لان السيد المسيح لم يؤسس كنائس متناقضة

بل كنيسة واحدة جعل لها رأساً منظوراً، وهو القديس بطرس .
 اسعوا للاتحاد فهو بالنظر اليكم واجب وطني ايضاً، لاننا كلنا
 ابناء وطن واحد، ولغة واحدة وطقس واحد مع اخواننا الروم
 الارثوذكس، لا يفرقنا عنهم الا انكارهم ما كان آباؤهم
 واجدادهم مدة احد عشر جيلاً يعتقدونه ويقولون به اعني رئاسة
 الحبر الاعظم خليفة القديس بطرس . - فلنسع للاتحاد لانه يمنع
 الشكوك الصادرة عن الانقسام والتحزب ويرد الوحدة المقدسة
 الى رونقها السماوي بيننا . ولنسع له لانه يزيدنا قوة في مدارسنا
 ومشروعاتنا الخيرية - فلنسع للاتحاد بصلواتنا ومحبتنا وأمثالنا
 الصالحة لتتم صلاة السيد المسيح القائل : « ايها الآب القدوس
 احفظ باسمك الذين اعطيتهم لي ليكونوا واحداً كما نحن واحد »



قراءة الكنيسة

قلنا ان احدى صفات الكنيسة الجوهرية وعلاماتها الفارقة هي القداسة . فمن الواجب ان تكون الكنيسة مقدسة لتستحق ان تدعى كنيسة المسيح، حتى ان كل كنيسة تخلو من هذه الصفة لا تكون كنيسة المسيح

وقد سبق لنا شرح في ان السيد المسيح اراد القداسة لكنيسته، فقال للرسل : « كونوا كاملين كما ان اباكم السماوي كامل » . وهو يريد ان يظهر طيب عنصر الشجرة من طيب ثمارها، فقد قال : « من الثمرة تُعرف الشجرة » ووعده كنيسته بان يساعدها على الكمال وان يعصمها من الضلال والخطيئة بقوله : « انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر » وابواب الجحيم لن تقوى عليها »

لذلك يفسر القديس بولس رغبة السيد المسيح بقوله : « لقد احب المسيح الكنيسة وبذل نفسه لاجلها، ليقدسها ومطهرًا اياها بغسل الماء وكلمة الحياة، ليهديها لنفسه كنيسة مجيدة لا كلف

(١) متى ٥ : ٤٨

(٢) متى ١٢ : ٣٣

(٣) متى ٢٨ : ٢٠

(٤) متى ١٦ : ١٨

فيها ولا غضن، ولا شي. مثل ذلك، بل تكون مقدسة منزّهة من كل عيب^١»

ولا عجب ان يرغب السيد المسيح في ان تكون كنيسته مقدسة وان يُريد لها ذلك، فهو الاله القدوس وحاشاه ان يأتي عملاً ناقصاً، بل يريد ان تكون كنيسته مقدسة على مثاله . والغاية من تأسيس الكنيسة انما هي تقديس النفوس ومنح الوسائل المبلّغة الى الخلاص . وكيف نكون مسيحيين ونبليج الخلاص اذا لم نتبع المسيح ونكون قديسين ؟

ولكن ماذا نعني بقداسة الكنيسة - أمن الضروري لكي تكون الكنيسة مقدسة ان يكون جميع اعضائها قديسين ؟ كلاً ان ذلك غير ضروري اذ لا بدّ ان تأتي الشكوك في العالم، ولا بدّ ان يختلط الزؤان بالقمح، وان يكون اشرار لتظهر فضيلة الصالحين . ليس من الضروري إذاً لكي تكون الكنيسة مقدسة ان يكون كل اعضائها قديسين، بل يجب ان تظهر هذه القداسة في عدد كبير من ابنائها، ويجب ان يمتاز عدد من اعضائها بقداسة مختومة بإصبع الله اي بالعجائب

١ القداسة لا توجد في كنائس البروتستانت

فأين وفي اي كنيسة نجد هذه القداسة ألعها في كنائس البروتستانت ؟ اننا لا نجد لها في مؤسسي هذه الكنائس، ولا

في مبادئهم . واذا كان بعض افراد قد يصلون لاستقامة نيتهم الى قداسة عادية، فما كنا لنرى القداسة ظاهرة في البروتستانت عموماً . اما مؤسسو البروتستانت فلا نرى فيهم من الفضائل ما يدل على القداسة . لا بل نرى فيهم من فرط الضعف البشري ما يدل على ان ليس فيهم روح الله . فاننا نقرأ في مؤلفات لوتر مؤسس البروتستانت في المانيا من عبارات الوقاحة، وسوء الادب ما أصبح يعرفه الجميع . ان في إنشائه، على ما يقول بوسويه، من الكلام السافل والالفاظ البذيئة ما قد لا يتفوه به الرعاع وسفلة القوم انفسهم . وأية فضيلة نتظر من راهب حنث بنذوره، ودنس كهنوته، وتزوج براهبة، وسعى جهد طاقته مدة حياته كلها لإخلاء الدير من المتبتلين المتعبدين لله، وزرع بذور الخصام في بلاد جرمانيا، وانتهى بجماعته الى حالة من الفساد جعلته هو نفسه يتمنى لو رجعت بلاده في اخلاقها الى حالتها القديمة . وكيف يدعي إصلاح البشر من هو احوج الناس الى إصلاح نفسه ؟

وليس كلّين مؤسس البروتستانت في سويسرا وفرنسا باكثر فضيلة منه، فقد كانت سيما، سوء آدابه بادية على وجهه، وتعود من الفاظ السباب والهجر ما يتجاوز كل حدود اللياقة، ولوث كل انشائه بما يندى له جبين قارئيه وسامعيه خجلاً . وقد بلغت قساوته البربرية الى حد انه أمر باحراق رجل اسمه ميشيل سرقه لان كتاباته بشأن القربان المقدس كانت غير مطابقة لآرائه

واذا لم يكن لوتر و كلفين على شيء من القداسة، فهل كان مؤسس الإصلاح في انكلترا ارفع مقاماً في الفضيلة والادب؟ - كلُّ يعرف ان هنري الثامن ملك انكلترا لم يتمرد على الكنيسة الا ليهجر امرأته الشرعية كاترين دي أراچون، ويتمكن من الزواج بحنة دي بولين معشوقته، ولم يقف عند هذا الحد بل انه طلق بعد ذلك سبع نساء، وقتل بعض مطلقاته. فهو اقسى ملك في انكلترا على ما يقول الانكليز انفسهم. لذلك لا نقدر ان ننسب شيئاً من القداسة الى مؤسسي الإصلاح لا الى لوتر ولا الى كلفين ولا الى هنري الثامن. وان كانت هذه هي اصول الشجرة فما عسى ان تكون ياترى ثمارها - فقد قال السيد المسيح « لا يجنى من الشوك عنب ولا من العوسج تين »

ان المبدأ الذي يميز البروتستانت عن غيرهم هو ان الانسان يتبرّر بالايمان بدون الاعمال. فهل من ايمان حقيقي بدون اعمال، والقديس يعقوب الرسول يقول « ان الايمان بدون الاعمال ميت » وان لم يكن الايمان مقروناً بالاعمال فأين الفضيلة، واين ممارسة المشورات الانجيلية، واين تضحية النفس، واين القداسة ؟

فان كان بينهم بعض افراد من ذوي النيات المستقيمة يقومون بالاعمال الخيرية ويمارسون بعض الفضائل ويرضون الله فما ذلك الا لانهم لا يعرفون ضلالهم وقلبهم طاهر ومستقيم. ولكن لا

(١) متى ١٦ : ٧

(٢) يعقوب ٢ : ٢٠

تجد بينهم القداسة الممتازة عامة، ولن تجد فيهم القداسة المبنية على الكفر بالذات طول الحياة، ولا منهم الراهبة العذراء التابعة لوصايا المسيح ومشورات الكمال في انجيله الطاهر . ولا ترى بينهم المنصرفه اليه تعالى بالبتولية والعفة، كما رغب القديس بولس، تلك المضحية بكل ملذاتها، الواقفة حياتها على خدمة الله والقريب . وان عثرت على بعض ممرضات يسمين دياكونيس يخدمن في المستشفيات، فانها مهنة يتعاطيها لتدرّ عليهن ربحاً طائلاً يتخذنه عدّة لمقاومة طوارئ الحياة . واين تجد بين البروتستانت قداسة المرسل الكاثوليكي، الذي يضحي بلذّة المعيشة في وطنه وشهواته وامياله وافراح العالم، ليحمل الى بلاد المتوحشين، البشارة بالايمان في بلاد الصين والهند والكنغو وغيرها من اقاصي الآفاق . وان وجدت من البروتستانت نفرًا ممن يتلقبون بمرسلين تشبهاً بالكاثوليك، فانك لا تلبث ان تقول شتان بين خمر وخل، وذلك عندما تنظر الى المرسلين البروتستانت فتجد زوجاتهم الى جانبهم وهم يرتعون معهن في مجبوحه العيش، ولهم رواتب تشجعهم على احتمال الغربة، ريثما يرجعون الى بلادهم وقد حصلوا على معاش تقاعد يريحهم في عجزهم

ثم انهم عملاً بالمبدأ القائل : ان كل انسان حرّ بان يفسّر الكتاب المقدس على قدر فهمه، قد حذفوا من الديانة كل ما يزعج أهواءهم، حذفوا السلطة الكنسية والاسرار والكهنوت والاعتراف والتناول واكرام العذراء والقديسين والصوم والبتولية،

جففوا ينبوع القداسة وصدّوا النفوس عن اتباع المسيح في طريق الكمال والتشبه بالآلامه وفي ارتقاء درجات القداسة ولنا برهان آخر على عدم وجود القداسة في الكنيسة البروتستانية وهو ان اكل النفوس واجملها فيها عندما لا تجد في ديانة البروتستان ما تتوق اليه من القداسة والكمال ترجع الى الكنيسة الكاثوليكية، وحينئذ ترتقي الى أسمى درجات الكمال والفضيلة، ناهيك من ويزمن ومننج ونيومان وورد وفابر اولئك الذين قد طبّق ذكركم الخافقين لشهرتهم . ومن المعروف ان عدد الارتدادات السنوية ينيف على ١٣٠٠٠ نفس في انكلترا واغلب ما يكون ذلك في الطبقات الراقية علماً واخلاقاً . ولا تلبث انكلترا ان ترجع الى ما كانت عليه من الكشلكة ان بقيت على هذه الحال . بيد أننا لا نرى من جماعة الكاثوليك من يهجر كنيسته إلا لغاية في النفس كالتخلّص من واجبات الزواج، او إحراز مركز، او مكسب خسيس، حتى حقّ لاحدهم ان يقول « ان البابا عندما ينقي بستان كنيسته من الأعشاب الرديئة يرميها في كنيسة البروتستان » . ذلك ما ترىنا إياه الخبرة كل يوم، فلا يصعب علينا اذن ان نستنتج ان الكنائس البروتستانية غير حاصلة على صفة القداسة الجوهرية لكنيسة المسيح

٢ لا نجد القداسة في الكنائس الارثوذكسية

فأين نجد هذه القداسة في كنائس الارثوذكس ؟ أمقدسة

هذه الكنائس في نشأتها ومبادئها ؟ أو ظاهرة القداسة فيها ؟
ان التاريخ الذي يرينا مخازي لوتر وكلفين وهنري الثامن يشهد
ايضاً بان مؤسسي الكنيسة المدعوة ارثوذكسية : فوتيوس
وكارولاريوس وبطرس الكبير، لم يكونوا من القداسة على شيء .
فالاول فوتيوس حرمه المجمع الثامن، والاثنان الاخران لا يشهد
لهما التاريخ بقداسة السيرة

ومن المعلوم ان فوتيوس بدهائه وشدة ذكائه وكثرة حيله
ارتقى من الحالة العالمية الى الدرجات المقدسة فالمنصب البطريكي
في مدة ستة ايام، وقد زور للاستيلاء على هذه الرتبة رسالة الى البابا
يوحنا الثامن هي آية في الغش والخداع على ما يذكره المؤرخون .
وبعد ان أوصله تزويره إلى غايته لم تقف عندها مطامعه، بل سؤلت
له نفسه ان يحتكر السلطة المدنية كما احتكر السلطة الروحية .
ولما رأى فوتيوس ان الامبراطور باسيلوس قد انحطت قواه بعد
وفاة ابنه قسطنطين، ووقع في حالة العجز، انتهز هذه الفرصة
ليتبوأ أريكة الملك، فلم تساعد الظروف . لان الامبراطور
باسيلوس توفي، وعقبه ابنه لاون الرابع الفيلسوف، فأطلع على
مقاصد فوتيوس، فعزله عن المنصب البطريكي، ونفاه الى احد
الأديرة حيث قضى باقي حياته الى ان اخترمته المنون سنة ٨٩١
فالانفصال لم يتم مع فوتيوس لان لاون الرابع اعاد العلاقات
مع روما . ولكن بذور الشقاق التي زرعها فوتيوس كانت
قد نمت بعد نحو قرنين على يد بطريك آخر ليس بأقل طمعاً،

يدعى ميخائيل كارولاريوس اي الشماع . فهذا البطريك مثل
رواية فوتيوس واستبد بالسلطة الروحية، واراد ان يكون بابا
الشرق، فحرم روما . وكان الباعث الى الانفصال النهائي سنة ١٠٥٤
وكانت له مطاعم فوتيوس في تبو، أريكة الملك . فشعر
الامبراطور اسحق كومنين بالخطر واعتقل البطريك، وطلب
محاكمته، وبينما هو ذاهب الى المحكمة توفي على الطريق، فمثل
في محكمة الديان الرهيب بدلاً من أن يمثل في محكمة البشر
وكفى القول عن بطرس الكبير قيصر روسيا انه استولى
على السلطة البطريكية بان صاح في السينودس قارعاً صدره « انا
بطريك روسيا »

ومع اننا لا نظرى قداسة منشئي الكنيسة الارثوذكسية
لا ننكر ان هذه الكنائس لها افضلية على كنائس البروتستانت
فانها حافظت عموماً على قداسة المبادئ والاسرار ما خلا بعض
حقائق شذت فيها . ويعسر علينا ان نرى ثمار القداسة في البلاد
الارثوذكسية، وهي تجني الان في روسيا ثمار البلشفية التي
خربت تلك البلاد خراباً لم يكن له من نظير حتى على عهد
اتيلا صاعقة غضب الله، كما ان الشيع السرية قد تغفلت حتى
بين عدد كبير من اصحاب الرتب الكنسية في سائر الكنائس
الارثوذكسية . وذلك عمل لا ينطبق بوجه من الوجوه على
مبادئ الدين المسيحي

وهنا يحق لنا العجب لدى مشهد حري بالاعتبار، وهو الانقلاب

الهائل الذي جرى في البلاد الشرقية بعد انفصالها عن وحدة الكنيسة . فانا راينا قبل الانفصال عصوراً زاهرة ساطعة بنور العلم، وعابقة بأريج القداسة، اما بعد الانفصال فقد تبدلت الحال ورأينا اعصاراً انطفأت فيها مصابيح العلوم، وخيم عليها ليل داج خفيت فيه معالم العلوم والقداسة . ومن ينكر على بلادنا الشرقية انها كانت مهد الدين المسيحي ووطن القديسين ؟ ان ابن الله قد تجسد في الشرق في احشاء بتول هي ازكى من انبتت المسكونة من أولي الفضيلة والطهارة، وفي الشرق ظهر الرسل الذين بقوة الروح القدس عملوا العجايب، واقاموا الموتى، مقتسمين المسكونة بأسرها، وناشرين فيها لواء الدين المسيحي وأهرقوا دمهم لاجله

أليس ان في بلادنا الشرقية ايضاً قد قضى ملايين من الشهداء وجادوا باثمن ما لديهم لئلا ينكروا حقيقة من حقائق الايمان ؟ فمنهم استفانوس من أورشليم وهو اول الشهداء، وجاورجيوس من اللد، والقديس نيقولاوس من ميرا والاربعون شهيداً من سبسطية وكثيرون غيرهم

وهل كان اعظم الابرار القديسين العلماء من طينة غير طينتنا، ودم غير دمنا، أفليس القديس يوستينوس من نابلس، والعلامة اوريجانوس نادرة عصره من الاسكندرية، واوسابيوس ابو التاريخ الكنسي من قيصرية اورشليم، والقديس كيرلس اسقف اورشليم ؟ ألم يكن من مواطنينا كثير من اعظم القديسين الذين تملأ

مؤلفاتهم النفيسة مكاتب الشرق والغرب ؟ فأى بلدة تفاخر
 انطاكية بمثل يوحنا فم الذهب ، واي بلد لا تحسد قيصرية الكبادوك
 على مثل باسيليوس الكبير ؟ واي بلد لا تهنى نازينز بمثل نابغتها .
 ألا يحق لبيروت بأن تفتخر بالقديسين قزما وداميانس الطبيبين ،
 ورومانس مؤلف التسابيح الكنسية ، ولخص ان تباهي بالقديس اليان ،
 ولدمشق بالقديس حنانيا ويوحنا الدمشقي الذي سماه اللاهوتيين ابا
 اللاهوت و مؤجد الطريقة المدرسية المعروفة بالسكولاستيك ، وقد
 نسج على منواله لاهوتيو الغرب برمتهم . ولدمشق ايضاً الفخر
 بالقديس صفرونيوس الذي صار بطريركاً على اورشليم في ايام عمر
 ابن الخطاب ، كما وان اورشليم تفتخر بالقديس اندراوس الذي صار
 مطراناً على جزيرة أقريط ، وهو يدعى لذلك الاقريطشي
 في أي بلاد ظهر مثل القديسين ابناء مصر انطونيوس الكبير
 ابي الرهبان وباخوميوس ومكاريوس الاسكندري واثناسيوس
 الكبير اعظم مدافع في عصره عن الديانة المسيحية ، حتى كان
 يدعوه معاصروه رهبة الاربوسيين وبطل الايمان الصنديد ، وكيرلس
 الاسكندري ، ويوحنا الرحوم البطريرك ، والقديسة كاترينا مضارعة
 الرسل . اي بلد كفلسطين كثر فيها النساك وفاح عرف فضائلهم ؟
 فحسبنا ان نذكر القديسين ايلاريون وسابا وافتيموس وثاوكستوس
 وثاوذوسيوس وخاريتون ومريم المصرية البارة مثال التوبة
 العجيبة ، ومن المشهور ان بلاد فلسطين كانت مزدانة بما ينيف
 على عشرين الف ناسك

من اي بلاد غير الشرق تلقت اوروبا المرسلين الذين بشروها
بالايمان واخرجوها من ظلمات الوثنية الى انوار الدين المسيحي ؟
وبالاجمال في اي بلاد سطع نور الدين المسيحي اعظم سطوع
وفاح اريج القداسة ناشرًا عبيراً ذكياً اكثر مما في بلادنا الشرقية ؟
اليست مهبط الوحي ووطن الانبياء والشهداء والعذارى والنسك
والرسل . فكيف كنا واين نحن ؟ ولم هذا المنقلب ؟

ومنذ انفصلت الكنيسة الشرقية عن وحدة الكنيسة لماذا
أطفئت فيها انوار العلوم، وأقفلت المكاتب، وأقفرت الديورة
العامرة، وكادت تنقطع منها سلسلة العلماء والقديسين والشهداء
والعذارى والنسك، حتى صار الشرق في الحالة التي عليها الان،
وقد انقلب عزه ذلاً وحريته رقاً . فسقطت عظمة مملكة
بزنطية، وهُدَّت اركان القسطنطينية، وانتقلت الحضارة المسيحية
الى اوروبا واميركا، وعاد الغربيون يبشروننا بالايمان بعد ان كنا
نبشرهم نحن به . وانحصرت في الغرب تلك الحياة التي قد طالما
عهدناها في الشرق، وها هي ذي الكنيسة الغربية بدوام اتحادها
بكرسي بطرس لا تزال محافظة على الكشككة وعلى التقاليد
المقدسة التي قد طالما ازدهت بها الكنيسة الشرقية قبل الانفصال

٣ نجم القداسة في الكنيسة الطنوبكية

اولئك علماؤها الاعلام كالقديسين توما الاكوييني،
وبوناونتورا . هوذا عصر لاون الكبير الزاهر بالعلوم، اولئك

جهاينة القرن السابع عشر كبوسويه وفنيلون وبوردالو والقديس
الفونس دي ليغوري، وكثيرين غيرهم ممن يكملون سلسلة
علماء الشرق

اولئك قدّيسوهم العظماء كالقديسين فرنسيس الاسيزي
وعبد الاحد واغناطيوس دي لويولا، وفرنسيس السالسي وفرنسيس
كسفاريوس رسول الهند، ومنصور دي پول، والقديس يوحنا
دلاسال، والقديسة تريزيا، وغيرهم من القديسين الذين ملأت
اسماؤهم مجلدات البولانديست الضخمة، تتوالى بهم سلسلة القداسة
في الغرب وقد كادت تنقطع حلقاتها في الشرق

لانفسين سيرة الاحبار الاعظمين، وفضلهم على الكنيسة
على توالي الاجيال وفيهم الاكثرية الساحقة من العلماء والقديسين،
وليس من يجهل اياديهم البيضاء على الكنيسة بل على البشرية
باسرها . فهم في كل عصر وأن ما زالوا واقفين بالمرصاد لمنع
الاضاليل، وبتر الاعضاء الفاسدة، ومقاومة تيار الفساد ونشر
التعاليم الالهية والفضائل والاداب السليمة في العالم بأسره

ومن تراه يجرأ ان يماري بسمو قداسة هؤلاء المختارين، وتلك
حياتهم حافلة بجلال اعمال الغيرة والفضيلة وساطعة ببواهر العجائب
والمعجزات . ولهم فوق ذلك شهادة الكنيسة المقدسة . وهي
مضرب المثل في الحرص على تحري الحقائق وتمحيصها حتى لا
تعلن قداسة احد الا متحقة ومعتمدة شهادتين لا مرد عليهما .
شهادة فضائله وشهادة الله نفسه اي العجائب الباهرة

وهو ذارهبانياتهم الزاهرة التي لا تحصى من رهبان وراهبات ومرسلين ومرسلات، وهم مئات من الالوف وقفوا حياتهم على خدمة الله والنفوس ناذرين نذور الطاعة والعفة والفقر، ليداؤوا جروح الانسانية كلها . فتراهم مهتمين بالولد اللقيط وإنشاء مدارس الايتام وتعليم الناشئة وحماية الفتاة بزواج شريف، وتعهد الفقراء، وخدمة المرضى في المستشفيات وايواء العجز، وقصارى الكلام تراهم مظهرًا للكمال المسيحي، وهم يتممون سلسلة رهبان الشرق . ولا يسعنا الا ان نذكر الرسائل المنبثة في اقطار العالم، والاموال الطائلة التي تنفق في سبيل الانجيل . وهذه اعمالهم الخيرية، من جمعية انتشار الايمان المقدس التي توزع الملايين على المرسلين المنبثين في الهند والصين واليابان ومجاهل افريقيا، الى جمعية الناشئة المقدسة التي تبذل ايضاً الملايين لتهديب الناشئة، وجمعيات القديس منصور العديدة التي تتمم ما بدأ به الشرق من الأعمال الخيرية الرافعة لشرف الانسانية

(١) نشرت احدى المجلات اخيراً الارقام التالية : للكاثوليك في العالم ١٥٦٧٠٠ مستشفى او نزل للمرضى والعجز، فيها ٧٥٠٦٠٠٠ سرير، ويقوم بخدمتها ١٣٥٦٠٠٠ شخص . وللکاثوليك ايضاً لاجل تعليم الفقراء والعمال ١٣٦٤٠٠ معهد، فيها ٦٦٨٦٠٠٠ سرير ويقوم بخدمتها ٧٠٠٦٠٠٠ شخص . ولهم ايضاً ٩٦٣٠٠ محلّ للاسعاف . ويبلغ عدد الاشخاص الذين يؤتمون كل محلات الاسعاف هذه نحو ٢٦٣٨٩٦٠٠٠ يضاف اليها ١٤٠٦٠٠٠ مؤسسة تعنى بمساعدة المعوزين في منازلهم

ويبلغ عدد الذين قد وقفوا حياتهم للخدمة في هذه المؤسسات والمشاريع

فما علة هذا الجحول الذي شمل الشرق بعد ذاك الازدهار ؟
 آه انه يؤلمني القول إنّ الغصن الشرقي قد انقطع معظمه من
 كرمة المسيح فذبل وكادت تجف فيه الحياة ولا مهرب من
 الاقرار بهذه الحقيقة البادية الجارحة التي تخفض من غلوائنا
 ألا ان الغصن الغضّ من الطوائف الكاثوليكية لم يزل
 يأتي والحمد لله بثمار العلوم والقداسة؛ لانه بقي متصلاً بجفنة المسيح .
 فلكل من الطوائف المارونية والارمنية والسريانية والكلدانية
 والقبطية تاريخ مجيد . وهاءنذا اقتصر الآن على ذكر طائفتنا
 الكاثوليكية الملكية المتحدة بالكرمة الالهية . فها هي ذي
 قد ازدهت بثمار شهية على رغم وجودها تحت حكم دولة جائرة
 وتحملها اضطهاداً متواصلاً وخسارتها معظم اوقافها، ولا تزال
 سائرة في معارج الرقي حتى تعيد ان شاء الله سالف تاريخها المجيد
 افلا ترون ان هذه الطائفة العزيزة رغماً عن الظروف المقاومة
 التي كان من شأنها ان تسحقها يحق لها ان تفتخر بنعم سابغة
 وماثر جمّة . تُذكر بالحمد والشكر لله . وانها لخليقة بأن تفتخر
 بسير بطاركتها العظام، من مكسيموس مظلوم العالم الكبير
 والمجدّد شباب الطائفة بمشروعاته العظيمة، وجهاده الجبّاري، الى

كلها ٣٦٠٠٠٠ راهبة و ٣٢٠٠٠٠ راهب و ١٢٠٠٠٠ علماني يتناولون اجرة،
 و ٦٦٥٠٠٠٠ يخدمون مجاناً لوجه الله

وكل هذه المؤسسات على نفقة الكاثوليك من حيث انهم كاثوليك

البطريك اكليمنضوس بجوث الذي تذكر له العجائب، وسائر
البطارقة والمطارنة الاجلاء، الذين شيدوا المعاهد والمعابد، ورفعوا
شان كنيستهم بوقت وجيز . يحق لها ان تفتخر برهبانياتها
واكليروسها ومرسليها وجمعياتها الزاهرة وأعمالها الخيرية، ومدارسها
الراقية

يحق لها ان تفتخر بشهادتها الحديث العهد الذين قتلوا في
دمشق وحلب ضحية اتحادهم بالكروسي الرسولي، وان تفتخر
بعدد عديد من أسرها الكاثوليكية التي جعلت الفضيلة والتمسك
بالدين شعاراً لها، تحافظ عليه محافظتها على إرث ثمين، وان تفتخر
بشبيبتهما الراقية التي لها في كل مدينة نواحي ادبية وجمعيات
خيرية ومآثر غراء يذكرها الجميع بالثناء.

كل ذلك لانها بقيت متحدة بكرسي خليفة القديس بطرس
هامة الرسل كما كان اباؤها واجدادها متحدين به . ولا نذكر
هذه المفاخر على سبيل الكبرياء، ونحن لا نجهل ان الكمال لله
لكننا نذكرها لنذيع نعمه تعالى، ولنبرهن بوقائع الحال ان كل
غصن لا يزال متحداً بكرمة المسيح يأتي بثمار كثيرة

هوذا تاريخ الشرق المجيد يدعونا الى تجديد نشاطنا، والسير
على آثار ابائنا واجدادنا فلنتشبه بهم :

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح
ولا نكتفين ان نقول ان كنيستنا مقدسة، بل على كل
منا ان يسعى لتقديس نفسه فنكون اهلاً لبنوتها الشريفة .

فتظهر فينا ثمار القداسة بتمسكنا بواجبات ديننا، وبممارسة المحبة نحو الجميع، لكي يشاهد اخونا المنفصل عنا الامثال الصالحة، ويمجد الله، بسلوكنا وينضم الينا، فتتم بذلك رغبة السيد المسيح في ان نكون قدّيسين، « وان نكون كاملين كما ان ابانا السماوي هو كامل »



أو من بكنيسة جامعة « كاثوليكية »

سبق لنا ان ذكرنا ما هي العلامات التي ميّز بها السيد المسيح كنيسته وفي اي كنيسة تتحقق منها صفتا الوحدة والقداسة . ومرادنا الآن ان نبحث عن الصفة الثالثة التي نتلوها في قانون الايمان وهي : « أو من بكنيسة جامعة »

فماذا نعني بكلمة جامعة ؟ معناها ان الكنيسة تشمل العالم كله، وتدعو الى حظيرتها كل الامم والشعوب في كل مكان وكل زمان، غير منحصرة في شعب او أمة او مملكة . هذا ما تعنيه كلمة كاثوليكية اليونانية الاصل التي وردت في قانون الايمان المقدس، فنتلوه نحن الكاثوليك كما يتلوه إخوتنا المنفصلون ايضاً

Πιστεύω εις μίαν Ἀγίαν καθολικὴν καὶ Αποστολικὴν Ἐκκλησίαν.

على انه ليس من الضروري ان تجمع الكنيسة في حضنها كل افراد الشعوب بأسرها . بل يكفي كما ذكرنا سابقاً لكي تستحق هذه التسمية ان تكون هذه غايتها بحيث تتجه دعوتها الى جميع البشر على السواء وتجمع منهم فعلاً عدداً وافراً من كل امة وفي كل البلاد المعروفة

يجب ان تكون كنيسة المسيح جامعة لان السيد المسيح أتى ليخلص كل البشر، ومات لاجل الجميع، وله الحق الاسمي

على الجميع ان يعرفوه وينضموا « تحت لوائه ويعبدوه ». فمن الواجب ان تسعى كنيسته لان تشرك بثمار الفداء جميع الناس؛ وهذه هي ارادة السيد المسيح الصريحة اذ امر رسله قائلاً : « اذهبوا الى العالم اجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها ». فعلى الرسل قياماً بهذا الواجب، ان يبشروا حيث امكن الامر في العالم كله . وعلى العالم السماع لهم والاقبال على دعوتهم . تلك نبوءة السيد له المجد انبأ بها في معرض كلامه عن مريم المجدلية لما افرغت الطيب على قدميه فقال : « حيثما كرز بهذا الانجيل في العالم كله يُكرز بما فعلت هذه المرأة تذكراً لها » فيجب ان تتم هذه النبوءة مع نبوءته الأخرى حيث قال لرسله « ستكونون لي شهوداً في اورشليم واليهودية والسامرة والى اقصى الارض » ولا عجب في ذلك لأن الحقيقة هي للجميع، ومن طبيعتها الانتشار في العالم بأسره . وكل ديانة تدعي أنها الديانة الحقيقية لا بد ان تسعى لتشمل العالم باجمعه لان للجميع حق الاطلاع عليها . ولذلك فكل ديانة محصورة في قوم او شعب لا يمكن ان تكون الديانة الحقيقية لان الحقيقة الدينية يجب ان تنتشر بين جميع الناس؛ غير منحصرة في وطن او شعب

لما استولى طارق بن زياد على بلاد مراکش، ووصل الى

(١) مرقس ١٦ : ١٥

(٢) متى ٢٦ : ١٣

(٣) اعمال ١ : ٨

مضيق البحر الفاصل بين مراكش واسبانيا، وضاق امامه المجال ظلّ هاجماً بفرسه، ودخل البحر ثم ادار وجهه الى اصحابه وقال : « يعلم الله وانتم شهود أنه لا يمنعني من مواصلة فتوحاتي إلا البحر » لذلك سموا الجبل القريب من ذاك المكان جبل طارق ونحت الافرنج من هذين الاسمين جبال التار

اذا كان للغزاة الفاتحين موانع تحول دون متابعة فتوحاتهم، فان الحقيقة لا تعرف مانعاً ولا حاجزاً، لا مضيقاً ولا بجزراً لا جبلاً ولا قفراً . ان للحقيقة حقاً من الله أن تستولي على العالم بأسره، ويريد الله ان تنتشر في العالم على ممر الاجيال انتشار نور الشمس على الجبال والوديان، ليهتدي الجميع بهداه وتعم خيراته ونعمه العالم بأسره

قلنا ان الحقيقة من طبعها الانتشار وأن لكل الناس حقاً بمعرفتها، فهي غذاء العقل الذي يحتاج اليه كل انسان، هي شمس تفيض على الجميع النور والحرارة . ولهذا فان كل جمعية دينية تدعي الحقيقة، ولا تبذل قصارى جهدها في نشرها، تبخس هذه الحقيقة قدرها وتغيظ الله، لانه الحق بالذات . وان كل حقيقة تُحصر في فريق من الناس لا تستحق هذا الاسم لأن الحقيقة ملك للجميع

وكل كنيسة لا تسعى جدّ السعي لتنتشر في العالم وتخلصه وتنيره وتقدسّه، او لا تقدر على ذلك لضعف داخلي فيها، ليست كنيسة المسيح . فلننعم النظر الآن لنرى اي جماعة دينية قد سعت

في ان تنتشر هذا الانتشار، وكللت مساعيها بالنجاح . فكانت اسماً وفعلاً جامعة اي كاثوليكية فنعدّها الديانة الحقيقية . فلننظر اي الديانات التي نعرفها عاملة لتنتشر في العالم بأسره ولها الوسائل المبلغة الى هذه الغاية ؟ فتلك هي الديانة الحقيقية

١ لا نوجد هذه العلامة في البراهات الخارجية

عن الكنيسة الكاثوليكية

هل هي البوذية ام ديانة البراهمية ؟ ولكننا لا نجد فيهما شيئاً من ذلك . وماذا حاولت الصين لتنتشر الحقيقة ؟ لا ينكر أنها تقتل المرسلين المسيحيين، ولكنها لم تفكر قط في ان ترسل اليها مبشرين . لماذا لا يرسل اليها الالاما الكبير في تيبهت رسله ليطلعنا على ديانته ؟ ماذا يمنعه من أن يطلعنا على اسرار بوذا ؟

ولا نقول شيئاً عن الأديان التي تنتشر بالإرهاب والسيف فان هذه الطريقة مخالفة للحق والعدل والحرية المقدسة . ولو كانت الشعوب قد سكنت خوفاً، فالحقيقة لا تحتاج الى السيف بل الى البراهين التي تقنع العقل والى المحبة التي تسترق القلب هل نجد هذا الانتشار في الكنائس المنفصلة عن الكنيسة الكاثوليكية ؟ قد مرّ نحو تسعة قرون على انفصالها عن الكنيسة الرومانية، ولم ترل محصورة في روسيا والبلقان وبعض اجزاء

تركياء، وقد عجزت عن المحافظة على ابنائها اذ خسرت منهم
عدداً كبيراً

وما كانت الكنيسة المسكوبية محافظة على الديانة الا بسيف
الحكام، والآن، وقد مُنحت حرية الاديان قد اصبحت تمزق
احشائها كل ممزق وتجرّ سكانها الى الويل والخراب . فكانها
جثة قد حفظها البرد من الانحلال فلماً سطعت عليها اشعة الشمس
بدأت تنحل

واما باقي الامم الارثوذكسية فانها بدل أن تنشر ديانتها
وتوسّع نطاقها أخذ ظلّها يتقلص حتى أصبح البطريرك المسكوني
يسيطر على مؤمنين أقلّ عدداً من إحدى ابرشيات أوروبا، وقد
كان يتناول المشرق بأسره . حتى حق القول ان سنة الحياة في
هذه الكنائس انما هي عكس الرقي والتقدم، وان القوة الذاتية
العاملة فيها انما هي قوة الانحطاط والتقهقر

ولعلنا نجد هذا الانتشار في الكنائس البروتستانية، وقد يلوح
ان هناك شيئاً من ذلك ولكن اسمها نفسه كافٍ للدلالة على
حقيقة ما ينطوي عليه هذا الانتشار الظاهري . فهي ليست
بكاثوليكية اي جامعة بل هي بالحري مفرقة لأنها ليست الا
كنائس معترضة او محتجة، وهذا معنى اسم «بروتستانت» . قصرت
همها منذ نشأتها ولاسيما في القرنين السادس عشر والسابع عشر
على محاربة الكنيسة الكاثوليكية ومحو كل معتقد في النفوس .
ثم انها اخذت منذ قرنين تبذل جهوداً ظاهرة، وتنشئ المؤلفات

وتطبع الكتاب المقدس بلغاتٍ مختلفة، وجعلت انكلترا ترسل الرسل الى مستعمراتها بل الى خارجها أحياناً . ولكن كل هذه الحركة لا تسمح لها بأن تسمى كاثوليكية . لان الكنائس البروتستانية تكاد تتعدد بتعدد الأفراد . وهي لا جامع بينها الا الاسم وبغض الكنيسة الكاثوليكية المؤسسة على الصخرة البطرسيية . أما فيما سوى ذلك فهي متنافرة تحارب بعضها بعضاً وتنقض بعضها بعضاً وليس ذلك من حقيقة السمة الكاثوليكية بشي . . أجل إنها اتفقت على ان تنشر الكتاب المقدس وهي تنفق الملايين في نشره، لأن دولة انكلترا مساعدة على ذلك . ولكن نشر هذا الكتاب المقدس لا يأتي بالثمار المرغوبة، لأنها تنشره محرّفاً ولأن الذين يعرفون القراءة يفسرونه بالمبدأ البروتستاني الاساسي كما شاؤوا وشاءت اهوائهم، أمّا غير المتعلمين فيستعملونه لغير الغاية المقصودة من نشره

ثم ان هناك فرقاً عظيماً بين المبشر البروتستاني، والمبشر الكاثوليكي . فالمبشر البروتستاني لا يذهب غالباً إلا الى مستعمرات انكلترا، حيث يجد علماً يظلمه وسيفاً يحميه . اما المبشر الكاثوليكي فبحاله العالم بأسره، ورايته الصليب المقدس، وسلاحه التجرد والغيرة، وممره حيث يرى نفوساً تنسكع في ظلام الضلال في اية ناحية كانت من الارض ولو رأى هناك الاضطهاد يترصده، وكثيراً ما لقي فيها الاستشهاد الذي يثبت الديانة المبشر البروتستاني يذهب الى التبشير متكئاً على ذراع

حليته، لتكشف غمه في خلوته. والمبشر الكاثوليكي يظل بتولاً مستعداً ان يضحي بنفسه في سبيل الفقير والمريض والمبتلى. المبشر البروتستاني يذهب وهو ناعم البال بالمرتب العالي الذي يتقاضاه، ومعاش التقاعد الذي يربحه في عجزه، واطايب الحياة تسليه في عزله، اما المبشر الكاثوليكي فانه ينفق بدون حساب لمساعدة المدارس والفقراء والمرضى، ويموت غالباً فقيراً معوزاً غريباً عن وطنه. المبشر البروتستاني، اذا ما تهدده الخطر، فان اول ما يهتم له ان يقي نفسه بالهرب تاركاً النفوس وشأنها، ففعل الاجير اذا رأى الذئب مقبلاً. اما المبشر الكاثوليكي فهو لا يزال مستعداً ان يضحي بحياته عند اللزوم لانه يعرف ان دم الشهداء بذار للمسيحيين

المبشر البروتستاني يبشر باسم شيعة او مذهب من مذاهب البروتستانت المتعددة، اما المبشر الكاثوليكي فانه يبشر باسم ديانة واحدة في المبادئ والاسرار والسلطة. فما اعظم الفرق بين الظواهر البروتستانية والبواطن... فهي اذن ليست كاثوليكية بالمعنى المقصود من هذه السمة

وهل الشيعة الماسونية هي ديانة كاثوليكية جامعة ؟

اننا نراها تحاول الانتشار بين الاغنياء وعظماء العالم وتحتقر الفقراء، تحاول الانتشار في الظلام وتهرب من النور. لان النور يفضح اعمالها ويكشف غايتها المخفية التي هي ذلك صروح الدين والآداب. وقد عرفت الكنيسة اسرارها وحرمت اعضاؤها. وهذه

الاسرار لا يعرفها احد حتى المنتمون اليها ما داموا في الدرجات الدنيا

٢ هذه العلامة لا توجد الا في الكنيسة الكاثوليكية

لقد أجلنا النظر في اهم الديانات ولم نجد ديانة كاثوليكية اي جامعة إلا الكنيسة المسماة بهذا الاسم اي الكنيسة الكاثوليكية. فهي مالكة بحق هذا الاسم منذ تسعة عشر قرناً بدون اعتراض، وقد اصبحت معروفة عند الجميع، وحكمها به حكم انسان وضع يده على بيت مدة طويلة من الزمن بطريقة علنية مشتهرة ولم يكن له من معارض، فان هذا البيت ملك له طبقاً لشرعية الاستمرار ووضع اليد. فيكم باولي حجة يكون للكنيسة الكاثوليكية الحق بهذا اللقب وقد سمى الجمع المسكوني الاول الكنيسة الحقيقية باسم الكنيسة الكاثوليكية، وافتخر بهذا الاسم بعض القديسين امثال القديس كيرلس وباسيانوس واوغسطينوس. ومما قاله القديس اوغسطينوس « ان اعداء الكنيسة شاؤا ام أبوا، اذا ارادوا ان يفهم الناس كلامهم يجب أن يسموا كنيستنا الكنيسة الكاثوليكية ». بهذا الاسم كان يفتخر القديس باسيانوس اذ قال « اسمي مسيحي ولقي كاثوليكي » استحققت الكنيسة الكاثوليكية هذا الاسم في الزمن الماضي، وهي تستحقه في عصرنا هذا. إذا اراد ملك ان يفتح

فتوحاً، فلا بد أن يُصادف مصاعب في غزواته ناشئة من اختلاف
الوطنية والملل والنحل، تتصدى له في زحفه البحار الواسعة
والجبال الشاهقة، والمناطق المتباينة من البلاد الحارة في خط
الاستواء الى البلاد المتجمدة عند القطبين . فليس من السهل
الاستيلاء على هذه البلاد المختلفة . ولا تقتصر الصعوبات على
اختلاف البلدان، بل المصاعب العظيمة في اختلاف الأمم
وأخلاقهم، وفي تباين لغاتهم وعوائدهم وأديانهم وشرائعهم، فإن
أكبر الغزاة الطامحين قد وقفوا أمام هذه المصاعب

بعد ان استولى الاسكندر على آسيا الصغرى وما بين النهرين
وعلى مصر ووصل الى الهند، « وقد سكنت الارض حيناً بين
بديه » اضطر الى الرجوع على اعقابه لما سمع جلبة هياج الشعوب
التي استولى عليها . وروما بعد ان وسعت مملكتها اكبر توسيع،
وبثت طغياتها في ابعد الحدود، اضطرت ان تقر بعجزها مع
التعس الحظ فاريس في سهول جرمانيا . وشرلكان الذي لم تكن
الشمس لتغيب عن املاكه شاهد في مدة حياته تقسيم مملكته
المترامية الاطراف . ونابليون اكبر قواد العصور بعد ان وصل
الى موسكو وشاهد حريقها، اضطر الى التقهقر في سهول روسيا
حيث تبعثرت جثث جنوده المتجلدة من شدة البرد على طول
الطريق، وقد أفل نجمه وهوى مجده

ولكن ما لم تقدر عليه الممالك العظيمة قدرت عليه قوة

واحدة دينية . ففتحت العالم وأخضعت لحكمها الأمم والشعوب على تباينها واختلافها، وهذه القوة هي الديانة الكاثوليكية . وقد استحكمت هذا الاسم فهي اعظم ديانة انتشرت في الماضي وفي الحاضر . فقد امتدت من القطب الى القطب مجتازة القفار والبحار مذلة كل العقبات، وانتشرت في كل المناطق عملاً بأمر السيد المسيح القائل : « اذهبوا واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها »

تقاسم الرسل العالم المعروف في ايامهم، واخذوا على عهدتهم امر تبشيره بالخلاص، حتى حق ان يقال عنهم « في كل الارض خرج منطقهم » وفي اقطار المسكونة انبث كلامهم^١ . نسمع ترتوليانوس يقول في القرن الثالث للوثنيين : « نحن بنو أمس وقد ملأنا مع ذلك مجتمعاتكم ومعسكراتكم والقصر ومجالس الشيوخ، والنوادي ولم نبق لكم الا هياكلكم فارغة مقفرة^٢ »

قامت الكنيسة الكاثوليكية منذ نشأتها بواجب نشر الانجيل واخضاع العالم لسلطان المسيح، فخاضت حرباً بلا هوادة بينها وبين الضلال، وحملت في هذا السبيل الحملات الصادقات واحدة تلو الاخرى بلا خوف ولا ملل . ففي حملة اولى دامت ثلاثة قرون أهرقت فيها انقي دمها، اي ما ينيف على عشرة ملايين

(١) مرقس ١٦ : ١٥

(٢) مزمور ١٨ : ٥

من الشهداء، واستولت على العالم الروماني، برغم ما ألمّ بها من الاضطهادات العامة العشرة . ولما جلس قسطنطين الكبير اول ملك مسيحي على العرش الروماني، كانت خارطة الكنيسة الكاثوليكية تعادل خارطة العالم الروماني بل تفوقها

وفي حملة ثانية دامت ثلاثة قرون آخر استولت على شمال اوروبا وغربيها؛ اي على الجزائر البريطانية الشهيرة وإيكوسا وإيرلندا التي كانت قد اعجزت القياصرة انفسهم، وقارة جرمانيا وبلاد إسكنديناوية التي لم يجترئ احد من الغزاة ان يتوغل فيها من قبل

وفي حملة ثالثة في القرن السادس عشر اجتازت مع فاسكو دي غاما رأس الرجاء الصالح، وجنوب افريقيا ونزلت مع خريستوف كولب في اميركا، وأسست كنائس في الصين واليابان

قامت الكنيسة بعملها هذا المجيد، ورايتها الصليب المقدس وسلاحها كلمة الله الصادقة، فذلت كل عقبة مما يقوم في سبيل المبشرين بسبب اختلاف المناطق والبلدان وتعدد الملل والنحل وتنوع العوائد والشرائع والتربية والاخلاق . فبعدما اخذت من الامة اليهودية اكرم ابنائها واصفاهم نفساً وقلباً اخضعت الامم اليونانية واللاتينية . واذ وطدت عرش سلطانها على انقاض عروش القياصرة في روما، تصدّت لتيار البرابرة الهاجمين على اوروبا فظفرت بأمم الشمال منهم والجنوب وامم الشرق والغرب

وكانت كلتها اليهم : احرقوا ما كنتم تعبدون (اي الاصنام)
واعبدوا ما كنتم تحرقون « اي الصليب » . فاقبلوا عليها
مطيعين فرحين . ثم توغلت بين الامم البربرية حتى بُجرات
الكندا وجبالها، ناشرة مملكة المسيح في كل محلّ باكتساب
العقول واستجلاب القلوب، فضمت في حظيرتها مع أمة اليهود
واليونان واللاتين أمة كلوفيس الفرنسية، وأمة الأريك
الفيزغوطية، وأمة لومبارد اللومباردية، وأمة القديس استفانوس
المجرية، وأمة فلاديمير المسكوبية . وهكذا تمت نبوءة اشعيا القائل
« يرعى الذئب مع الحمل » اي البربري مع المتمدن . ولم يهملها
اختلاف الحكومات سواء كانت مستبدّة او ملكية او جمهورية،
فهي تحترم الاشخاص والعوائد غير المنافية للايمان والآداب
تلك، بوجيز الكلام، كانت كيفية انتشار الديانة الكاثوليكية
في العالم في الزمن الماضي . فما حالة هذه الديانة في عصورنا الحاضرة ؟
ان الديانة الكاثوليكية في وقتنا الحاضر هي اكثر الديانات
انتشاراً في العالم، فهي بذلك ايضاً مظهر جليّ لِسمة الكشلكة
بانتشارها وعدد ابنائها ونجاحها ونموّها

تمتد الكنيسة الكاثوليكية من القطب الى القطب مارة
بخط الاستواء . وفي كلّ قارة وكلّ بلدة وكلّ جزيرة ترى الديانة
الكاثوليكية منتشرة انتشاراً حياً . تراها في أوروبا واميركا
وآسيا وافريقيا واوقيانيا . انها بالحقيقة المملكة التي لا تغيب
الشمس عنها، وهي التي تمّ فيها قول النبي ملاخيا لتقديم الذبيحة

الطاهرة من مشرق الشمس الى مغربها (ملاخيا ١: ١١)
هي كاثوليكية في انتشارها في العالم، وكاثوليكية في
عددها بالنسبة الى باقي الكنائس . واذا كان البروتستانت يناهزون
مئتي مليون والكنائس المنفصلة تقارب المئة والسبعين مليوناً،
فان ابناء الكنيسة الكاثوليكية بحسب الاحصاء الاخير الذي
ذكرته الجرائد الرسمية الكاثوليكية وجرائد البروتستانت
انفسهم قد بلغ ثلاث مئة واربعين مليوناً . فالكاثوليكي مها
اختلفت لغته وعوائده يجد لنفسه في كل قطر يرتاده كنيسة يصلي
فيها على مثل ما يكون قد تعلمه واعتاده في موطنه . وحيثما
توجه ألفى الكنيسة واحدة في مبادئها واسرارها وادارتها
ان للكنيسة الكاثوليكية حقاً خاصاً بهذا اللقب لانه متحقق
فيها فعلاً بانتشارها المتواصل، بينما نرى غيرها من باقي المذاهب
ينكمش ويتقلص وتجذب الكنيسة منه تلك النفوس الطيبة
التي تبحث عن الحقيقة وتطلبها وتضحّي في سبيلها بكل رخيص
وغالٍ ولا تجد راحة الا بها . وما اكثّر عدد البروتستانت
والارثوذكس من اذكياء العقول وانقياء النفوس الذين يرجعون
الى حضن الكنيسة الكاثوليكية فيجدون فيها غذاء العقل
وراحة القلب والضمير

الكنيسة الكاثوليكية تزداد وتنتشر في العالم بأسره . سواء
لقيت امامها الاضطهاد ام حرية العمل، حتى انه حيث لا سبيل
الى التبشير الا بالجهاد وبذل الحياة نراها تنتشر بسفك دماء العدد

العديد من مرسلها، لان دم الشهداء لا يزال بذاراً للمسيحيين كما قال ترتوليانوس

الكنيسة الكاثوليكية لا تزال تواصل فتوحاتها السلمية .
فترى الوف مرسلها منبثين في اقاصي الارض، من الاصقاع المتجلدة حتى المناطق الحارة على السواء، وكل منهم يقول مع القديس بولس « الويل لي ان لم ابشر » . وهم حيث حلوا برزوا للعمل بقوة المحبة المسيحية فكأنهم اخوة للذين يبشرونهم فانهم يجوبون اصقاع افريقيا مثلاً واميركا وآسيا، ويكتسبون قلوب البرابرة بافعال المحبة ومعالجة المرضى وتعليم الاولاد، وينتهون ببث حقائق الايمان ونشر ألوية الفضيلة بينهم، فيهذبون اخلاقهم ويرقون بهم الى ذرى الحياة المسيحية

أجل إنه قد يطرأ احياناً على الكنيسة الكاثوليكية ما يغم قلبها الحنون بفقد عدد من ابنائها الذين يريدون الحرية في المعتقد وفي الآداب، ولكنها تعترض من ذلك بفتوح جديدة مستمرة . فاذا قلّ الايمان في بلد انتشر في بلاد اخرى، حتى يصح القول ان اضطهاد الكنيسة الكاثوليكية يزيد بنيتها تمسكاً بدينهم . واذا كان الاضطهاد واقعاً عليها الآن في بعض البلدان من اميركا واوربا على شبه ما كان يحدث في عصور الهمجية، فانها تمتد وتبشر بالانجيل في بلدان جديدة، من اميركا واستراليا واواسط

افريقيا وجزائر اوقيانيا، وتبث روح الرقي وال عمران فيها، فتتأسي بذلك بعض التآسي عن كفران بعض اولادها
 اما عظمة الكنيسة الكاثوليكية فاذا شئتم ان تعرفوا شيئاً منها فانظروا الى مجمع من مجامعها المسكونية، الى المجمع الفاتيكاني مثلاً الذي عُقد سنة ١٨٦٩، حيث اجتمع اكثر من ٨٠٠ اسقف. هناك ترون معرضاً بشرياً من كل بلدة تحت السماء، هناك تجدون اساقفة الشرق مع اساقفة الغرب، الانكليزي والالمني والفرنسي والسويسري والنمساوي والايطالي، والبولوني والكندي والمكسيكي والبرازيلي مع بطاركة انطاكية والاسكندرية واورشليم، ومطارنة الجزائر وتونس ومصر، والاساقفة المرسلين مع مطارنة استراليا والصين والهند واليابان ومجاهل افريقيا. ترونهم بهيئات ولغات مختلفة، ولكنهم كلهم بايمان واحد وقلب واحد ينشدون قانون ايمان واحد قائلين: « نؤمن بكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية »

ان عصرنا يريد براهين حسية. واي برهان حسي امتن وافعل من رؤية كنيسة فاتحة العالم رغماً عن الاضطهادات والمهرطقات، ومقاومة ارباب السلطة وقوات الجحيم كلها، فتحت العالم واخضعت لملكها شعوب الارض، لا بالسيف ولا بالمال ولا بالجنود ولا بالاساطيل ولا بقوة بشرية، بل بقوة ذاك الذي امرها ان تبشر بالانجيل الخليقة كلها: ان فيها قوة الهية جعلتها واحدة مقدسة كاثوليكية فهي اذا كنيسة المسيح الكنيسة الحقيقية

الكنيسة الكاثوليكية رسولية

رأينا في المحاضرات السابقة ان الكنيسة الكاثوليكية هي واحدة جامعة مقدسة، واذ ثبتت لنا فيها هذه الصفات التي طلبها السيد المسيح وارادها في كنيسته، تأكدنا انها الكنيسة الحقيقية . ولا اظنكم تحتاجون الى مزيد إيضاح في اثبات حقيقتها . الا ان السيد المسيح اراد ان يكون لكنيسته صفة رابعة تمتاز بها عن غيرها، وتكون واضحة للبصائر كالشمس، لئلا يكون لأحد عذر في عدم تمييزها، وهي الصفة الرسولية . ونعني بهذه الصفة أولاً ان تكون سلطة التعليم والادارة فيها صادرة من الرسل وخلفائهم، بلا انقطاع . ثانياً ان تبقى الكنيسة محافظة على تعليم الرسل، لان كل من يتكلم باسم الله ينبغي ان يستمد سلطته من الله

ولا غرو، فان السيد المسيح نفسه قد أعلن انه نال كل سلطان من ابيه السماوي وانه جاء مرسلاً من لدنه، للتبشير بالخلاص، وانه هو ايضاً يولي هذه السلطة نفسها رسله وخلفاءهم من بعدهم لكي يكملوا عمله على الارض . فالكنيسة التي تثبت ان تعليمها هو تعليم الرسل وان سلطتها صادرة عن الرسل تكون هي الكنيسة الرسولية اي كنيسة المسيح

إن الله جلّ جلاله لم يرد أن يعلن أرائه وشرائعه للعالم بواسطة إلهامات الروح القدس لكل فرد من الناس، كما يزعم بعض الخارجين على الحقيقة . بل انه كلمنا، على ما يقول لنا القديس بولس، «كلاماً مختلف الأنواع» بواسطة انبيائه، ثم بواسطة ابنه الوحيد، فهو رسول اعترافنا وحبّه^٢، على ما قال ايضاً الرسول

فقد سبق القول ان السيد المسيح صرح بأنه لم يرسل نفسه بل هو مُرسلٌ من قِبَل ابيه الازلي . لذلك نسمعه يقول : «إن الآب أرسلني» وقد برهن ان الآب ارسله بصنع العجايب . ولكن اذ كان وجوده في العالم انما هو لزمان محدود، وكانت الغاية من تأنسه خلاص البشر، كان من اللازم ان يتخذ وسيلة لمواصلة عمله على الارض إلى منتهى الاجيال . وهذه الوسيلة التي اتخذها قد أعلنها بكل وضوح وصراحة اذ خاطب اباه الازلي قائلاً : « كما أرسلتني الى العالم أرسلتهم انا الى العالم » . وقال ايضاً لرسله : « كما أرسلني الآب كذلك أرسلكم » . من سمع منكم فقد سمع مني ومن أهانكم فقد أهانني^٣ « وبناء عليه جعلهم

(١) عبرانيين ١ : ١ و ٢

(٢) عبرانيين ٣ : ١

(٣) يوحنا ١٧ : ١٨

(٤) يوحنا ٢٠ : ٢١

(٥) لوقا ١٠ : ١٦

يقومون مقام شخصه في نشر تعاليمه ووضعها موضع العمل في العالم كله مدى الاجيال؛ طبقاً لقوله ايضاً : « علموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم به . وها أنا معكم كل الايام الى منتهى الدهر »

فهو إذا لم يرسلهم الى أمة خاصة، والى زمن محدود، بل الى العالم بأجمعه والى منتهى الأجيال . ومن البديهي أن الرسل وهم لم يوعدوا بان لا يموتوا لا يبقون الى منتهى الدهر الا بشخص خلفائهم

فمن الضروري اذا أن يكون تعليم الكنيسة مطابقاً لتعليم الرسل، وأن يستمدّ المبشرون سلطتهم من الرسل أو من خلفائهم، لأن الرسول بولس يقول : « إذا أتى ملاك من السماء وبشّركم بخلاف ما بشّرناكم به فليكن مبسلاً » . والرسول نفسه يحرّض تلميذه تيموثاوس قائلاً : « وما سمعته مني لدى شهود كثيرين إستودِعْه أناساً أمناء أهلاً لأن يعلموا غيرهم » . ولذلك كان لا مناص من القول ومن التسليم بأن ليس من تعليم في الكنيسة سوى تعليم الرسل، ولا فيها سلطة الا سلطة من كلّفهم الرسل أو خلفاؤهم بالتبشير

وقال ايضاً القديس بولس : « لا احد يأخذ لنفسه هذه

(١) متى ٢٨ : ٢٠

(٢) غلاطية ١ : ٨

(٣) ٢ تيموثاوس ٢ : ٢

الكرامة إلا من دعاه الله كما دعا هرون^١. وقال ايضاً: «كيف ييشرون، ان لم يُرسلوا^٢؟» اي ان لم ترسلهم سلطة شرعية. فالرسل قد وضعوا ايديهم وصلّوا على خلفاء لهم ليعطوهم سلطانهم، وأرسلوهم ولم يسمحوا لغيرهم بالتبشير، وهذا ما نقرأه في اعمال الرسل: «رأى الرسل والكهنة مع جميع الكنيسة ان يختاروا رجلين منهم يبعثونهما الى انطاكية مع بولس وبرنابا^٣». وكتب القديس بولس لتلميذه تيطس: «إني إنما تركتك في اقريط لترتب الناقص، وتقيم كهنة في كل مدينة كما عيّنت لك^٤». بل ان رسول الامم نفسه، الذي دعاه الله بنوع عجيب للتبشير وعلمه الروح القدس، قد سامه الرسل بوضع اليد لئلا يُجرّب غيره بالتبشير بدون أمر الرسل.

فمن الواجب اذن أن يبرز كل مبشر اوراق رسالته، ويثبت فيها أنها آتية من الرسل او من خلفاء الرسل، لتكون له سلطة التعليم، كما أنه من الواجب اذا تسلّم قنصل غريب مركز القنصلية ان يبرز اوراق اعتماده، وإلا لم تعتمد الحكومة.

وذلك حقّ كان يطالب به آباء الكنيسة في الاجيال الأولى، فلم يكونوا يقبلون مبشراً ما لم يكن قد أرسله خلفاء الرسل الشرعيون،

(١) عبرانيين ٥ : ٤

(٢) رومية ١٠ : ١٥

(٣) اعمال ١٥ : ٢٢

(٤) تيطس ١ : ٥

والأنا أنكروا عليه هذه السلطة وعدّوه مبتدعاً . وكانوا يقولون
 للمبشر الغريب : « من أنت ، ومن أين أتيت ، ومتى أرسلوك ؟ »
 كانوا يقولون للهراطوقي مرقيون : « بأي سلطة تقطع في غاباتنا »
 ولفالنتينيانوس : « من سمح لك بان تتحكّم في اصل ينبوعنا » .
 وكانوا يقولون للمتبدعين : « أيّها المبتدعون ، أرونا أصل كنائسكم ،
 أرونا جدول اساقفتكم » . بهذه الوساطة كانت تبرهن الكنائس
 الشرقية الكاثوليكية أنها كنائس شرعية . فالهراطقة الاولون لم
 يقدرُوا ان يجيبوا عن هذه الاسئلة لأنهم اختلسوا السلطة اختلاساً ،
 وسارق السلطة كسارق الدراهم يظلّ في نظر الجميع مختلساً
 خالي اليد من حجة قانونية يبرزها لتبرير موقفه . أما الذين ينازعون
 الكنيسة الكاثوليكية سلطة التعليم في عصرنا ، فليس لهم سلطة
 شرعية صادرة من الرسل او من خلفائهم . فإذا سألتهم المبشرين
 البروتستانت الذين يأتون هذه البلاد ، ليعلموا تعليماً غريباً لم يعرفه
 آباؤنا ولا اجدادنا ، ولم يعهده شرقنا : « من أين اتيتم ؟ ومن
 اعطاكم سلطة التبشير ؟ » فهم مجبورون على ان يخفضوا رؤوسهم ،
 او ان ينكروا سلطة الكنيسة ، لأن ليس في نشأة مذهب
 البروتستانت ما يساعدهم على رفع الرأس ، او على إظهار حقوقهم
 وان كان البروتستاني لوتيرياً فإن له سلطة قد استمدّها من
 راهب خان وعده الله بأن يبقى بتولا ، وتزوج براهبة ، وقرّد على
 السلطة الروحية ، هذا هو لوتر

وان كان كلثينياً فهو يستمد سلطته من رجل متمرّد عالمي

خالع العذار سيء السلوك الى حد ان سياء العار كانت على وجهه،
 وكانت الحكومة المحلية تطارده، هذا هو كلفين
 وان كان انكليكانياً فهو يستمد سلطته من ملك ألف
 خطيئة الدنس، وداس الشرائع الالهية والطبيعية، وحكم بالاعدام
 على البعض من نسائه . هؤلاء هم البروتستانت ومبشروهم
 يستمدون سلطتهم من ثلاثة متساوين في الكبرياء والدنس والعصيان
 فكيف يستطيع اصحاب الإصلاح المزعوم ان يصلحوا
 غيرهم، وهذه صفة آبائهم؟ كيف يقدرّون ان يجعلوا الى نفوسهم
 توجيه كلام السيد المسيح القائل: « كما ارسلني الاب كذلك
 أنا أرسلكم » (يوحنا ٢٠ : ٢١)

واذا سألتكم المبشرين المنفصلين عن الكنيسة، والمبشرين
 الارثوذكس: من أين انتم؟ ومن اعطاكم سلطان التبشير؟
 فبوسعهم ان يقدّموا جدول بطاركتهم، ولكنهم يضطرون ان
 يقفوا عند اسم فوتيوس، أمام رجل طمع بالبطريركية المسكونية
 كما طمع بالملك، امام رجل مستبد قد غيّر تعليم الرسل، وانفصل
 عن وحدة الكنيسة. فليت شعري! ماذا تكون حالة رسول
 انفصل عن تعليم الرسل، وعن طاعة القديس بطرس؟ هل كان
 الرسل يبقون في شركته؟ كلا! لان السيد المسيح لم يسلم
 السلطة منفردة ومستقلة الا الى القديس بطرس، واما باقي الرسل
 فانه لم يسلمها اليهم الا متفقين مع رئيسهم القديس بطرس
 فبناء على ما تقدم هل نقدر ان نسمي كنيسة رسولية

الكنيسة الخارجة على تعليم الرسل، وعلى خليفة القديس بطرس هامة الرسل؟ كلا لا نقدر ان ندعوها رسولية

ان من الواضح المعروف، الذي ينطق به التاريخ في كل صفحة من صفحاته، ان الكنيسة الشرقية كانت متفقة مع الكنيسة الغربية الى القرن التاسع والى القرن الحادي عشر، وان بطاركة انطاكية والاسكندرية واورشليم كانوا يعتقدون بسلطة القديس بطرس هامة الرسل، ويطيعون حبر روما كخليفة له، فيقبلون نوابه رؤساء على المجامع، ويرجعون إليه في مشاكلهم، شأن كل بطاركة الكنيسة الكاثوليكية. فلماذا قطعوا هذه السلسلة؟ لماذا غيروا تعليم الكنيسة في أمر جوهرى لإدارتها. أو ينتسب الى الرسل من يُغير تعليم الرسل؟ ان الكنيسة الكاثوليكية وحدها بوسعها ان تبرز جدول رعاتها، متسلسلين بلا انقطاع الى بطرس الصخرة الذي بُنيت عليه محافظين على تعليم الرسل، فهم اولئك الذين قال الرب لهم « كما أرسلني الاب كذلك أرسلكم » (يو ٢٠ : ٢١)

هم الذين يذكر اسماءهم القديس ايريناوس في القرن الثاني، وترتوليانوس في القرن الثالث، وابيفانيوس في الرابع وأوغسطينوس في الخامس، ولا يصعب على التاريخ سرد اسمائهم على توالي الاجيال، كما لا يصعب عليه معرفة اسماء القياصرة وسلاطين بني عثمان مثلاً فان عدد احبار روما العظام قد بلغ ٢٦١ بابا من البابا بيوس الحادي عشر المالك سعيداً الى البابا بنديكطوس الخامس عشر

الى بيوس العاشر الى لاون الثالث عشر الى بيوس التاسع الى
غريغوريوس السادس عشر، وهكذا الى القديس بطرس الذي
قال له الرب: « انت الصخرة وعلى هذه الصخرة ابني كنيسةي،
وابواب الجحيم لن تقوى عليها » وبين هؤلاء الباباوات يذكر
التاريخ ٢٧ شهيداً و ٧٧ قديساً يعرفهم بهذه الصفة اخوتنا
المنفصلون انفسهم

فهؤلاء الاحبار قد ساسوا كنيسة المسيح منذ تأسيسها،
وحافظوا على وحدة الكنيسة وعلى قداستها، ولبثوا متمسكين
بتعليم الرسل، وقرّظهم اعظم القديسين وافصح الخطباء، وكم
شهدوا من عروش تثلّ وممالك تسقط ومملكتهم التي هي مملكة
المسيح باقية تزداد تبسطاً وانتشاراً

اضطهدهم القياصرة، فباد القياصرة ودان لهم العرش الروماني
نفسه . تمرد عليهم المراطقة فارتدّ المراطقة خاسرين وازداد
تعليمهم ظهوراً ورسوخاً طبقاً لقول الرب: « انا معكم كل
الايام الى منتهى الدهر » وقوله ايضاً: « وابواب الجحيم لن
تقوى عليها »

ان مملكة الكنيسة اقوى واوسع الآن منها في كل عصر

(١) متى ١٦ : ١٨

(٢) متى ٢٨ : ٢٠

(٣) متى ١٦ : ١٨

ماضٍ، والى هذه الكنيسة كان بطاركتنا، بطاركة انطاكية
والاسكندرية واورشليم منتمين، وبهذه الكنيسة لا يزالون متحدين
واني وايم الحق لأعجب اذ يسألني بعض البسطاء، «أنحن
خرجنا من الروم أم الروم قد خرجوا منا؟» فالحقيقة ان الروم
ظلوا متحدين بالكنيسة الرومانية كل القرون التسعة الأولى،
الا انهم في القرن التاسع، ولاسيا في الحادي عشر قد انفصل
قسم كبير منهم عن سلطة الحبر الاعظم الرئيس الاعلى بابا روما،
ولم يزل الى الآن نحو ستة ملايين من التابعين الطقس البيزنطي
اي طقسنا الملكي متحدين به . وكان هذا الاتحاد يظهر من
حين الى آخر بين البطاركة والحبر الاعظم، كما أن الخلاف ايضاً
كان يظهر لصعوبة المواصلات، ولاسباب سياسية لا محل لذكرها
هنا، الى ان انضم الجزء الاكبر نهائياً في الجيل السابع عشر،
ورجعنا الى ايمان آبائنا واجدادنا محافظين على المعتقد نفسه
فقد تجلى لكم اذاً ان الكنيسة الكاثوليكية هي كنيسة
المسيح لانها حاصلة على الصفات التي يريد بها المسيح . فهي
حاصلة على النظام بوحدتها العجيبة، وعلى الكمال بقداستها،
وعلى الكشكة بانتشارها، وعلى انتمائها الى الله بانتمائها الى الرسل .
لقد ظهرت لكم هذه الصفات ظهور الشمس في رائعة النهار
هذه الصفات رآها من البروتستانت والروم المنفصلين
كثيرون من ذوي النيات الصالحة والعقول الشاقبة، فارتدوا الى
حضن الكنيسة الكاثوليكية، وعددهم لا يحصى . اكتفي منهم

بذكر بطلين ممتازين هما من اشهر علماء عصرنا وفلاسفته أولهما من الكنيسة الانكليكانية البروتستانية واسمه نيومان، والثاني من كنيسة المسكوب اسمه فلاديمير سولوفياف .

كان نيومان الذي توفي منذ عهد قريب سنة ١٨٩٠، في بدءاً امره مديراً للدروس في كلية اكسفورد، ومن اشهر اساتذتها، وكان من الذكاء وبلاغة اللسان وفصاحة المنطق على جانب عظيم حتى عدّ اشهر كاتب عند الانكليز، وقد قال عنه جلاديسون الكبير : « انه اكبر مفكر عندنا منذ الاصلاح » . وكانوا يعدّونه لاهلي الرتب في انكلترا، ولما كان عليه من السلوك الملائكي، كانوا يفكرون في ترقية الى رئاسة اسقفية وستمستر الا ان استقامته وسلامة طويته رفضتا كل الرتب شغفاً بمعرفة الحقيقة واتباعها . فان ضميره كان يقول له : ان كنيسة ليست كنيسة المسيح . فأخذ يكبّ على درس تأريخ الكنيسة ومطالعة كتب الالباء القديسين، فافضى به البحث الى ان رأى جماعة البروتستانت بعيدين عن الحقيقة بمراحل . فأخذ ينشئ مقالات كان لها رنة عظيمة في انكلترا اذ كان يكشف فيها عن مغالطات كنيسة البروتستانت، فيتهافت الجميع على قراءة مناظراته . وبينما الجميع يشغفون بمطالعة كتاباته ويضعون الى اقواله، وفي مقدمتهم شبان كلية اكسفورد، اذابه قد اعتزل الرتب واعرض عن الجاه والغنى، وخلا في قصر منفرد لدرس الحقيقة خالصة من كل مأرب وهوى

وكان في اثناء ذلك يعيش عيشة الكمال ويصلي الى الله طالباً النور، وهو مستعدّ لان يضحي لاجل الحقيقة بكل رخيصٍ وغال، وكانت الاعناق مُشرّبة اليه لترى ما تنتهي اليه ابجاثه، والكنيسة الكاثوليكية التي لم يرد ان يخالط رجالها لئلا يؤثروا فيه تصلي لاجله، لتربح لله رجالاً ممتازاً كهذا طائر الشهرة وبعد البحث والتنقيب مدّة اربع سنين في العزلة، شعر بينما هو يصلي بنور عظيم يريه الحقيقة خالية من كل ريب، وضميره يقول له: «لا خلاص لك الا في الكنيسة الكاثوليكية». حينئذٍ قام في الحال، وكانت الامطار تهطل مدراراً، فذهب الى دير للباسيونيست اي لرهبان الآلام الكاثوليك، ولما وصل بين يدي الاب الرئيس جثا امامه، وقال له: «إني ارجب ان تقبلني في حضن الكنيسة الكاثوليكية. فارتعش ذاك الرئيس لمعرفة علو مقام نيومان وشهرته، إلا انه قال له: «لا بد لي ان اقول لك إننا نرتاب في صدق معموديتكم، لكون البعض يسيئون استعمالها». فقال له نيومان: «افعل ما يجب عليك، فاني مستعدّ لكل تضحية وبذل». حينئذٍ عمّده تحت شرط دفعاً للريب في عماده الاول، وقبله في حضن الكنيسة. وبعد ذلك ذهب نيومان الى روما، فدرس اللاهوت مدّة اربع سنين، وسيم كاهناً، ولم يزل يزداد شهرة حتى ارتقى الى رتبة الكردينالية. وكان اذا ألف كتاباً تهافت الجميع على قراءته، واذا القى خطاباً أسرع الناس الى سماعه دون ابطاء او ملل، ولو دام كلامه

الساعات الطويلة . وكان لالتحاقه بالكنيسة الكاثوليكية صدى قوي في انكلترا فاقتدى به عدد كبير من تلامذته، ومن العلماء واصحاب الرتب العالمية، وابتدأت منذ ذاك الحين حركة الرجوع الى الكنيسة الكاثوليكية، واسماء الكرادلة وايزمان ونيومان وميننج، والعلماء فاير ووُرد غنية عن التعريف لشهرتها، ولا يزال عدد الكاثوليك في انكلترا على ازدياد كبير مطّرد، وهم نخبة المسيحيين في تلك البلاد

ويضارع نيومان شهرة فيلسوف كبير في بلاد روسيا عاش من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٩٠٠ اسمه فلاديمير سولوفياف؛ كان يعدّه المسكوب نابغة عصره، وقد اجمع الرأي العام على انه الفيلسوف الاول في روسيا ومن اكبر وارجح فلاسفة اوروبا في اواخر القرن التاسع عشر . فهو ابن اكبر مؤرخ روسي، امتاز منذ صباه بذكاء فائق، ولرغبته في ان يرى الحقيقة بعينه ونفسه، قرأ كتب اهم فلاسفة عصره، ولا يخفى ان في كتب الفلاسفة الغث والسمين، فأغوته الاضاليل حيناً من الزمن . ولما رأى ان الشهوات تغشي البصيرة نذر العفة لله، وظلّ مكباً على الدرس ومداومة البحث الى ان رفعته علومه الى منبر تعليم الفلسفة في كلية موسكو . ثم انتقل الى كلية بطرسبرج، وتسابقت اللجان الاكاديمية الى ضمه اليها . وقد كان يسحر الناس بكلامه سحراً حلالاً، الى حدّ أن سامعيه كانوا عند سماعه يصرخون : « إنه ملهم، إنه نبي »

وكان ضميره في تلك الاثناء يوحى اليه أن كنيسته بعيدة عن محجة الصواب . وبينما كان اصحاب البلاط الملكي مستعدين لرفعه الى اعلى المناصب ، حملته حرية ضميره على الاعتزال ، لانه لم يقدر ان يجهر بمبادئه ، والحرية الدينية مفقودة . ومما قاله عن وطنه : « اني احب وطني ولكن حي له لا يمنعني من رؤية اذاليه » . ارى ان كنيسة قومية شعبية مع ان كنيسة المسيح هي للعالم باسره . كنيسة المسيح يجب ان تكون جامعة . ان كنيسة كقطيع غنم يسوقه رعاته كرجال الشحنة ، بالخوف والارهاب . وبعد ان اكب على مطالعة كتب الاءاء القديسين ، ودرس درسا مطولا تاريخ الكنيسة الكاثوليكية ، أعجب بهذا التاريخ بالرغم من بعض نقائص بشرية في رجاله لا مناص منها بسبب الضعف البشري

وما لبث ان عرض على رجال الدين في الكنيسة الروسية ثمانية اسئلة وسهمهم بسمة العجز في الاجابة عنها . وفيها ان آباء الكنيسة الشرقية كانوا يؤمنون بانبثاق الروح القدس من الآب والابن ، وان الكنائس الاخرى قد انشقت عن الكنيسة الكاثوليكية وليست الكنيسة الكاثوليكية هي التي انشقت عنها لانها اعلى الكنائس ، واثبت ايضا لهم ان الانفصال هو عمل الاغراض والسياسات البشرية ، واستنتج من ذلك وجوب انضمامهم الى الكنيسة الرومانية

واخيراً أعلن بصراحة إيمانه بالكنيسة الكاثوليكية ، وقد

أكد أن ضميره لم يجد راحة الا من يوم انضمامه الى ابناء الكنيسة الكاثوليكية . ولفلاديمير سولوفيايف في هذا الانضمام نظراً، كثيرون من اشهر رجال الاكليروس والعالميين، ويعلم الله وحده عدد الشهداء والمضطهدين في بولونيا المسكوبية لاجهارهم بدينهم فمن الواجب علينا اذاً، ان كان فينا غيرة الرب . ان نبذل كل جهدنا لنردّ اخوتنا المنفصلين الى حضن الكنيسة

وايمُ الحق اذ ارى هذا الانقسام الديني بين مواطنينا اشعر بمثل عاطفة القديس بولس اذ كان يرى عددًا من اخوته اليهود لم يزالوا بعيدين عن الكنيسة، فكان يقول باكيًا . « الحق اقول في المسيح لا اكذب، انّ في قلبي غمًا وحسرة لا تنقطع، ولقد وددت لو اكون انا نفسي مبسلاً من اجل اخوتي ذوي قرابتي بحسب الجسد » . فانه تمنى ان يتجاوز ببذل الذات اقصى الحدود لو صحّ ان تكون خسارته هذه وسيلة لسعادة اخوته . تلك العاطفة ارددها لـ اخوتي المنفصلين عن وحدة الكنيسة، دون ان اصوب اللوم نحو واحد منهم، لانهم وجدوا في ظروف جعلتهم منفصلين . فليس لي فضل بانني بنعمة الله كاثوليكي وقد ولدت من والدين كاثوليكين، كما انه لا لوم على اخوتي بانهم ولدوا من آباء منفصلين عن وحدة الكنيسة . ولكن اللوم كل اللوم يكون على من يعرف الحقيقة ويمتنع عن اتباعها، اللوم يكون علينا

نحن الكاثوليك الذين عرفنا الحق، اذا لم نبذل جهدنا لنشرك فيه اخوتنا. على اني اعتقد واشعر أن هذا الكلام يظل عاجزاً ما لم تصحبه نعمة الروح القدس، لذلك فلنقرن صلاتنا بصلاة يسوع الطالب من ابيه هذه الوحدة: « ايها الاب القدوس احفظ باسمك الذين اعطيتهم لي ليكونوا واحداً كما نحن واحد. قدسهم بحقك إن كلمتك هي الحق. ولست أسأل من اجل هؤلاء. فقط بل ايضاً من اجل الذين يؤمنون بي عن كلامهم ليكونوا باجمعهم واحداً، كما انك انت ايها الآب في وانا فيك، ليكونوا هم ايضاً واحداً فينا، حتى يؤمن العالم بانك انت ارسلتني » (يوحنا ١٧ : ١١ و ١٧ و ٢٠ و ٢١)



ما هو نظام الكنيسة

قد بحثنا عن الكنيسة الحقيقية، ورأينا ان الكنيسة الكاثوليكية هي وحدها المتصفة بالعلامات الاربع التي شاء السيد المسيح ان تكون السمات المختصة بكنيسته . على اننا في وصفنا علامات الكنيسة لم نرَ كيفية تكوينها وحياتها وهيئتها الخارجية والداخلية . وهذا ما سنراه في عدة محاضرات تالية ان شاء الله . وانما نقتصر الآن على ان نرى : اولاً ان الكنيسة هي جمعية منظمة فيها سلطة مرتبة ذات درجات متفاوتة، وثانياً ان هذه الكنيسة هي شبه مملكة، ذات حكومة ملكية، وثالثاً ان هذه الكنيسة هي هيئة اجتماعية كاملة

ان الكنيسة بوجه الاجمال وجدت منذ وجد البشر على الارض . وهي تشمل جميع الناس الذين يخلصون بواسطة استحقاقات المسيح ونعمته . لان الله قد حدد ان لا يكون خلاص للبشر الا بواسطة ابنه الوحيد . اما في العهد القديم فقد كان البشر يتبررون بالايمان بمجيء المخلص الآتي، ويخلصون استناداً الى استحقاقاته : ذلك كان قوام العهد القديم . واما في العهد الجديد الذي تم فيه سر التجسد والفداء، فان البشر يخلصون بواسطة صلب المسيح وآلامه واستحقاقاته غير المتناهية وبالانتفاع من وسائل الخلاص التي رسمها لنا

وبوجه خاص نقول، طبقاً لتحديد اللاهوتيين، ان الكنيسة هي جمعية منظورة لها رأس غير منظور حقيقي، هو السيد المسيح ومن هذا الرأس الحي تجري الحياة الى كل اعضاء الكنيسة التي هي جسده السري وتفيض النعمة التي تبرر النفوس وتقدسها، فتجعلنا بنين لله واهلاً للميراث في السماء . وللكنيسة ما عدا رأسها غير المنظور رأس منظور على الارض، هو نائب السيد المسيح وخليفة القديس بطرس، يدير الكنيسة بالسلطان الالهي، ومعه خلفاء الرسل، اي الاساقفة، والذين يساعدونهم في الخدمة من الكهنة والشمامسة، وبواسطتهم يعطي السيد المسيح نعمته للمؤمنين

هذا هو النظام الذي اسسه السيد المسيح، فقد اتى ليفتدي البشر وافتداهم فعلاً بموته وصلبه، واسس كنيسة توصل اليهم نعمة الفداء، واعطاها سلطة لتواصل عمله الى منتهى الاجيال

١- ان الكنيسة جمعية منظومة

لا حاجة بنا ان نبرهن عن ضرورة وجود السلطة . فكل جمعية تريد الحياة والبقاء لا بد لها ان تواصل عملها بنظام، وذلك لا يتم الا بقوة سلطة تحافظ على ذلك النظام، فانه شرط اساسي لحفظ كيائها ولمواصلة عملها . لو شهد بعض منكم مثلاً في سوريا اثناء الحرب الكونية حالة بلدة انسحبت منها سلطة الاتراك، وابطأت سلطة الحلفاء في احتلالها، ورأى ما كان يجري هنالك

من السلب والنهب واخذ الثأر وانتشار الفوضى، لتجلى له باوضح بيان أن الحكومة هي ملح الارض . إن هذه الفوضى تكون ايضاً في العقول بين مؤمني الكنيسة، ان لم تكن فيها سلطة تنيرها في العقائد الجوهرية، وتوحد كلمتها في اتخاذ الوسائل المبلغة الى الخلاص

فهل يُعقل ان يكون قد فات السيد المسيح ادراك ضرورة السلطة في كنيسته لمواصلة عمله على الارض، ونحن نرى باجماع الجميع على مثل هذه الضرورة حياة كل جماعة تريد لنفسها البقاء؟ أو ليس من التجديف ان ننسب الى اله الحكمة عدم التبصر في سبب مجيئه الى الارض وهو خلاص العالم؟

فالسيد المسيح قد أسس كنيسة واراد ان تحيا الى منتهى الاجيال وقد سمّاها مملكته، واعطاها سلطة الممالك

وهو ملك هذه المملكة التي ارواها بدمه، وهذا الملك ليس كسائر الملوك الذين يحملون صولجان الملك اياماً قليلة ثم يتركونه لغيرهم، صائرين الى الفناء، بل هو ملك حي لا يموت . وقد كانت قيامته من بين الاموات انتصاراً جبّارياً على الموت وضمانة حياة مؤبدة لبني مملكته . وهو قبل ان يصعد الى السماء اقام خليفة له على هذه المملكة، وقلّد هذه الخليفة واعوانه سلطته الالهية . فاننا نسمع السيد المسيح يقول: « اني اعطيت كل سلطان في السماء وعلى الارض، كما ارسلني الاب كذلك ارسلكم، اذهبوا وعلموا كل الامم حفظ ما اوصيتكم به، كلما

حللتموه على الارض يكون محلولاً في السماوات، وكل ما ربطتموه على الارض يكون مربوطاً في السماوات، من سمع منكم فقد سمع مني ومن اهانكم فقد اهانني^١. فهل بوسع النطق البشري ان يأتي بعبارات اوضح من هذه، ليظهر للناس ان للسيد المسيح ممثلين على الارض؟

وقد فهم الرسل ذلك. ولذا نسمع القديس بولس يقول: «نحن سفراء المسيح كان الله يعظ على ألسنتنا^٢». فاذا علموا فالمسيح هو المعلم، واذا حكموا فالمسيح هو الحاكم، واذا امروا فالمسيح هو الأمر، فكل طاعة لشخصهم هي طاعة لشخص المسيح، وكل اهانة لهم فهي موجهة لشخص المسيح

وقد اطاع الرسل امر الرب وبشروا العالم باسره، حتى حتى حق للنبي ان يقول عنهم: «في كل الارض خرج منطلقهم، وفي اقطار المسكونة انبث كلامهم^٣». ولكن هل فنيت السلطة الرسولية بعد ان حجب الموت الرسل عن العالم؟ كلا ان المسيح بقي مع كنيسته: «انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر^٤». فليس لهذا الكلام من معنى لو انه كان موجهاً الى الرسل وحدهم ولم يكن لهم ان ينقلوا سلطتهم الى غيرهم. وهذا ما نراه في كلام القديس

(١) متى ٢٨ : ١٨ - ٢٠ ويوحنا ٢١ : ٢٠ ولوقا ١٠ : ١٦

(٢) ٢ كورنثس ٥ : ٢٠

(٣) مزمور ١٨ : ٥ ورومية ١٠ : ١٨

(٤) متى ٢٨ : ٢٠

بولس، وهو يخاطب كهنة افسس : « والآن ها اني عالم بانكم لا تعينون وجهي بعد، يا جميع من جلت فيما بينهم مبشراً بملكوت الله، فاحذروا لانفسكم ولجميع القطيع الذي اقامكم فيه الروح القدس اساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه^١ . فالقديس بولس عارف بان سيبقى من بعد موته اساقفة يرعون كنيسة المسيح

٢ انه الكنيسة هي سب مملكة

فالسيد المسيح قد اسس اذا سلطة في كنيسته . وبما انه ملك، قد اراد ان تكون كنيسته مملكة، وسلم إدارة هذه المملكة الروحية من بعده الى شخص واحد ميزه عن غيره، وقال له بنوع خاص : « انت الصخرة وعلى هذه الصخرة ابني كنيسةتي وساعطيك مفاتيح ملكوت السموات^٢ . واعطاه سلطان الحل والربط، قبل ان يعطي هذا السلطان رسله، ليفهم الجميع ان السلطة المسلمة من قبله الى بطرس تعلو كل سلطة اخرى في الكنيسة، وانه اليه وحده بنوع خاص عهد بالسلطة لادارة المؤمنين ورعايتهم اجمعين، فقال : « ارع خرافي، ارع غنمي، ارع نعاجي^٣ »

جعل السيد المسيح في مملكته الرسل حكاماً، والقديس

(١) اعمال ٢٠ : ٢٥ - ٢٩

(٢) متى ١٦ : ١٨ و ١٩

(٣) يوحنا ٢١ : ١٥ - ١٨

• بطرس رئيساً اعلى على الجميع ومستقلاً عن سلطان الجميع كالمملك
في مملكته . فالقديس بطرس هو النائب المنظور للمسيح غير
المنظور اذ ترك العالم كما قال ليعود الى الآب . وهذه المملكة
هي من المنعة والقوة بحيث لا تقوى عليها قوات الجحيم .
والقديس بطرس كالمملك في مملكة المسيح، وكل من يخلفه في
كرسيه يخلفه في سلطته وفي كل ميزاته . ولذلك حق القول ان
سلطة المسيح لن تزول عن الارض، وهي تدوم الى منتهى الاجيال
ان انكار هذه الحقائق الباهرة الانجيلية قد دهور البروتستان
في فوضى العقائد وفوضى الآراء وتعدد المذاهب الى ما لا نهاية
له . فانهم بانكارهم سلطة الله في الكنيسة، قد افسحوا السبيل
لفلاسفة القرن الثامن عشر الى انكار سلطة الله في الحكومات،
فادّعوا كروسو وغيره ان سلطة الحكومات ليست الا من
الشعب الذي له السلطة المطلقة، وان الشعب يولي حكّامه سلطته،
وله ان ينزعها منهم متى شاء، وكيفما شاءت اهواؤه، واذ ذاك
تنتقل تلك السلطة المطلقة الى ايدي الحكام . فكان من ذلك ان
هذا المبدأ قد صار سلاحاً في ايدي اعداء السلطات المشروعة
ليستبدوا افطع الاستبداد عند اختلاسهم لنفسهم تلك السلطة
التي حاربوها . هذا المبدأ سبّب الثورات التي خربت الممالك وقلبت
الشعوب . هذا المبدأ جرّ من الولايات والخراب ما لا يعلمه الا
الله وحده، ولا تزال نرى آثاره في البلشفية وفي انقلاب الحكومات
والوزارات المتواصل

والحقيقة هي « ان كل سلطان من الله » كما قال الرسول
ومن يقاوم السلطة يقاوم ترتيب الله . انما الفرق بين السلطة
الكنسية والسلطة المدنية هو ان الله لا يولي شخصاً معلوماً السلطة
الزمنية مباشرة ، ولكن بواسطة الشعب الذي يعين حكّامه ويختار
هيئة حكومته . وان قيل ان الطبيعة جعلت هذه السلطة بين يدي
الشعب بما انه لا بدّ لكل هيئة اجتماعية من سلطة ، فالجواب
انه اذا صحّ ان الطبيعة قد جعلت هذه السلطة في يد الجميع
فالتبيعة هي من الله ، لانه خالقها ، ومن ثم فهو ترتيب الله

واما السلطة الكنسية فصادرة مباشرة من الله . فان سلطة
الله جلّ جلاله هي في السيد المسيح الذي منحها للقديس بطرس
والرسل وسلطة القديس بطرس والرسل اعطيت لخلفائهم ، الذين
هم الباباوات خلفاء بطرس والاساقفة خلفاء الرسل في الكنيسة .
هذا هو ترتيب الكنيسة

ان الفرق بين السلطة الكنسية والسلطة المدنية هو ان
الكنيسة لا تقدر ان تغيّر شكل حكومتها ، بل لا بدّ لها ان
تصونها كما سلّمها اياها السيد المسيح ، وليس للشعب او لاحد على
الارض حق ان يغيّر شكل حكومتها ، او ان يتدخل في ادارتها
الروحية

واما السلطة المدنية فما ان الله خولّ الشعب اياها ، فالشعب

حرّ في ان ينتخب هيئة الحكومة التي يريدّها، وحرّاً ايضاً بان يجعل الحكومة ملكية، اي السلطة في يد ملك، او ارسطوقراطية، اي السلطة في يد نخبة من الاشراف، او ديموقراطية اي ان تكون بين ايدي الشعب فتدعى جمهورية . فالسلطة هي سلطة الله في كل الاحوال، وكل اشكال الحكومات متساوية في نظر الكنيسة، على ما قال البابا لاون الثالث عشر، بشرط ان تسعى الحكومة وراء الغاية باستقامة، اي ان تتوخى لشعبها الخير العام الذي لاجله سلم الله اليها السلطة

فالحكومة الملكية تحصل على الخير العام اذا كان يرأسها ملك نبه مستقيم، يسعى في سبيل المصلحة العامة ويوحّد الكلمة ويرتبط بروابط تقيدّه عن الاستبداد، اي بمجلس شورى يساعده على معرفة احوال البلاد، وعدم التهور في آرائه

والحكومة الديموقراطية تحصل على الخير العام، اذا كان الشعب يعرف ان ينتخب نوابه من بين الرجال الاذكياء والحكماء الساعين وراء الخير العام

على ان الكنيسة هي الهيئة الاجتماعية الكاملة الجامعة لكل محاسن هيئات الحكومات، والمعصومة من كل مضارّها. فالحكومة الكنسية هي حكومة ملكية معتدلة جامعة بين الحكومة الارستوقراطية والحكومة الديموقراطية

هي حكومة ملكية اي حكومة الخبر الاعظم، نائب السيد المسيح، الذي له ملء السلطة على الكنيسة باسرها في الامور

التشريعية والقضائية والتأديبية . ولكنها حكومة ملكية لا اثر للاستبداد فيها، لان للبطاركة والاساقفة السلطة التامة في ادارة بطريركياتهم وابرشياتهم مع خضوعهم للسلطان البابوي الاعلى، وهم يديرون شؤونها بكل حرية مع اتحادهم بالكروسي الرسولي . والحبر الاعظم نفسه الذي وعده المسيح بمساعدته لم يُعطَ ذاك السلطان الاعلى الواسع الا لاستعماله في حدود معينة ليس له ان يجيد عنها قيد شعرة . فهو مقيد في تفسير الكتاب المقدس، فلا يقدر ان يغير حرفاً منه . ومقيّد بتسليم الكنيسة اي بتقليداتها من حيث المعتقد والآداب للمحافظة عليها . ومقيّد بالشرائع الالهية التي أُقيم حارساً لها على الارض لا يقدر ان يغير منها حرفاً واحداً

ان حكومة الكنيسة تجمع الى محاسن الحكومة الملكية محاسن الحكومات الارستقراطية، لان عدداً من الاشراف يحكمون فيها، وعدداً من نخبة الشعب يديرون شؤونها . فالاساقفة يكونون في الغالب من الطبقة الراقية في الشعب، منحهم الروح القدس سلطة بان يرعوا القطيع الذي اقامهم رعاة عليه، وهم يشتركون مع الحبر الاعظم وتحت اشرافه في السلطة التشريعية والقضائية والتأديبية

وللكنيسة ايضاً محاسن الحكومات الديموقراطية . لان ليس

في درجات السلطة خلافة طبيعية او إرثية، وليس للباباوات والاساقفة ان يضمنوا كراسيهم للذرية . فأبواب الرتب الكنسية مفتوحة على مصراعيها لكل مستحق من الطبقات الشعبية والطبقات العالية على السواء حتى انه بوسع الفلاح والراعي والفقير ان يخلفوا في الكنيسة اولاد الامراء والاغنياء . قد ارتقى الى كرسي خلافة المسيح القديس بطرس الذي كان صياداً كما ارتقى اليه ابن صانع الاحذية باندريلايمون الذي اصبح البابا أربانوس الرابع، كما ارتقى اليه اولاد الفقراء كالبابا بيوس العاشر، وكما ارتقى اليه ايضاً اولاد الامراء.

فما سبق يظهر ان شكل الحكومة الكنسية ناتج من الامتيازات التي اولاها السيد المسيح لبطرس عندما ميزه عن باقي الرسل وامره ان يرعى القطيع كله، الخراف والغنم والنعاج، وذلك ناتج من كلام السيد المسيح لبطرس، «وانت متى رجعت فثبت اخوتك» (لوقا ٢٢ : ٣٢)

فلو كان العنصر الارستوقراطي او الديموقراطي سائداً في الكنيسة، ولو كان القديس بطرس يستمد سلطته من الاساقفة او من الشعب، لو كان اخوته يثبتونه بدل ان يثبتهم هو، لو كان القطيع يقوده عوضاً عن ان يقود هو القطيع، لانقلب النظام الذي وضعه السيد المسيح، ذلك النظام الذي حافظت عليه الكنيسة مدة تسعة عشر جيلاً، وستحافظ عليه الى منتهى الدهر

٣ الكنيسة هيئة اجتماعية كاملة

عاشت الكنيسة تسعة عشر جيلاً، وهي هيئة اجتماعية كاملة. واني الفت انظاركم الى قولي ان الكنيسة هيئة اجتماعية كاملة، لان لها معنى كبيراً يحتوي على كل حقوق الكنيسة، ويفصل في الامور التي هي موضوع النزاع بين الحكومة المدنية والكنيسة. فالجماعة الكاملة هي القائمة بنفسها غير المحتاجة في كيانها الى جمعية اخرى، وهي الحاصلة على كل الوسائل المبلّغة الى غايتها. فالكنيسة هي كاملة في هيئتها، وفي غايتها، وفي الوسائل المبلّغة الى الخلاص

فاذا نظرنا الى سبب تكوين الكنيسة، والى غايتها رأينا ان السيد المسيح لم يؤسسها الا لتخلص الناس وتقودهم الى السماء. هذه هي غاية الانسان الاخيرة والغاية القصوى، وكل غاية سواها ثانوية. وبما ان المهم هو المقدم، والغاية الاخيرة تفضل على الغاية القريبة، وبما ان منفعة النفس تفوق منفعة الجسد، ينتج ان الكنيسة لا يمكنها ان تقبل بحكم جمعية اخرى مما وضع لغايات اخرى ثانوية. فالكنيسة اذاً جمعية كاملة مستقلة

واذا فحصنا الوسائل التي تستعملها الكنيسة لبلوغ غايتها السامية، لاحظنا انها نفس الوسائل التي اختارها السيد المسيح. فبما ان على الكنيسة واجباً من المسيح نفسه في تعليم العالم باسره حق لها ان يكون تعليمها صحيحاً غير قابل للغلط في حفظ

عقائد الايمان وتفسير حقائقه . فسلطة التعليم آتية من الله وهي تفوق كل سلطة

واذ كانت الكنيسة مأمورة بأن تقدر النفوس وتقودها الى الخلاص كان لها السلطة بان تسنّ الشرائع المساعدة لها على بلوغ غايتها، ولها سلطة الحلّ والربط، ولها السلطة التشريعية

وبما ان لها سلطة التعليم والسلطة القضائية، فلها الحق ان تنفذ سلطتها في التعليم والقضاء، وتجري العقوبات اللازمة الرادعة على المقاومين لها، وفاقاً لكلام السيد المسيح القائل : « ان من لم يسمع للكنيسة فليعدّ كوثني وعشار » . ومن وسائل الكنيسة الكهنوت الذي لا يجوز ان يرتقي اليه احد الا بدعوة من الله كما دعي هرون، وغايته توزيع النعمة بواسطة الاسرار

فاذا كان الرسول بطرس يطلب من الرعاة حسن القيام باعباء الرعية بقوله « أسأل الكهنة الذين فيكم ان اردعوا رعية الله التي فيكم متعهدين لها، لا عن اضطرار بل عن اختيار، ولا لمكسب خسيس بل بارتياح، ولا كمن يتسلط على ميراث الله، بل كمن يكون مثلاً للرعية »، فالرسول بولس يأمر المؤمنين بقوله « اذكروا مدبريكم الذين كلموكم بكلمة الله، اطيعوا مدبريكم واخضعوا لهم، لانهم يسهرون على نفوسكم سهر من

(١) متى ١٨ : ١٧

(٢) ١ بطرس ٥ : ١ - ٤

سيحاسب، حتى يفعلوا ذلك بسرور لا بكرب، لأنّ هذا غير نافع لكم^١»

واذا كانت الكنيسة كاملة في غايتها، وفي وسائلها، وكان السيد المسيح اعطاها سلطة تامة بلا قيد ولا شرط بقوله: «كل ما حللتموه على الارض يكون محلولاً في السماوات، وكل ما ربطتموه على الارض يكون مربوطاً في السماوات^٢». فالكنيسة تكون جمعية مستقلة عن كل هيئة بشرية استقلالاً تاماً

نعم ان هذه المبادئ لها نتائج عظيمة، لم يقبلها ملوك كثيرون فاضطهدوا الكنيسة. الا انها قد غلبتهم لأنّ «قوات الجحيم لن تقوى عليها^٣»

فضّلت الكنيسة دائماً ان تقول كما قال الرسولان بطرس ويوحنا: «ان الله احقّ من الناس بان يطاع^٤». فهي قد تأسست بدون مساعدة الدول، لا بل رغماً عن الدول. ونشرت تعاليمها وسلطانها بين الامم الوثنية، والامم المعادية لها، وقد اقتحمت كل الصعوبات التي اقامها الملوك والحكام في وجهها. ذلك ما يقتضيه الصواب لان غايتها تقديس النفوس ومملكة النفوس غير مضطرة ان تتقيد في عملها بالممالك الزمنية

(١) عبرانيين ١٣: ٧ و ١٧

(٢) متى ١٨ : ١٨

(٣) متى ١٦ : ١٨

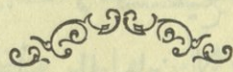
(٤) اعمال ٥ : ٢٩

فلو فرضنا انها غير مستقلة، وليست جمعية كاملة، لاضطرت لكي تقوم بواجبها وتقديس النفوس وتعلم الناس طريق الخلاص ان تستأذن الملوك والحكام في ذلك، وهذا ما يخالف منفعة النفوس وترتيب الله

ان مملكة الكنيسة هي العالم بأسره « اذهبوا وتلمذوا كل الامم » (متى ٢٨ : ١٩) فالكنيسة تكون في ملكها حيث تجد نفوساً تخلصها، وهي تهتم بالامور الزمنية على قدر ما تحتاج الى ذلك للوصول الى المنفعة الروحية

وهنا يقف المؤرخ والفيلسوف حائرين مدهوشين من رؤية الكنيسة باقية على هيئتها الاصلية . فالممالك قد انقلبت، ومملكة الكنيسة باقية كما كانت . الحكومات قد تغيرت، وحكومة المسيح باقية كما ارادها مؤسسها . الثورات زعزعت اركان العالم، والكنيسة باقية كالجبل الراسخ يهزأ بالعواصف والرياح ذلك ما كتبه البابا لاون الثالث عشر في احدى براءاته، فكنيسة المسيح قد حافظت وتحافظ كل الدهور على هيئة حكومتها لان الذي اسسها « هو هو أمس واليوم والى منتهى الدهر » (عبرانيين ١٣ : ٨)

له الملك والعزة والمجد الى ابد الابد، امين



اعضاء الكنيسة

عرفنا في محاضراتنا السابقة الكنيسة الحقيقية، وفحصنا هيئتها في العالم بوجه الاجمال . والان تعرض لنا مسألة ليست بأقل أهمية مما تقدم، وهي مسألة ابناء هذه الكنيسة اي اعضائها . فأولاً من هم اعضاء الكنيسة ؟ وثانياً كيف يصير الانسان عضواً في الكنيسة ؟ وثالثاً هل يخلص الانسان خارجاً عن الكنيسة ؟ تلك اسئلة ثلاثة مهمة نجيب عنها في هذه المحاضرة

١ من هم اعضاء الكنيسة

قبل ان نعرف من اهم اعضاء الكنيسة ينبغي ان نبحث لماذا نسمي ابناء الكنيسة اعضاءها . ذلك لان الرب اراد ان يكون ابناء الكنيسة متحدين بعضهم ببعض اتحاد اعضاء جسم واحد رأسه المسيح . فكما ان الجسم له اعضاء مختلفة، ولكنها كلها على اتم الائتلاف المتبادل يساعد بعضها بعضاً تحت إدارة الرأس، هكذا يجب على المسيحيين ان يكونوا متحدين كاعضاء لجسم واحد ويتعاونوا تحت إدارة السيد المسيح الذي هو رأسهم هذا ما يقوله القديس بولس في رسالته الاولى الى اهل كورنثس (فصل ١٢) : « لا تستطيع العين ان تقول لليد لا حاجة لي إليك، ولا الرأس للرجلين لا حاجة لي اليكما، بل ما

بحسب الاضعف من اعضاء الجسد هو ما تكون الضرورة اليه اشد. فاذا تألم عضو تألم معه سائر الاعضاء. فأنتم جسد المسيح واعضاء من عضو. . فاعضاء الكنيسة هم اذن جسم الكنيسة وجسد السيد المسيح السري

ولكن من هم الذين يؤلفون اعضاء جسد المسيح؟ من هم اعضاء الكنيسة؟ من هم ابناؤها وخاصتها؟ اننا في هذه المسألة كما في كل المسائل الهامة لا مناص لنا ان نجد الضلال ازاء الحقيقة. فالبلاغيون في القرن الخامس، وقد تبعهم البروتستانت في القرن السادس عشر، يقولون ان الكنيسة هي جماعة الصديقين، وليس في الكنيسة الا صديقون، فالخطاة ليسوا اعضاء الكنيسة. وقد جرى على مثالهم الالبيجوا في القرن الثالث عشر، فقالوا ان الكنيسة هي جماعة المختارين للخلاص

اما الكنيسة الكاثوليكية فانها تنبذ تعليمهم كضلال. لان الكنيسة هي جماعة منظورة، وبما انه ليس من علامة ظاهرة فارقة ما بين المختارين وبين الخطاة، ينتج انه لو صح قول البلاغيين ومشايعهم لتعذر على البشر تمييز الكنيسة والاهتداء اليها على الارض، وبطل كونها المدينة المبنية على جبل، كما عرفها مؤسسها الالهي نفسه، وكونها النور على المنارة. ولذلك رذلت الكنيسة الكاثوليكية تلك الاضاليل وقالت وعلمت: ان الكنيسة جماعة المسيحيين المتحدين بايمان واحد، المشتركين باسرار واحدة، والخاضعين لرعاة شرعيين ولرأس واحد منظور هو نائب السيد

المسيح، سواء في ذلك الابرار والخطاة
وتستند الكنيسة في تعليمها الى الكتاب المقدس وتعليم الآباء
القديسين . فاننا اذا تصفحنا الانجيل نرى ان السيد المسيح
يشبهه مراراً كنيسته بجمعية تحتوي على صديقين وخطاة، ويشبهها
بخطيرة فيها اغنام طائعة واغنام ضالة شاردة، يذهب الراعي
الصالح في الجبال والوديان ساعياً وراءها ليرجعها الى الخطيرة
وتارة يشبهها بشبكة ممتلئة فيها السمك الجيد والسمك
الردي، معاً . واذا مثلها بعيلة رب بيت يظهر ان فيها ولداً
طائعاً وولداً شاطراً اي مبدراً، ولرب البيت هذا عبيد امناء
يتاجرون بالوزنات المعطاة لهم، وغيرهم يخفونها في الارض ولا
يرجعون شيئاً

واذا شبه ملكوت السماوات بحقل يذكر ان فيه قمحاً
وزوئاناً، ولا يريد فصل هذا الزوئان عن القمح الا يوم القيامة
حيث يجمع كل نوع على حدة، دلالة على ان في الدنيا صالحين
مختلطين بالاشرار

وقد قال السيد المسيح : « اذا اخطأ اليك اخوك فوبّخه
على انفراد، واذا لم يسمع فوبّخه أمام شهود، واذا لم يسمع فقل
للبيعه اي للكنيسة، وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك
كوثني وعشار » . أليس في هذا التعبير ما يدل على ان اخاك

قد يكون خاطئاً وعاصياً عليك، وعلى كثيرين، ويبقى في الكنيسة الى ان تفصله هي عن جسمها بحكم شرعي ؟

واذا انتقلنا من الانجيل الى رسائل القديس بولس نطلع على افكار الرسول العظيم و كيفية تصرفه، ونرى بوضوح انه يعرف في الكنيسة صلاحاً وأشراراً، ولم يرفض الفاسق في كورنثس ولم يجرمه، الا لكونه ارتكب اثماً فظيماً تقشعر منه الابدان

ذلك هو ايضاً رأي الآباء القديسين . فقد قال القديس اوغسطينوس : « اني انسان في بيدر المسيح، فإن كنت شريراً فأنا قس في هذا البيدر، وان كنت صالحاً فأنا فيه قمح » . وقال القديس يوحنا فم الذهب في تفسيره الآية الواردة في المزمور ٣٩ « لقد تكاثرت خطاياي مثل شعر رأسي : ان في الكنيسة رجالاً كاملين ورجالاً غير كاملين، ومع الرجال الكاملين رجال بطالون وعبيد للكسل والشهوات ممن باعوا إرادتهم لشهواتهم، وبما ان الكنيسة جسم شامل للابرار والخطاة، تقول عن نفسها قد تكاثرت آثامي مثل شعر رأسي »

وعلى هذا النحو قال القديس كبريانوس : « اذا كان في الكنيسة خصام ومماحكة فليس ذلك داعياً الى اضعاف ايماننا ومحبتنا . واذا رأينا في حقل الرب زؤاناً فليس ذلك داعياً الى ان نفصل عن الكنيسة . بل علينا ان نبذل جهدنا في ان نكون حُباً جيداً، حتى اذا جمع السيد المسيح قمحه في اهرائه ننال مكافأة اعمالنا . لان الرسول يقول في رسالته : « انه ليس

في البيت الكبير آنية ذهبية وفضية فحسب، بل هناك ايضاً آنية من خشب ومن فخار، فالبعض منها للمجد والبعض للهوان^١ . فلنجهد ايها الاخوة في ان نكون جهد طاقتنا آنية ذهبية وفضية

هذه لهجة الكتاب المقدس والآباء القديسين كما سمعتم . فالكنيسة اذن جامعة بين قديسين وخطاة وكلهم اعضاؤها على الارض

٢ كيف نميز اعضاء الكنيسة

ان الكنيسة هي جمعية حسية ظاهرة، ولا بد لها من علامة ظاهرة تميز اعضاءها من غيرهم . ان هذه العلامة الظاهرة هي المعمودية؛ وهي تميز اعضاء الكنيسة من غيرهم، حتى ان الاولاد الصغار المعمدين هم ايضاً من اعضاء الكنيسة

واما الذين بلغوا سن التمييز فلا تكفيهم المعمودية ليدعوا اعضاء الكنيسة الكاثوليكية، بل لا بد لهم من شرطين آخرين : احدهما وجوب المحافظة على الرابطة الظاهرة التي تربطهم بالكنيسة، وعلى عقائد ايمانها والآخر ان يكونوا مطيعين لها. فكل مسيحي ينفصل عن طاعة الكنيسة انفصلاً علنياً يدعى منشقاً، وكل مسيحي لا يحافظ على عقائد الايمان يدعى هرطوقياً، وكل مسيحي تفصله الكنيسة عن جسمها يدعى محروماً

قلنا ان المعمودية هي العلامة الظاهرة التي بها يصير الانسان عضواً في الكنيسة . فالمعمودية باب الكنيسة، ولا يقدر انسان ان يلجها الا بالمعمودية . ذلك امر واضح يسهل تأييده بالبرهان : قال السيد المسيح : « اذهبوا وتلمذوا كل الامم وعمدوهم باسم الاب والابن والروح القدس » . واعمال الرسل ' تنبئنا بان كل الذين سمعوا خطاب بطرس يوم العنصرة، وقبلوا تعليمه اعتمدوا، وكان عددهم نحو ٣٠٠٠ نفس، والقديس بولس يعلم في رسالته الاولى الى كورنثس (فصل ١٢ عدد ١٣) أن لا بد لكي يصير الانسان عضواً لجسد المسيح، اي عضواً للكنيسة، ان يعمد سواء كان يهودياً ام وثنياً، عبداً ام حراً . وكما ان الختان كان يضم الى شعب الله كل ابناء ابراهيم حسب الجسد، هكذا تضم المعمودية الى الكنيسة ابناء الله كلهم بختان الروح طبقاً لتعليم القديس بولس ثم ان التقليد الكنسي يؤيد ذلك تأييداً عملياً . فالكنيسة كانت منذ نشأتها حتى الان لا تعد من ابنائها من لم يُعمد . ولا تقبل للاشتراك في الاسرار الا من نال المعمودية . وكانت تحظر على غير المعمدين حضور القداس . لذلك نسمع الكاهن يقول بعد الانجيل للموعوظين الذين لا يزالون يتعلمون حقائق الدين، ولم يعتمدوا بعد : « ايها الموعوظون اخرجوا » . وهم لا يسمون مؤمنين الا يوم الاستنارة اي يوم العماد

(١) متى ٢٨ : ١٩

(٢) اعمال ٢ : ٤١

لذلك ايضاً لا تطالب الكنيسة غير المعمدين بحفظ قوانينها،
ويمتنع الكهنة ان يمشوا في جنازة الاولاد غير المعمدين لانهم
ليسوا من الكنيسة

ولقد استصعب البعض ان يفهموا كيف لا تعدّ الكنيسة
من ابنائها من يخالفها في حقائق ايمانها، ومن شق عصا الطاعة
لها، او من رُشق بجرم كبير . ولكن فليذكروا ان الكنيسة
هي ايضاً جمعية ظاهرة وحكومة حسية، لها ما للجتماعات الظاهرة
المنتظمة من الحقوق والسلطة، فلها ان تفصل من جماعتها من لا
يستحق ان يكون منها، وكما ان من يخون الحكومة او يأتى
قبول قوانينها يُنفي او يجرّد من رتبته، ولا يعجب احد من
ذلك، كذلك من يأتي علناً وجهاً للاعتقاد بحقائق ايمان الكنيسة،
ويأتي الطاعة لها، يُعدّ مفصولاً عن الكنيسة . وللكنيسة حق
ان تفصل العنزة الجرباء عن سائر القطيع، لئلا تنقل اليه العدوى .
الا ان المسيحي الذي يُفصل عن الكنيسة بالشقاق او بالهرطقة
او بالحرم لا يُجرّم وسيلة للرجوع الى حضن أمه الكنيسة، فان
ابواب الرحمة تبقى مفتوحة أمامه والكنيسة تقبله ثانياً، كما قبل
الابن الشاطر ابوه وكما قبل الراعي الصالح خروفه الضالّ

٣ هل الكنيسة ضرورية للمخلص

يجب علينا في بادئ الامر ان نسلّم بان الايمان والمعمودية
ضروريان للخلاص ضرورة الوسطة، بدليل تعليم ورسم السيد

المسيح صريحاً . فانه لما ارسل رسله ليبشروا بالانجيل قال لهم :
 « من آمن واعتمد يخلص ومن لم يؤمن يُدان » . وقال ايضاً
 لنيقوديمس : « ان لم يولد احدٌ من الماء والروح فلا يقدر ان
 يدخل ملكوت الله » . وقال ايضاً مظهراً ان لا خلاص الا به :
 « لا احد يأتي الى الاب إلا بي » . فلا احد يقدر ان يخلص إذن
 الا بواسطة يسوع ، كما قال القديس بطرس لجمع اليهود
 والسيد المسيح الذي هو واسطة الخلاص ، قد سلم النفوس
 الى الكنيسة لتواصل عمله على الارض . فما من احد يخلص الا
 بالكنيسة او بواسطة الكنيسة . هذا اعتقاد المسيحيين الاولين ،
 وهذا اعتقاد التسليم اي التقليد ، اي اعتقاد اباء الكنيسة والمجمع
 شبه القديس بطرس الكنيسة بفلك نوح . فكما ان فلك
 نوح أقل الذين نجوا من الطوفان ، هكذا فلك الكنيسة يقل
 المعمدين الذين هم جماعة الخلاص . وهذا ما جعل القديس كبريانوس
 يقول هذه العبارة الشهيرة : « ما من احد يقدر ان يجعل الله
 اياه ، ما لم تكن الكنيسة امه » ، ويقال بالمعنى نفسه : « لا خلاص
 خارجاً عن الكنيسة » . لا بل قد حددت الكنيسة نفسها هذا
 التعليم في المجمع اللاتراني سنة ١٢١٥ فقالت « ان كنيسة المؤمنين

(١) مرقس ١٦ : ١٦

(٢) يوحنا ٣ : ٥

(٣) يوحنا ١٤ : ٦

(٤) اعمال ٤ : ١٢

الجامعة هي واحدة، ولا يقدر احد ان يخلص خارجاً عنها». فمن الواجب علينا اذاً ان نعتقد ان الكنيسة ضرورية ضرورة الوسطة للخلاص

ولكننا نعلم من جهة ثانية حقيقة اخرى ليست اقل وضوحاً، وهي ان الله يريد خلاص جميع البشر. وذلك ما تعلمه الكنيسة ايضاً، وما يعلمه التسليم اي التقليد. فانه من الثابت الاكيد ان الله لا يطالب الانسان بما يجمله ولا يكلفه فوق ما يطيق، ومن المبادئ المسلّم بها ايضاً ان لا احد يهلك الا بخطيئته، وان من يجهل امراً جهلاً غير مستطاع الدفع لا يطالب به

فيلوح اذاً ان بين هذين التعليمين تناقضاً، ولكن الحقيقة غير ذلك. ولاجل الايضاح فلنفترض مثلاً ان رجلاً ذاتية مستقيمة، وقلب سليم يجهل الديانة الكاثوليكية جهلاً تاماً، ولا يعرف انها الديانة التي يريد لها الله، فلم يقدر لاجل ذلك ان ينتمي اليها بالمعمودية. فهل يصح القول ان لا سبيل الى الخلاص لمثله رجلاً؟ بل نقول انه قد يخلص. لان الله يريد خلاص جميع البشر، حتى من لم يعتمد منهم، ان كان ذلك منهم عن جهل غير ملوم. فان الله يحفظ لهم في كنوز رحمته واسطة اخرى للتبرير وهي اصدارهم فعل المحبة له ومحافظةهم بنعمته على ما هو مكتوب في ضمير كل انسان من واجبات ونواهي الشريعة الطبيعية

وعلى ذلك نقول هل يقدر ان يخلص البروتستانتي، والمنفصل عن وحدة الكنيسة الكاثوليكية، والمولود في الانشقاق او في

الهرطقة، الذي يظن ان ديانتة انما هي الديانة الحقيقية ويتبع صوت الله وصوت ضميره، ولا يرى الكنيسة الكاثوليكية . الا من خلال اوهام او اضاليل تشربها منذ صباه ؟ نعم يقدر ان يخلص للاسباب التي ذكرناها آنفاً

ان ما نقوله انما هو تعليم الكنيسة ايضاً، وتعليم آباءها وملافنتها واحبارها العظام . فلنسمع اولاً امير اللاهوتيين القديس توما الاكوييني ذا كراً حالة رجل وثني يتبع ذمته ويبذل جهده بان يرضي خالقه، وهو لا يعرف الديانة الحقيقية . فالقديس توما يقول ان العناية الالهية تقدم لكل إنسان ما هو ضروري لخلاصه حتى لو ان رجلاً وثنياً عاش متوغلاً في الهمجية في غابات افريقيا، واتبع نور عقله في طلب الخير والابتعاد عن الشر، فانه من الثابت الذي لا مرأ فيه، ان الله يوحى اليه بإلهام باطني ما يلزمه ان يؤمن به، او يرسل اليه مبشراً بالإيمان، كما ارسل القديس بطرس الى كرنيليوس

هل يخلص ايضاً من لم يتمكن من الحصول على العماد رغماً عن رغبته فيه ؟ اي نعم انه يخلص، لان العماد على ثلاثة انواع : عماد الماء، وعماد الرغبة، وعماد الدم اي الاستشهاد . ولنسمع في هذا المعنى ما قاله القديس امبروسيوس عن الامبراطور فلانتيانوس الذي رغب في العماد قبل مماته، وحال الموت دون تحقيق رغبته : « اني اراكم تحزنون لوفاة الامبراطور بدون عماد، فأسألکم ما الذي يُطلب منّا خلا الارادة والرغبة ؟ ان

الامبراطور رغب في العماد قبل ان يأتي ايطاليا وطلب الي صريحاً ان اعمده باقرب وقت، ولذلك اراد ان يدعوني اليه. الا انه لم يحصل على النعمة التي طلبها لابل قد حصل عليها لانه طلبها. والذي كان فيه روحك أيها السيد المسيح ألم يحصل على نعمتك. فلو خفتم بعد هذا وقلتم ان السر لم يعط له باحتفال، لوجب والحالة هذه، ان لا نقدم الا كاليل ايضاً للشهداء الذين يموتون بلا عماد، لان الا كاليل لا تعطى الا للمسيحيين. فاذا كان الشهداء يعتمدون بدمهم فان الامبراطور قد اعتمد بتقواه ورغبته»

وما علمه القديس امبروسيوس في القرن الرابع، علمه ايضاً اينوشنسيوس الثاني في القرن الثاني عشر اذ قال « منذ انتشار الانجيل لا يحصل الانسان على النعمة ولا يصير ابناً لله إلا بالعمودية والرغبة في المعمودية »

والبابا بيوس التاسع اوضح هذا التعليم في برأته الى اساقفة ايطاليا سنة ١٨٦٣ بما نصه « تعرفون ايها الاخوة الاعزاء المحترمون، ان الذين بلا ذنب منهم يجهلون ديانتنا المقدسة، ويحفظون الشريعة الطبيعية ووصايا الله التي كتبها في قلب كل انسان، وهم مستعدون لطاعة الله، وحياتهم شريفة مستقيمة، هؤلاء، يقدرّون بنعمة الله ونوره ان يحصلوا على الحياة الابدية. لان الله الذي يسبر اعماق القلوب ويرى عواطف الجميع وافكارهم واستعداداتهم لا تسمح محبته وحنوه ان يعذب هؤلاء، بعذاب ابدى لم يستحقوه بخطيئة اختيارية »

فترى من كل ما ذكرنا ان الكنيسة تعلم من جهة ان لا خلاص خارجاً عنها، ومن جهة اخرى ان الله يريد خلاص الجميع، وان ما من احد يهلك الا بخطيئته، وان الله لا يطلب انساناً يحفظ ديانة يجهلها . فكيف نوفق بين هذين التعليمين وكيف نحل هذا المشكل

الجواب : ان المبدأ الذي تقرره الكنيسة « بان لا خلاص خارجاً عنها » انما هو القاعدة العامة الشاملة الواجب اتباعها على كل من يعرف الكنيسة، وذلك تحت طائلة الهلاك في حالة الرفض والتمنع . وقد وضعها الله نفسه بايجابه على الجميع قبول المعمودية والايمان بحقائق الديانة والاتحاد بالكنيسة والموت في حالة النعمة . فلا خلاص للرجل المستقيم النير البصيرة العارف الديانة الحقيقية الا بهذه الوساطة وهي ان يكون ابناً للكنيسة وليس من شذوذ للقاعدة الا على حسب الظواهر لا غير . لان كل منتخب للخلاص لا بد له ان يكون من كنيسة المسيح . اذ لا خلاص لاحد الا بفيض استحقاقات المسيح غير المتناهية . وهذه الاستحقاقات لا سبيل لاحد الى الانتفاع بها الا عن سبيل الكنيسة، المقامة من الله نفسه مستودعة لها على الارض فالجواب اذاً على المشكل السابق ذكره يُستمد من كون الكنيسة التي هي جسد المسيح السري انما هي جسم حيّ بجماعة فائقة الطبيعة . فلها اذاً جسمها، وهو يشمل المجموع الظاهر لكل الممّدين الخاضعين لسلطة الكنيسة المشتركة اشتراكاً

ظاهراً بإيمانها وكنوزها - ولها ايضاً روحها - وهي تفيض الحياة بالنعمة على كل الذين يشتركون بحالة البرادة، سواء كانوا ينتمون الى جسمها انتماءً ظاهراً ام لا

فالخلاص اذاً يكون دائماً عن سبيل الكنيسة : إما بالاتصال بها ظاهراً اتصال العضو بالجسم، وإما بالاتصال بها اتصالاً روحياً . لان الله قد خصَّ السليمي النية - ولو خارجين في الظاهر عن شركة اعضاء الكنيسة - بوسائط تضمهم بالنعمة الى هذه الشركة وتؤهلهم للانتفاع بها للخلاص . وهذا ما تعلمه الكنيسة اذ رذلت قول القائلين « ان لا نعمة خارجاً عن الكنيسة » . واذ كان لا بد للخلاص من نعمة التبرير، والتبرير لا ينال الا بالمعمودية، فقد جعل السيد المسيح معمودية الماء واسطة عامة لذلك، وجعل معموديتي الشوق والدم واسطة خاصة للغاية نفسها، لينتفع بها من لا يستطيعون الى معمودية الماء سبيلاً، إما عن جهل معذور وإما عن موانع خارجية

وعلى ذلك فالذي يجهل الكنيسة الكاثوليكية مثلاً، ويتبع صوت الله وصوت ضميره، وتكون سيرته مستقيمة، يُعدّ متمماً لارادة الله ومستعداً لكل ما تقتضيه مرضاته تعالى من الاعمال والواجبات، ومن ذلك وجوب الانضمام الى الكنيسة الحقيقية بالمعمودية . فتفرض له النية الضمنية في ذلك . وهي في حالة الجهل تغني عن التصريح، ولها عند الله، بقوة رحمته غير المتناهية، فاعلية العمل حتى ان مثله رجلاً يكون عنده تعالى مرضياً مقبولاً،

وله بقوة هذه الاستعدادات والحياة الصالحة ما لابناء الله، اذ يُحسب متحدًا بها بنيته السليمة وقلبه المستقيم والنعمة المبررة له .
 إذن يجب ان يرسخ في اعتقاد الجميع ان الكنيسة ضرورية للخلاص، وان لا خلاص لاحد خارجاً عن الكنيسة . حتى أن من لا يكون من جسم الكنيسة لا بدّ له في طلب الخلاص ان يكون « من روحها » وذلك مقصور على من يجهل الكنيسة جهلاً غير ملوم، او يُجرم نعمة المعمودية على غير تقصير او ذنب منه . وهو في الوقت نفسه يعيش عيشة صالحة ويتبع صوت ضميره ويريد اتمام ارادة الله . وتلك حالة خاصة كما ترون لظروف شاذة، جعل الله لها مجودته غير المتناهية علاجاً خاصاً بها حتى لا يهلك احد عن غير ذنب منه . وهي على كل حال لا تنفي شيئاً ولا تخفف شيئاً من وجوب الوسطة العامة . بل انما كانت هذه الحالة الخاصة رجوعاً عن سبيل خاص الى الحالة العامة كما رأيتم
 ان في هذا التعليم، ايها المسيحيون الافاضل، تغذية عظيمة خلافاً لادّعاء الذين يجهلون تعليم الكنيسة . والله لا يسمح لنا ان ندين احداً، ولا ان نحكم على احد، مهما كانت سيرته سيئة .
 فان الكنيسة التي تغبط الابرار وتقول طوبى للموتى الذين يموتون بالرب، لا تحكم في هلاك انسان حتى ولا في هلاك لوتر وفولتير، ولا تدعو هالكاً الا يهوذا لان السيد المسيح بمعرض الكلام عنه قد اكد انه « خير له لو لم يولد » (متى ٢٦ : ٢٤)
 ومع كون الكنيسة لا تحكم على احد بالهلاك، فهي تسمح

لنا بان نرجو خلاص الجميع، لانه يوجد ثلاثة اسرار تمنعنا ان نضع حدوداً لرحمة الله وعدله

فالسر الاول هو سر النعمة التي يعطيها الله بوسائل غير منظورة خفية عن الجميع. قال احد كتبة الانكليز المشهورين، الاب فابير : « لو كنّا نقدر ان نسطر دخيلة كل نفس بشرية لراينا محبة الله تغمر بنعمها النفوس الوثنية المتوحشة، وتهتم باكثر الناس خبثاً وبأشدّ الناس ضلّالاً وبأقسى القلوب صلابة . فهي تحوّل كل شي، لمنفعتهم بلطف لا يوصف، وعليه يصعب علينا معرفة مفاعيل النعمة في القلوب والحكم في خلاص النفس او في هلاكها »

السر الثاني هو ضمير الانسان الذي لا يسع احداً ان يتغلغل فيه ويقرأ نيّاته ومدى تقديره للمسؤولية ومعرفته لصلاح العمل او فسادة الا الله الذي خلقه

السر الثالث هو الموت اعني الهوة التي تفصل الزمن عن الابدية، فانه في هذا الزمن الذي لا يثمن يثبت مصير الانسان، والله وحده يعرف حالة نفسه، فاذا يجري في الساعة الاخيرة بين الله والنفس ؟ ذلك سر لا يقدر العقل البشري ان يسبر غوره

ونتيجة كل ذلك هو انه يجب ان نشكر الله شكراً عظيماً على النعمة التي اعطاناها اذ جعلنا بالمعمودية اعضاء الكنيسة . فنحن في جمعية الخلاص، نحن في سفينة القديس بطرس، فعلى ان نفرح ونضم اعمالنا الى استحقاقات السيد المسيح، لان الله

سهل لنا امر خلاصنا اكثر من غيرنا، وان نقابل هذه النعمة بالشكر والاجتهاد. واذا فكرنا في عدد الذين لم يهبهم الله هذه النعمة وهم خارجون عن الكنيسة، وجب علينا ان نصلي لاجلهم، لكي تشملهم نعمة السيد المسيح فتثير عقولهم وتسدد خطواتهم الى سبيل الخير، حتى إذا اتحدوا بالكنيسة عقلاً وقلباً انضموا اليها بالمعمودية فعلاً واضحو اعضاء الكنيسة التي تقودنا الى ميناء الخلاص الامين



سلطة الكنيسة في التعليم

رأينا ان السيد المسيح أسس كنيسة ليتم بها عمله على الارض، فوضع لها اساساً بناء على الصخرة، وسلم اليها مفاتيح ملكوت السموات، وشبَّهها بقطيع غنم امر هامة رسله برعايته، واعطاها سلطة تقديس النفوس بواسطة الكهنوت، وجعل فيها سلطة تعليم حقائق الايمان، وخولها سلطة رعاية خرافه وادارتها اعطى السيد المسيح الكنيسة سلطة الكهنوت لما امر تلاميذه ان يارسوا سر الافخارستيا كما رسمه هو قائلاً « اعملوا هذا لذكري » . واعطاها سلطة التعليم بقوله : « قد أُعطيتُ كل سلطان في السماء وعلى الارض، اذهبوا وعلّموا كل الامم » . واعطاها سلطة الادارة بقوله لبطرس « إرّع خرافي إرّع نعاجي إرّع غنمي » . وقد استعمل الرسل هذه السلطة المثلثة : سلطة الكهنوت، اذ ساموا اساقفة وكهنة لكل كنيسة اسسوها، وسلطة التعليم اذ بشروا بالانجيل في العالم بأسره، وسلطة ادارة شؤون الكنيسة اذ كانوا يُعنون بتنظيم شؤون الكنائس التي يؤسسونها ويضعون للمؤمنين السنن والقوانين لذلك، كما يتضح

(١) لوقا ٢٢ : ١٩

(٢) متى ٢٨ : ١٩

(٣) يوحنا ٢١ : ١٥ - ١٨

من رسائل القديس بولس وغيره من الرسل وكما نرى في كتاب الاعمال . وقد تجلّت هذه السلطة بنوع خاصّ اذ اجتمعوا في اورشليم وفصلوا في الخلاف الذي كان قائماً بين المؤمنين على علاقة المؤمنين بناموس موسى، وسنّوا شرائع والزموا المسيحيين الاولين بحفظها . ونسمع القديس بولس يقول في خطابه لروساء كهنة افسس : « احذروا لنفوسكم ولجميع القطيع الذي اقامكم عليه الروح القدس لترعوا كنيسة الله » . لذلك عندما كتب البابا لاون الثالث عشر براءته « Immortale Dei » لم يكن في تعليمه شيء جديد سوى اثبات واعلان المبادئ التي كانت لا تزال متبعة منذ تسعة عشر جيلاً قال : « ان السيد المسيح اعطى رسله ملء السلطة في الامور المقدسة مع التفويض بان يسنوا شرائع يلزمون النفوس بحفظها وبان يعاقبوا من لا يحفظها » واننا نضرب الآن صفحاً عن التبسط في الكلام عن سلطة الكهنوت التي تبثّ بواسطة الاسرار حياة النعمة في النفوس، فسنشرح ذلك في وقته، عندما نبحث عن الاسرار وعن ذبيحة القداس، ونكتفي اليوم بالبحث عن سلطة التعليم في الكنيسة لقد اوضحنا سابقاً ان السيد المسيح لم يأمر بنشر تعاليمه بالكتابة، لان هذه الوسيلة غير كافية لان تصل الى عقول الجميع، اذ لا يقدر الجميع ان يجيدوا القراءة ويفهموها على

السواء، بل كلف سلطة حية مستمرة تبشر بهذا التعليم وتفسره وتحافظ عليه، خالصاً من كل شائبة ضلال
فأما كون سلطة التعليم في الكنيسة انما هي من الله، فذلك
ما لا شك فيه . لان السيد المسيح يقول : « ان تعليمي ليس
مني لكن من الآب الذي ارسلني » (يوحنا فصل ٧ عدد ١٦) .
وهذا التعليم الذي هو من الاب، قد كلف السيد المسيح تلاميذه
بالتبشير به، بقوله « اذهبوا وعلموا كل الامم » فهذا الكلام
ينحول السيد المسيح تلاميذه سلطة حرة غير مقيدة بسلطة بشرية .
وقد استعملت الكنيسة هذه السلطة بكل حرية في كل عصر
ومكان، مع ما لاقت من الصعوبات . على انه لا بد ان نعرف
ما هي هذه السلطة في التعليم، ومن له هذه السلطة وما هو
موضوعها

١ ما هي سلطة التعليم

ان سلطة التعليم، هي الحق في حفظ الحقائق التي اوحاها
الله، وفي تفسيرها خالية من كل ضلال، ونشرها في العالم .
فالكنيسة تحافظ على وديعة الايمان، وتعرضها على المؤمنين ولا
تخترع عقائد جديدة . فما هي الا وكيلة امينة على وديعة الحقائق
المسلمة اليها من الله، وهي ملزمة ان تحفظها بلا زيادة ولا نقصان
الكنيسة مطالبة ان تفسرها كما علمها السيد المسيح وبالمعنى

الذي علمها اياه . لذلك ترى ان من اقدس واجباتها واسمى مسؤولياتها امام الله، مقاومة الذين يمدون يدهم الى وديعة الايمان ويشوهون الحقيقة بتعليم جديد ينافيها او يبخسها قدرها والكنيسة بقوة هذا السلطان وبدافع هذه المسؤولية المقدسة التي تشعر بها، توجب على اولادها ان يستقوا مياه الحقائق من ينباعها الصافية . لذلك تمنعهم بكل حق وصواب من ملازمة المدارس اللادينية او المقاومة للدين، وتحضهم ان لا يقتصروا على اقتباس العلوم الطبيعية بل ان يعرفوا علم الله والنفس . ولاجل ذلك ايضاً تمنع اولادها من قراءة الكتب المقاومة للدين او الخلطة بالآداب، التي قدس السم في الدسم . فالراعي الصالح يمنع رعيته من اكل السم الزعاف .

يجب ان تحافظ الكنيسة ايضاً على وديعة الايمان وتفسرها للناس خالية من كل ضلال . فالسيد المسيح الذي قال لرسله ولخلفائهم : « انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر » لا يسمح بان يغيروا تعليمه، والا لما تحقق وعده بالبقاء معهم، ولا وعده الاخر للكنيسة بان « ابواب الجحيم لن تقوى عليها » . فهو اذاً لا يسمح بان يمس تعليمها زيادة او نقصان . واذا كان السيد المسيح مع كنيسته، فهو يساعدها على حفظ تعليمه خالياً من كل شائبة او ضلال . وينتج من ذلك - ولا عجب - ان الكنيسة معصومة

(١) متى ٢٨ : ٢٠

(٢) متى ١٦ : ١٨

عن الغلط في تعليمها، أي أن الروح القدس يساعدها بنوع خاص ويعصمها من الضلال في تفسير تعاليمها. فإذا شرحت الكنيسة تعليمًا، أو فشرت عقيدة من عقائد الإيمان، أو أشارت إلى ضلال منافٍ لها، فإنها مصيبة فيما تفعل. ولو كانت الكنيسة قابلة للضلال لما بقي من داعٍ للسيد المسيح أن يؤسسها، لأنها والحالة هذه، تبعد النفوس عن غايتها عوضاً عن أن تبلغها إليها.

٢ من له هذه السلطة

ولكن من هم المعصومون عن الخطأ في التعليم، وفي أية ظروف نتحقق أن الروح القدس يساعد كنيسته ويعصمها من الضلال أن التعليم المجمع عليه في هذا الصدد يحصر عصمة الكنيسة عن الغلط في ما يلي :

أولاً في اتفاق الآباء القديسين بصفة كونهم شهوداً على المعتقد الجاري في الكنيسة، واجماعهم أن حقيقة من الحقائق هي من العقائد الإيمانية. إذ لا يُعقل أن يسمح الروح القدس بأن يكون هذا الاجماع ضلالاً. فاتفاق الآباء القديسين على مسألة خاصة بالإيمان يكون إذاً برهاناً أكيداً على حقيقة المسألة المتفق عليها. فان الآباء القديسين قد جمعوا بين القداسة وقدم العهد والعلم، وقد كان أكثرهم اساقفة، ونعني بالآباء القديسين الكتبة الكنسيين من أوائل الكنيسة إلى القديس غريغوريوس الكبير والقديس يوحنا الدمشقي إلى القرن الثامن. ففي هذا القرن وصلت

الكنيسة الى طور البلوغ . وبعض الكتبة يمدّون عصر الاباء الى القديس برناردس اي الى القرن الثاني عشر

ثانياً يكون تعليم الكنيسة معصوماً من الضلال في اتفاق ملافنة الكنيسة وعلمائها اللاهوتيين على مسألة دينية من القرن الثاني عشر الى القرن العشرين . وقد برز بين هؤلاء اللاهوتيين القديس توما الاكوييني في اللاهوت النظري، كما برز القديس الفونس دي ليغوري في اللاهوت الادبي، وهما من اكبر نوابغ الكنيسة . فاذا اتفق اللاهوتيون والملافنة على حقيقة انها من حقائق الايمان، فتعليمهم هذا معصوم من الغلط، لان الكنيسة تنشر بواسطتهم تعليمها، ولو لم يكن تعليمهم ثابتاً لما اتفقوا عليه مدى الاجيال

ثالثاً ان تعليم الكنيسة يكون معصوماً من الغلط عند اتفاق المسيحيين عامة وعلى توالي الاجيال على حقيقة انها من حقائق الايمان . فاذا اتفق المسيحيون اجمعون على تعليم فذلك برهان على ان هذا التعليم هو تعليم الكنيسة . وهنا يجدر بنا ان نذكر ما كان يقوله تروتوليانوس للهراطقة : « نحن مُستولون على الحقيقة منذ عهد الرسل، فلنا حق التملك وحق الاتحاد وحق الاقدمية، وعليه فان الحق بجانبنا » . وهذا معنى قانون القديس منصور دي ليرانس إذ قال : « ان الحقيقة الدينية هي في ما يؤمن به المؤمنون في كل عصر ومكان »

رابعاً ان هذه العصمة في التعليم لم تكن محصورة في القديس

بطرس والرسول فحسب، بل هي ايضاً خلفائهم من بعدهم، طبقاً لارادة المسيح مؤسس الكنيسة ورأسها . وهذا ما بنوا عليه مسلكهم اذ يعلمون تعليم السيد المسيح بكل سلطان، مظهرين ان هذه الحقوق لهم دون سواهم

فالذي قال للرسول : « انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر »، وجه هذا الوعد الى خلفائهم، والذي عصمهم من الضلال، ولم يسمح بان تقوى ابواب الجحيم عليهم، عصم خلفاءهم من الضلال . ولذلك فللجبر الاعظم والاساقفة نفس السلطة التي كانت لبطرس وللرسول . فينتج ان الاساقفة اذا اجمعوا على تعليم في الكنيسة وكانوا على اتحاد مع رأس الكنيسة الذي هو البابا خليفة بطرس الرسول كان تعليمهم هذا الاجماعي معصوماً من الغلط . الا ان هذه العصمة ليست لاحد منهم بصفة افرادية

خامساً واخيراً ان الكنيسة تعلم ان البابا معصوم من الغلط، حتى منفرداً، بسبب الرئاسة التي ورثها من القديس بطرس زعيم الرسل . وهذه العصمة هي في ظروف محدودة، اي عندما يتكلم كما يقال إكس كاتدرا (Ex cathedra)، اي اذا تكلم بصفة رسمية قائماً برتبة راعي الكنيسة، فيحدد بسلطته الرسولية ان الحقيقة المعروضة الخاصة بالايان والآداب، هي من عقائد الايمان، وان يكون كلامه موجهاً الى الكنيسة كلها جمعاء، وبنيّة ان يوجب على المؤمنين اعتقادها

هذه هي الطرق التي تظهر بها الكنيسة تعليمها معصوماً

من كل شائبة . فليست العصمة اذاً كما يدّعي البعض في السلوك او في العلوم ، بمعنى ان الروساء غير قابلين للخطيئة والضللال في العلوم البشرية ، بل انما هي في تعليم الحقائق التي مرجعها الدين او الآداب . اما في ما سوى ذلك فشانها شأن غيرها من الجماعات التي تعتمد في عملها على النظام الذي قرّره العناية الالهية ، ضمن نطاق الوسائط الطبيعية والفائقة الطبيعة عن سبيل النعمة الالهية . وما يجدر التنبيه اليه ان الخبر الاعظم والاساقفة لا يستنبطون شيئاً ولا يبتدعون او يكتشفون شيئاً مما يوجبون اعتقاده بل انهم يحدّدون عقائد الايمان طبقاً لما يكون قد جرى الاعتقاد به منذ نشأة الكنيسة ، ويحدّدون عنها غيوم الضلال ويلقون عليها اشعة من انوار الوحي الالهي ، ويحامون عنها اذا تصدّى لها مقاوم فمجمع نيقية حدّد مثلاً لاهوت المسيح ، ولكن هذا المجمع لم يخترع هذه الحقيقة ولم يكتشفها اكتشافاً ، بل اعلن وحدّد انها مما اعتقدت به الكنيسة منذ نشأتها . واذا ظهر بعض المبتدعين فتجاسروا على انكارها وجعلوا يبلبلون الضمائر السليمة . اجتمع الاساقفة في مجمع نيقية المشهور فاعلنوا رسمياً هذه العقيدة الاساسية وحرّموا المنكرين لها

ومجمع افسس اوجب الاعتقاد ان مريم العذراء هي ام الله حقاً ، ولكن الايمان السابق بهذه العقيدة الثابت في الكنيسة منذ البدء ، هو الذي اضطر الآباء الى عقد مجمع لاعلان هذه العقيدة ولماذا اعلنت عقائد الافخارستيا والمطهر والغفرانات في المجمع

التريدنتيني؟ ذلك لان الاساقفة اجتمعوا من كل الاقطار ليبرهنوا ان هذا ايمانهم وايمان ابرشياتهم ورعيتههم . وهم قد فعلوا ذلك متحدين مع رأس الكنيسة، تبديداً للاضاليل التي كان البروتستان يحاولون بثها بين المؤمنين عن هذه الحقائق

ولماذا حدد بيوس التاسع عقيدة الحبل بلا دنس؟ ذلك لان اكثر من ٨٠٠ اسقف قد اتوا من ابرشياتهم المنتشرة في العالم كله، وكانوا كلهم صوتاً واحداً يهتف ان هذه العقيدة هي معتقدتهم ومعتقد عموم المؤمنين في كل زمان ومكان . هذا فضلاً عما سبق اعلان هذه العقيدة من الابحاث الدقيقة اللاهوتية والتاريخية للثبوت من حقيقة اعتقاد الكنيسة على مدى الاجيال وبدون تغيير او تبديل . فضلاً عما رافقها من الابتهالات والصلوات العامة في الكنيسة

٣ موضوع سلطة التعليم

ولكن ما هو موضوع سلطة التعليم، وفي اي شيء تكون الكنيسة معصومة من الغلط؟ ان موضوع تعليم الكنيسة هو: اولاً وديعة الايمان، اي كل الحقائق الخاصة بالايمان والاداب . وهي التي قال السيد المسيح عنها : « علموهم حفظ جميع ما اوصيتكم به » . ولهذا الغاية وعد السيد المسيح كنيسته بان يكون

معها . وهذا مما يجب الايمان به، ومن لا يؤمن يُعدّ هرطوقياً .
 على ان هنالك حقائق ناتجة مباشرة من الحقائق التي اوحى بها
 الله وهي مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً تاماً، وصادرة منها كما تصدر
 الشجرة من الشجرة، وكما تصدر النتيجة من المبادئ الواضحة،
 فيحق للكنيسة ان تلزم المؤمنين اعتقادها، ومن لم يسمع للكنيسة
 في هذه الظروف، وان لم يُدعَ هرطوقياً، فهو مخالف لها مخطئ
 في امر الطاعة والاحترام الواجب لسلطتها، التي انما هي سلطة المسيح
 وهذه الحقائق المرتبطة بحقائق الوحي الصادرة منها مرجعها
 الى اربعة بنود هي : اولاً النتائج اللاهوتية، ثانياً الشرائع
 النظامية العامة، ثالثاً الموافقة على الجمعيات الرهبانية، رابعاً اثبات
 برارة القديسين

قلنا اولاً ان الكنيسة تحدّد النتائج اللاهوتية . فانّ من
 الحقائق الفلسفية واللاهوتية ما هو مرتبط ارتباطاً وثيقاً تاماً
 بالحقائق التي اوحى بها الله، الى حدّ ان من ينكرها ينكر
 الحقائق التي اوحى بها الله، ومن ثمّ فللكنيسة حق في ان تصدر
 الحكم في القضايا الخاصة بالنظام الطبيعي والنظام الفائق الطبيعة
 ولنا على ذلك مثل في مسألة قوة العقل وحدوده . فانّ
 بعض الفلاسفة زعموا ان العقل قادر ان يكتشف كل الحقائق
 من اي نظام كانت، من النظام الطبيعي او الفائق الطبيعة، او هم
 بعبارة اخرى جعلوا النظام الفائق الطبيعة داخلاً في النظام الطبيعي .
 فالكنيسة حرمت هذا الزعم بقوة سلطانها التعليمي، لانه يؤدي حتماً

الى انكار الاسرار التي لا يفهمها العقل مثل سرّ الثالوث الاقدس
وسائر اسرار الوحي الالهي. ولا مشاحة في ان الحقيقة لا يناقض
بعضها بعضاً، والحال انه لو صح مزعمهم لحصل التناقض بين
الوحي والعقل

وزعم غيرهم ان العقل هو في درجة من الضعف لا يقدر
معها ان يعرف، بنوع اكيد وجود الله . فحرمت الكنيسة هذا
الزعم ايضاً، لان القول به يؤدي الى القول بان الايمان الفائق
الطبيعة ليس مبنياً على اساس العقل. ومن ثمّ فالكنيسة، في إثباتها
لهذه الحقائق وفي دفعها لمثل هذه الاضاليل، توجب بكل حق على
الجميع الاذعان لما تعلمه. لان هذه الحقائق مرتبطة ارتباطاً وثيقاً تاماً
بحقائق الوحي، حتى ان انكارها يؤدي الى انكار حقائق الوحي
وينتج مما تقدم عملياً انه اذا حرّمت الكنيسة قراءة بعض
الكتب مما ينافي الدين او الآداب وجب على اولادها الامتناع
من قراءتها

فهي تحظر قراءة الكتب المخالفة للحقائق الموحى بها وتسميها
هرطوقية . واذا رأت كتاباً يخالف تعاليمها، فهي تحرص بكل
عناية على ان تحمي خرافها من سموم اضراليله . لذلك تسمي بعض
الكتب هرطوقية، وتقول عن غيرها انه يشتم منها رائحة الهرطقة،
وتدعو بعض الكتب كفرية او ملحدة او مهيجة او مشككة
قلنا ثانياً ان للكنيسة سلطة في سن الشرائع النظامية العامة،
لان هذه الشرائع، وان لم تكن حقائق موحى بها، لها صلة

وثيقة بالايان والآداب او الانجيل المقدس من الوجهة العملية
ومن هذه الشرائع، الموافقة على انشاء الجمعيات الرهبانية او
تثبيت قوانينها . فان قوام الحياة الرهبانية هو في حفظ نذور
الفقر والعفة والطاعة، تحقيقاً للمشورات الانجيلية التي نادى بها
السيد المسيح نفسه في تعاليمه الخلاصية . فالكنيسة لا توافق
على اصدار هذه النذور فقط، بل تثبت القوانين الخاصة بكل
رهبانية، او تعلن ضرورة الحاجة الى هذه الرهبانية او عدمها .
فاذا وافقت الكنيسة على قوانين احدى الرهبانيات فوافقتها
عليها برهان على ان ليس في هذه الرهبانية ما يمس بالآداب والدين
بقي لنا مسألة اعلان برادة القديسين، فان في هذا الاعلان
ارتباطاً وثيقاً ايضاً بالحقائق التي اوحى بها الله . اننا نعلم ان
القديسين الذين يملكون في السماء مع السيد المسيح لهم حق في
الاكرام، وعلينا ان نطلب شفاعتهم فنبقى في شركة القديسين
كما هو مكتوب في قانون الايمان . وشركة القديسين هذه ليست
الحياة السيد المسيح المنعشة الكنيسة المنتصرة اي كنيسة السماء،
والكنيسة المعذبة اي كنيسة المطهر، والكنيسة المجاهدة اي كنيسة
الارض . فالكنيسة تعلن وتثبت برادة بعض القديسين الذين امتازوا،
وتكرمهم ليطلب المؤمنون شفاعتهم ويقتفوا آثار فضائلهم
والكنيسة اذ تُقدم على مثل هذا العمل الخطير انما تقوم
به مستنيرة بأنوار الروح القدس الذي يقيها الشطط والضلال .
وتستعد له مع ذلك بالصلوات والابتهالات، ثم باوفى واكمل ما

تقتضي الفطنة والروية من البحث والتدقيق وصراحة النقد والامعان، حتى يمكن القول ان ليس في وسع جماعة بشرية ان تجاري الكنيسة في هذا المضمار . وذلك من اشهر ما هو معروف عنها . فكم من السنين تقضيها في البحث عن سيرة القديس المطلوب تثبيته . وكم تقتضي من العجائب التي لا يسع اعداء الدين انفسهم انكارها . وتبلغ منها الروية في هذه الدعوى ان تقيم محامياً توجب عليه في ضميره، ان يبذل اقصى الجهد في الكشف عن حقيقة سيرة الشخص المطلوب تثبيته، ويتلافى التمويه والانخداع في ما يقال عنه من الحسنات، ويذهب في التدقيق حتى الى مواطن الضعف البشري في حياة القديس، فيقوم بذلك اي قيام، حتى اعتادوا ان يطلقوا عليه اسم « محامي الشيطان » وبعد ان تحتاط الكنيسة على هذا النحو بكل وسائل الفطنة تتحقق قداسة القديس وتؤكد من العجائب التي يجريها الله على يده، يعان الخبر الاعظم برارته في احتفال عظيم مهيب بالكلام الآتي : « لنشر الايمان الكاثوليكي، وانتشار الديانة المسيحية، بسلطة السيد المسيح والقديسين بطرس وبولس وبسلطتنا، بعد ان تقصينا البحث، وابتهلنا مراراً الى الروح القدس، بعد ان استشرنا اخوتنا الاجلاء كرادلة الكنيسة الرومانية والبطاركة والاساقفة القاطنين في روما، نعلن ونحدد ان الطوباوي فلاناً هو قديس وندرجه في قائمة القديسين، مقررّين ان يبقى ذكره مكرماً باسم الاب والابن والروح القدس »

ومن الواجب ان يلاحظ هنا ان الكنيسة عندما تعلن برارة احد القديسين تثبت ان سيرته مقدسة، ولكنها لا تكفل كل ما يقال في حقه من الاحاديث والتفاصيل التي قد يكون فيها ما لا ينطبق على الحقيقة والواقع، ولا سيما في سير قديسي الاجيال الاولى اذ لم يكن قد تم تنظيم طريقة السير في دعوى التثبيت، على ما هي في ايماننا . وواقع الحال ان بعض الكتبة البسطاء قد دونوا في سير القديسين مزاعم وخرافات اقتبسوها من مخيلتهم، او من الروايات العامة على غير نقد او تثبت، ولكن الكنيسة براء منها . فان البابا بندكتوس الرابع عشر يقول « ان الكرسي الرسولي لا يعتقد بكل ما أدرج في سيرة الشهداء والقديسين » وقد صَحَّح كثير منها

نقف عند هذا الحد من تحديد السلطة واصحابها وموضوعها في الكنيسة مكتفين بالتفطين الى انها تفوق كل سلطة عالمية، وان سلطة الدول المادية وقوتها الحربية ليست شيئاً إزاء هذه القوة الادبية والعقلية والروحية التي تملك على النفوس فتخضع لها . فحكمها وان لم يوافق احكام بعض اهوائنا واجب اتباعه لان السيد المسيح قد امرنا بطاعتها، وهو القائل : من لم يسمع للبيعة فليعدّ كوثنى وعشّار (متى ١٨: ١٧) . ولنشكر الله لكونه وضع لكنيسته رعاة يقون الخراف من سموم الاضاليل ويقودونها الى مراعي الخلاص

سلطة الكنيسة الاشتراعية والقضائية والتأديبية

رأينا فيما سبق ان السيد المسيح أسس كنيسة لتكمل عمله الذي هو خلاص النفوس، واعطاها السلطة الضرورية لبلوغ غايتها . وبما انه اراد ان تكون كنيسته جمعية منظمة فقد جعل فيها سلطة مرتبة في ادارتها، اعني السلطة الاشتراعية والقضائية والتأديبية

اعطى السيد المسيح كنيسته السلطة الاشتراعية والقضائية فعلاً بقوله « كل ما حلتموه على الارض يكون محلولاً في السموات، وكل ما ربطتموه على الارض يكون مربوطاً في السموات^١ ». فهذا الكلام يخول الرسل سلطة مطلقة : « ما حلتموه يكون محلولاً وما ربطتموه يكون مربوطاً ». فما معنى ربطتموه ان لم يكن سن الشرائع التي تربط الضمائر وتلزم المؤمنين بحفظها؟ وما معنى اعطاء مفاتيح ملكوت السموات سوى سن الشرائع التي يساعد حفظها على فتح ملكوت السموات

اعطى السيد المسيح الكنيسة السلطة الاشتراعية والقضائية بشخص نائبه على الارض اذ قال لبطرس : « إرعَ خرافي إرعَ

نعاजी^١ « فالراعي له ملء السلطة على غنمه، يقودها الى المراعي الخصبة ويسوسها ويقيم لها الحدود . فيختار الاراضي التي يراها ملائمة للرعي في ايام الشتاء او الربيع او الصيف او الخريف، ويسير بها في السهول والادوية والجبال، يسقيها في اوقات معلومة من مياه نظيفة، ويبعدها عن رعي الاعشاب السامة، ويداويها عند العطب، ويدخلها في اوقات معلومة الى الحظيرة، وجميع الخراف تسمع صوته ولا يقاومه احد منها

فالسيد المسيح بقوله لبطرس إرعَ خرافي يعطيه السلطة كي يغذي المؤمنين بالتعاليم السليمة، ويسقيهم المياه الصافية، ويقودهم الى مراعي الخلاص حسبما يرى موافقاً لمنفعتهم الروحية، وبمعنى آخر هو يولييه ان يسن لهم شرائع تضمن سيرهم في الطريق المستقيم وتصونهم من الضلال والفساد

وقد اوجب السيد المسيح الطاعة على المؤمنين بقوله : « من لم يسمع للكنيسة فليعدّ كوثنى وعشاراً » . اي يحق للكنيسة ان تفصله من جسمها كخاطي، بل كعضو فاسد . وهذا الحق يستلزم حق المحاكمة وإصدار الحكم . وقد استعملت الكنيسة هذه السلطة على الدوام منذ نشأتها . اننا نرى الرسل مثلاً يسنون شرائع في مجمع اورشليم ويلزمون المؤمنين بحفظها . ونشاهد القديس بولس يحرم رجلاً فاسقاً في كورنثس ويفصله من جماعة

(١) يوحنا ٢١ : ١٥ و ١٧

(٢) متى ١٨ : ١٧

المؤمنين لارتكابه جرماً فظيماً . وقد استعمل الباباوات والاساقفة هذا السلطان من عهد القديس بطرس الى بيوس الحادي عشر الملك سعيداً ، فسنوا الشرائع واقاموا المحاكم الكنسية وقمعوا الرذائل

ولا عجب من وجود السلطة في الكنيسة لانها جمعية تامة في غايتها ، وكاملة في وسائلها . وعليه فمن الواجب ان يكون لها سلطة الادارة لكي تبلغ غايتها وللكنيسة علاوة على ذلك الحق بان تملك املاكاً وتديرها . ذلك لان السلطة الروحية تحتاج الى الاموال لتنظيم الاعمال والى معاش المتفرغين فيها لخدمة الجموع . ولها في هذا المعنى اسوة بالسيد المسيح نفسه الذي يخبر الانجيل انه كان يقبل التبرعات التي تقدم له ليسد بها حاجاته وحاجات تلاميذه في حال انصرافهم للتبشير بملكوت السماء . فكانت تلك الحسنات تجمع في صندوق خاص . وكان يهوذا مكلفاً بحفظها والانفاق منها على السيد المسيح وباقي التلاميذ . ومنذ اوائل الكنيسة قد ملك الرسل وخلفاؤهم املاكاً . وكان المحسنون يتخلّون عنها للكنيسة فكلفوا بادارتها . فحق الكنيسة في ذلك ثابت عقلاً ونقلاً ، بالرغم من المقاومة التي لا تزال تلقاها على توالي الاجيال من هذا القبيل . فان طمع الطامعين واغتصاب الغاصبين لا يمنع الحق « والحق يعلو ولا يُعلى عليه »

ويحسن بنا لكي نفهم سلطة الكنيسة التشريعية ان نعرف ،

اولاً ما هي الشريعة، ثانياً ما هو موضوع الشرائع الكنسية،
ثالثاً من يطالب بحفظها

١ ما هي الشريعة

الشريعة هي بوجه العموم، كما يحددها القديس توما الاكوييني
« امر معقول يُصدره من هو مكلف بإدارة الجماعة للخير العام »
فما من احد له سلطة ان يصدر اوامر ما لم يُعطَ هذه السلطة.
ولا سلطة الا من الله، فالله هو مصدر كل سلطة وهو المشترع
الاعظم

وعلى ذلك فمن لم يكن، من البشر، مفوضاً اليه من قبل
الله، لم يكن له سلطة ان يأمر الغير بشي، او ان يخضعهم لشريعة
منه. لان الله يقول في سفر الامثال « بي الملوك يملكون والعظماء
يشترون ما هو العدل . بي الرؤساء يرأسون والزعماء وجميع
قضاة الارض »

الا ان هذه السلطة قد تكون من وضع الهي مباشرة، كما
هو الحال في الشرائع المنزلة في العهد القديم والجديد، وتسمى
« الشرائع الالهية »، وكما هو الحال في سلطان الكنيسة المستمد
مباشرةً وصريحاً من السيد المسيح . وقد تكون من وضع الهي
في نظام الطبيعة كما اوجده الله، فتسمى الشريعة الناجمة عنه اساسياً
« الشريعة الطبيعية »، وهي شريعة الآداب المغروسة في كل ضمير

بشري - وقد تكون من مستلزمات هذا النظام الطبيعي نفسه،
او من مستلزمات نظام الكنيسة الالهية بموجب ارادة المشترع
الالهية الاسمي، فتسمى الشرائع الناتجة عنه شرائع بشرية
فكلما شابهت الشرائع البشرية الشرائع الالهية او الطبيعية
ازدادت كمالاً، والشرائع التي تقاوم الشرائع الالهية او الشريعة
الطبيعية باطلة لا سلطة لها

والفرق بين الشرائع الالهية والشرائع البشرية هو ان الشرائع
الالهية لا تبطل ولا تلغى على مرور الزمان. فان الشريعة الالهية
مثلاً « لا تقتل، اكرم اباك وامك، لا ترن »، هي دائماً ملزمة
في كل مكان وزمان، شاملة لجميع البشر على السواء، حتى لا
يجوز مثلاً حمل مجنون على التجديف، وان تجديفاً مادياً. ولكن
الشرائع البشرية قد تلغى وتتغير تبعاً لظروف المكان والزمان،
ومقتضيات الخير العام، لاسيما وان الانسان هدف للتقلب. وهي
على كل حال ليست من جوهرها شاملة لجميع البشر على السواء،
بل هي تتنوع على حسب تنوع الجماعات وتعددها

٢ ما هو موضوع الشرائع الكنسية

هذه هي الشريعة بوجه العموم، ولكن ما هو موضوع
الشرائع الكنسية؟ ان موضوعها هو ما يوصل الى غايتها.
وغاية الكنيسة سماوية لا أرضية، غايتها ان ترفع قلوبنا الى ما
فوق وتجعلنا متحدثين بالله، وتظهر لنا كنوز صفاته غير المتناهية،

وتجمعنا بالخير السامي الذي هو موضوع خيرنا وسعادتنا
فلكي تبلغ بنا الكنيسة هذه الغاية لا بد لها من سن
شرائع عظيمة وشريفة، تسد بها خطواتنا الى فعل الخير وتدير
ارادتنا الى ما فيه خلاصنا

كلف السيد المسيح كنيسته ان تقودنا الى السماء، لذلك
يقتصر عملها في التشريع على ما يبلغنا غايتنا ويساعدنا على حفظ
وصايا الله، ولا يتجاوزها الى ما هو للزمنيات والتنظيم المدني
فشرائع الكنيسة مستمدة من شريعة الله المعلنة على طور سيناء
ومنقوشة على صفحات قلبنا، ومأخوذة من الشريعة التي كتبها
الشارويع على لوح حجر، وهي تأمر قائلة: «أحب الرب الهك
من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك»، وتعلمنا
كيف نكرم الله، وكيف نحب والدينا، وكيف نكون عادلين
وأعفاء، وصادقين في كلامنا

شريعة الكنيسة هي شريعة السيد المسيح التي أُنزلت بدون
برق ولا رعد، بواسطة ابن الله، وهي الشريعة التي تطلب ان
نكون كاملين، كما أن ابانا السماوي كامل. وهذه الشريعة لا تريد
في واجباتنا الا لتزيد في فضيلتنا واجرنا امام الله. شريعة الكنيسة
ليست الا تفسير ارادة السيد المسيح. فهو تعالى قد امر الكنيسة
ان تعلمنا حفظ ما اوصانا به، اعطاها سلطته لتعطينا وصايا، اعطاها

سلطته لتحديد لنا بالفعل المبادئ التي اعطاها : « اذهبوا وبشروا كل الأمم وعلموهم حفظ ما اوصيتكم به » . فالكنيسة تعلن لنا ارادة الله، وتفسرها لنا تفسيراً منزهاً عن الضلال، وهي في شرائعها تحافظ على شريعة السيد المسيح، وتنير ضمائرنا، وتقودنا بلا خوف من الضلال الى ميناء الخلاص، لان السيد المسيح وعدها بان يكون معها، ونحن واثقون باننا اذا اتبعنا ارادة الكنيسة نتبع ارادة الله

فاذا قابلنا بين وصايا الله التي تكملها الشريعة الانجيلية ووصايا الكنيسة، رأينا وصايا الكنيسة مطابقة كل المطابقة لوصايا الله، وهي تعلمنا، في كل اطوار حياتنا، كيف نتمم شريعة الله، وصايا الله تعطينا المبادئ ووصايا الكنيسة تجعلنا نمارس بالعمل هذه المبادئ

شريعة الله توجب علينا ان نحب الله فوق كل شيء، والكنيسة لكي تساعدنا على محبة الله، تأمرنا بان نقدر يوم الرب، بحضور القداس الالهي الذي يظهر فيه الله قدرته ومحبته، ويقدم فيه الحمل الالهي نفسه ذبيحة عنا

الشريعة الالهية تعلمنا واجبات المحبة نحو اهلنا وواجبات العدل نحو قريبنا والواجبات الشخصية الخاصة بنا، والكنيسة تلزمنا، لكي لا ننسى هذه الشرائع، بان نختلي في اوقات معلومة

ونفحص ضميرنا ونعترف بخطايانا امام اقدام المسيح، الذي يمثله الكاهن، وننال بواسطة التوبة نعمة التبرير التي نكون قد فقدناها والتي نقدر بها على حفظ واجبات المحبة والعدل والعفة

السيد المسيح يقول لنا : « ان لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فلا حياة لكم في انفسكم »، والكنيسة تلزمنا بأن نتقرب على الأقل مرة في السنة لنشارك بالحياة الالهية ونستعد لوليمة السماء.

السيد المسيح يأمرنا بالتوبة، ويقول لنا : « ان لم تتوبوا فجميعكم تهلكون »، ويعلمنا ان من الشياطين ما لا يُقهر « إلا بالصوم والصلاة »، وقد مارس كل حياته فضيلة الامانة ليعلمنا ان نسيطر على اهوائنا الفاسدة ونخضعها لله وللنفس . والكنيسة لكي تسهل لنا التوبة والتغلب على اهواء الجسد تلزمنا ببعض ايام صوم او قناعة، نروض بها الجسد . وهي ان لم تقمع أهواءنا فانها تعلمنا التواضع وطلب نعمة الله، وتذكرنا بأن نتخذ وسائل فعالة لكبح جماح الجسد المتمرد، وتساعدنا على التشبه بالسيد المسيح في آلامه لكي نكون معه في انتصاره

الشريعة الطبيعية تعلمنا في سر الزيجة ان يبتعد الانسان عن القرابة الدموية والاهلية ما امكنه، كما كانت الشريعة الرومانية

(١) يوحنا ٦ : ٥٤

(٢) لوقا ١٣ : ٣ و ٥

(٣) مرقس ٩ : ٢٨

تقرر ذلك، لانه باختلاط الدم بين الاقارب يقل النسل وتكثر العاهات في الغالب، هذا فضلاً عما يحق لروابط الدم من الحرمة . والكنيسة المحافظة على الشريعة الطبيعية تمنعنا من الزواج في القرابة الاهلية والدموية، واضعة حدوداً معلومة، ولا تتسامح في خلاف ذلك الا لدواعٍ كبيرة يقتضيها خيرنا، او لظروف عائلية تستدعي الرحمة - الكنيسة تسن لنا طريق الكمال في قوانين رهبانياتها، وتعلمنا ممارسة اسمى الفضائل والمشورات الانجيلية، بحفظ نذور العفة والطاعة والفقر الاختياري، وتسنب لنا قوانين تساعدنا حفظها على بلوغ درجات الكمال

٣ من المطالب بحفظ الشريعة الكنسية

واما المطالبون بحفظ الشريعة الكنسية فهم بالعموم جماعة المسيحيين الذين قبلوا سر العباد وبلغوا سن التمييز . وعليه فغير المؤمنين، والاولاد المعمدون الذين لم يبلغوا سن التمييز، والمعتوهون، غير مطالبين بحفظ الشرائع الكنسية . واما الهراطقة فهم وان كانوا منفصلين عن الكنيسة لا يزالون تحت حكمها بفضل معموديتهم، ولان التمرد على السلطة الشرعية لا يولي المتمرد حق التخلص منها

السلطة القضائية في الكنيسة

ان ما للكنيسة من السلطة في الادارة الروحية لا يقف

عند حدود التشريع، بل يتناول ايضاً الحق في القضاء، فلكي تحلّ الكنيسة وتربط حسبها امرها السيد المسيح، يجب ان تعرف موضوع الحلّ والربط، وتقضي فيما يستحق الحلّ وما يستحق الربط، وذلك ناتج من اوامر السيد المسيح لها

ذلك ايضاً ما يقتضيه العقل . فان كل حكومة يكون لها حق التشريع يكون لها ايضاً حق المحافظة على تشريعها بتنصيب قضاة، يلزمون الناس بحفظها، ويعاقبون من يخلّ بها . لانّ من له الحق بالمحافظة على النظام له الحق ايضاً بمعاقبة من يُخلّ به . وهذا ضروري لحفظ الترتيب . فكلّ إدارة لا تقدر ان تحافظ على نظامها فهي معرضة للفوضى والاضمحلال

وعليه فكيف تُحرّم الكنيسة، التي هي جمعية كاملة في غايتها وفي وسائلها، حقوق السلطة في القضاء، والحق في ردع من يقاوم نظامها ؟ فان هذه السلطة، وهي كما اثبتنا من الله، ان لم يكن لها حق المطالبة بحفظ شرائعها كانت عرضة للسخرية والاستخفاف

السلطة التأديبية في الكنيسة

لذلك جاهرت الكنيسة منذ نشأتها بهذا الحق واستعملته . والبابا بندكتوس الرابع عشر، في رسالته الى اساقفة بولونيا، قد حدّد هذا السلطان كما يلي :

« ان السيد المسيح لم يعطِ كنيسته سلطة ادارة المؤمنين

بالنصيحة والتحريض فحسب، بل اعطاها ايضاً سلطة سنّ الشرائع وردع الضالين والمتمردين باحكام جهارية وعقوبات رادعة»

إذن يجب ان لا ننسى هذا المبدأ : وهو ان كل من ينبذ علناً حقائق الايمان يُعدّ فوضوياً في الكنيسة ويعمل على دكّ أساس الدين المسيحي . اذا كان للحكومات العصرية حقّ في قمع الفوضويين، فللسلطة المسيحية حق ايضاً ان تمنع الهرطقة من الاضرار بابنائها . على ان هنالك فرقاً بين طريقة الردع في الحكومة الزمنية وطريقته في الكنيسة، وهو فرق راجع الى شرف الكنيسة التي لا تنسى غايتها الروحية الفائقة الطبيعة

فالحكومة المدنية، التي من شأنها المحافظة على العدل والامن العام ونشر الحضارة والتقدم في البلاد، مع السعي في تحقيق السعادة الزمنية لشعبها، لا تهتم عادة بالضمائر، لكنها تكفي بالنظام الخارجي، وتلجأ الى وسائل القمع بالقوة والسلاح لردع المخلين بالنظام وجعلهم عبرة لغيرهم

اما الكنيسة فانها لا تعاقب الا لكي تصلح . فهي تحرّض على منع الشرور الادبية وتلافي اذيتها، وتصرف جلّ عنايتها الى الحياة الروحية لازالة الشكوك ورد الضالّين، واصلاح النفس الخاطئة المدنسة امام الله بالخطيئة . فرمى كل نشاطها إذاً انما هو نشر مملكة الله بين الناس، واسعادهم بالانضمام اليها تحت لواء القداسة . لذلك كانت خطتها في ردع الشر موجهة الى داخل القلوب، وكان سلاحها روحياً، على خلاف خطة السلطة الزمنية .

وقد جعلت العقوبات درجات تبتدى أولاً بإيجاب التوبة، وإذا لم تنجح في ذلك لجأت الى التوبيخ والتأنيب . ولا تفرض القصاص الا عندما ترى سوء نية في الجريمة . اما اذا اقرّ الخاطئ بخطيئته قبل ان يشيع امرها وتحدث بين المؤمنين الاضرار الروحية والشكوك، فان الكنيسة تصفح ولا تطلب تعويضاً سوى توبة خفية تكون بين التائب والله تعالى « فاحص القلوب والكلى » . وتقوم ببعض صلوات او صدقات او زيارة فقير وما اشبه من اعمال البر . وعلى هذه الصفة يستطيع الخاطئ ان يتصالح مع الله ومع ضميره ويرتد عن طريق الضلال التي سلكها . اما اذا كان الجرم جهارياً علنياً، فان ردعه يستلزم مزيد صرامة لمعالجة الضرر الروحي . فالجريمة الجهارية تقتضي اصلاحاً جهارياً، والكنيسة تتخذ الوسائل لردع مثل هذا الاثم، على نحو ما قال السيد المسيح : « من لم يسمع من الكنيسة فليكن كوثني وعشار » (متى ١٨ : ١٧)

وفي هذه الحالة تتنوع العقوبات على حسب اهمية الجرم . فقد تفصل الكنيسة المجرم من جماعة المؤمنين مجرم تقطعه به من شركتها، كما يقطع العضو الفاسد من الجسم . واذا أصرّ بعد ذلك على خطيئته ومات على هذه الحال حرّمته الدفن الكنسي والصلوات الطقسية عن نفسه . اما اذا تاب وكفّر عن ذنبه تكفيراً كافياً

جهازياً فالكنيسة ترجعه الى حضنها، وتقبله، على ما هو مذكور في الانجيل، قبول الاب لابنه الشاطر التائب عن خطاياہ وفي الاجيال المسيحية الاولى كان في الكنيسة طبقات مختلفة من التائبين . فالبعض كانوا يحضرون ذبيحة القديس واقفين، وغيرهم كانوا يخرجون مع الموعوظين عقاباً لهم فلا يتمتعون بنعمة حضور الكلام الجوهرى والاشتراك في الاسرار، والبعض كانوا يجثون ركعاً مدة الصلوات العامة كلها، ولم يكن يسمح لهم من الحفلات الكنسية الا بسماع الوعظ لكي يرتدعوا، وغيرهم كانوا يلبسون المسوح ويقفون على ابواب الكنيسة قائلين للداخلين والخارجين « اغفروا لنا لاجل المسيح » . ولم يكن القياصرة انفسهم يُعَفَّون من العقوبات الكنسية : فان القديس امبروسيوس منع ثاودوسيوس الكبير من الدخول الى الكنيسة، والزمه امام الشعب ان يكفر عن الدم البري، الذي اهرقه في تسالونيكيّا فقبل العقوبة وكفر عن ذنبه

فما كان ابلغ وقوع هذه الامثال في قلوب المؤمنين . وما كان اكبر فرح الخاطي العلي بعد ان يقوم باعمال توبته الطويلة، اذ يرجع الى ما بين اخوته، ليبنهم بمثله الصالح بعد ان كان لهم سبب شك وعثار

على اننا اذا كنا لم نعد نرى مظاهر التوبة العلنية في عصرنا، فانها لا تزال على اتم الازدهار في المناسك والاديار، حيث تنصرف مئات والوف من النفوس التقية الطاهرة الى كل اعمال التقشف

والتوبة على مثال نساك البراري القديسين في العصور الخالية . وهي يطيب لها الصليب ويشوقها العذاب بدافع المحبة الالهية تكفيراً عما يُقترَف في العالم من الذنوب والآثام، وتذليلاً في الوقت نفسه لتمرّد الجسد، الذي كان القديس بولس الرسول يسميه « جسد الموت » ويقمعه بالحرمان والعذاب . تلك هي حياة عشرات ألوف من الرهبان والراهبات في عُزلة الاديار . يقضون حياة منزهة عن العيب حافلة بأعمال التقوى والفضيلة والقداسة . زرت بعضاً من هذه الاديرة وهو دير لرهبان الترايبست ورأيت الرهبان فيه يمارسون قوانين صارمة . يمتنعون فيها عن التكلم الا مع الله ومع رئيسهم، ويقضون ساعات طويلة في الليل بسجود وترنيم، ويمتنعون بتاتا عن اللحوم، ويكثفون من الاكل بما يمنع الجسد ان يخور ضعفاً، وينامون على الخشب، ويشغلون بأيديهم، وثمره أشغالهم تعود على الفقير واليتيم . اولئك أناس عرفوا ان يشتروا سعادة ابدية بعذاب ايام قليلة فانية

وعلاوة عن الحرم الصغير، فان الكنيسة تطلق الحرم الكبير على من طفق كيل مآثمه وحدث ضرراً كبيراً في الدين والآداب، فالكنيسة تقطعه من شركتها كما يقطع العضو الفاسد من الجسم، وتحرمه كل حقوقه المسيحية وكل اشتراك بكنوزها الروحية،

وتمنع مخالطته ومؤاكلته . وتطلق اللعنة على تصلبه وميل قلبه
الشرير الى الفساد والضلال

هذه هي السلطة التشريعية والقضائية والتأديبية . وبما ان
هذه السلطة مستمدة من السماء لا من الارض، فليس للحكومات
الزمنية ان تتدخل فيها . فان السيد المسيح لم يقل للرسل :
كل ما حللتموه على الارض يكون محلولاً في السماوات بشرط
ان يوافق عليه ارباب الحكومة والملوك . واذا كانت غاية
الكنيسة اسمى من غايات الحكومة الزمنية لم يكن لهذه الحكومات
ان تصدر اوامر وتسبب شرايع مضرّة بمنفعة النفوس . وقد
استعملت الكنيسة الحق بان تحل النفوس من طاعة الحكام
الظالمين المارقين عن الدين والخارجين على الكنيسة . ولها الحق
بان تلغي كل شركة ترى في غايتها مضرّة لنفوس ابنائها، وهذا
ما عمله البابا بيوس العاشر اذ منع الاشتراكات الطقسية المسماة
(Les Associations cultuelles) لانها مخلة بالنظام الكنسي، وفضل
ان تخسر الكنيسة في فرنسا كل ممتلكاتها، وان تحجز القوة
المدنية الغاشمة كل كنوزها وخيراتها، على ان تحيد قيد شعرة
عن مبدأ المحافظة على استقلال الكنيسة في ادارتها الروحية
للنفوس وصيانة السلطة الكنسية العليا من استبداد العلمانيين

فلنخلص الطاعة والاحترام للكنيسة التي تسدد خطواتنا الى
عمل الخير، وترقي نفوسنا الى ذرى الكمال، وذلك براقى شرائعها
السهلة ووصاياها العذبة، التي تشف عن قلب ام حنون، وتعاليمها

الخلاصية الجديرة ان تجعل الامم يسرون في نورها والملوك في ضياء اشراقها. كما قال اشعيا^١. نعم فلنخلص الطاعة لها، وننافس بالانتماء اليها، ولنوجه نحوها على الدوام قول داود «عرشك الى الابد والدهر وصولجان ملكك صولجان استقامة»^٢



(١) اشعيا ٦٠ : ٣

(٢) مزمو ٤٤ : ٧

في رئاسة القديس بطرس على الكنيسة

ذكرنا فيما تقدم ان السيد المسيح اسس كنيسة، وعرفنا
العلامات المميزة لكنيسته، وراينا ان في هذه الكنيسة سلطة
من الله للتعليم والتدبير وتقديس النفوس . ومرادنا الان ان
نبحث هل اقام السيد المسيح رأساً منظوراً لكنيسته
وهل تحتاج الكنيسة الى رئيس يدير شؤونها ؟ أليس السيد
المسيح وحده رأسها كما يدعي البروتستان ؟ نعم ان السيد المسيح
هو رأس الكنيسة كما هو رأس كل حكومة وكل جماعة، وكما هو
رأس البشرية بأسرها . ولكن ذلك لا يمنع ان يكون للكنيسة
من قبل السيد المسيح نفسه رأس منظور يكون نائبه على
الارض، ليسوس المؤمنين ويكون فيهم كما يكون الرئيس في
كل جماعة منظمة محسوسة على الارض . فان الكنيسة جمعية محسوسة
مؤلفة من جماعة المؤمنين المعتمدين . وتحتاج كسائر الجمعيات الى
رئيس منظور يضم شملها، ويحل مشكلاتها، ويلجأ اليه اعضاؤها
في مصاعبهم . وبما ان السيد المسيح لم يبق مع كنيسته بشكل
منظور على الارض، بل صعد الى السماء، فقد شاء ان يجعل له
نائباً عنه فيها لادارتها وتدبيرها

وينتج مما تقدم ان الكنيسة ليس لها رأسان كما يزعم
البروتستان، بل لا رأس لها الا المسيح الذي تستمد منه كيائها

وحياتها كالجسم من الرأس . وما رأسها المنظور على الارض الا
 نائباً عن المسيح طبقاً للتدبير الالهي في انشاء الكنيسة على
 شكل الجماعات المنظورة . فالسيد المسيح قد وضع اذاً لكنيسته
 رئيساً منظوراً . وهذا ما يؤيده العقل ، وما يثبتة الانجيل الطاهر
 خاصة اذ يوضح جلياً ان السيد المسيح وعد القديس بطرس
 بالرئاسة على الكنيسة ، وانجز فعلاً وعده قبل صعوده الى السماء
 اذ قال له « ارع خرافي . ارع نعاجي » . وقد باشر القديس
 بطرس هذه الرئاسة فعلاً من بعد صعود الرب الى السماء . ولو
 لم يكن السيد المسيح نفسه مؤيداً لهذه السلطة لما قدرنا ان
 نعلل هذا المقام الرفيع الذي حازه القديس بطرس وخلفاؤه من
 بعده في العالم مدى الاجيال ، على رغم كل عوامل البغض
 والاضطهاد المتألبة على الكنيسة ، بل على رغم عوامل الضعف
 البشري ايضاً في بعض الرؤساء .

قد اقام الله جلّ جلاله في العهد القديم حبراً اعظم على
 شعبه ، ليكون رمزاً ومثالاً لما تكون عليه ادارة شعبه في
 الكنيسة تحت رئاسة اخبر الاعظم . فقد كان للشعب الاسرائيلي
 كهنة ولاويون يخدمون الهيكل . وقد تخصص لخدمة الله سبط
 من اسباط اسرائيل وفي مقدمته عظيم الاحبار ، الذي جعله الله
 القاضي الاعلى في اسرائيل ، والزم الشعب بتنفيذ احكام هذا

الحبر الاعظم تحت طائلة عقاب الموت . جاء في تثنية الاشتراع ما يدلّ على سلطة رهيبة لعظيم الاحبار : « اذا التبس عليك امر في القضاء بين دم ودم ودعوى ودعوى . . . فقم واصعد الى الموضع الذي اختاره الرب الهك ، وصر الى الكهنة اللاويين والى القاضي الذي سيكون في ذلك الزمان ، واسألهم فيرشدوك في امر الحكم . واعمل بمقتضى القول الذي يفتونك به في ذلك الموضع الذي يختاره الرب . وتحرّ العمل بجميع ما يلقونه اليك بحسب الشريعة التي يلقونها اليك والحكم الذي يقولونه لك . فاصنع ولا تحد عن القول الذي سيفتونك به يمناً ولا يسرة . واي رجل كان متجبّراً حتى لا يسمع من الكاهن الواقف هناك ليعخدم الرب الهك او من القاضي ، فليقتل ذلك الرجل ، واقلع الشر من اسرائيل » (تثنية الاشتراع ١٧ : ٨ - ١٣)

ففي هذا النص نرى ان الله اعطى عظيم الاحبار سلطة رائعة رهيبة تقضي بالموت على الذين يعصون كلمته . وهذه السلطة قد جعلت لحفظ الايمان والعبادة في الشعب الاسرائيلي على ان العهد القديم لم يكن الا رمزاً الى العهد الجديد ، كما قال القديس بولس . فكما كان في الشعب الاسرائيلي سلطة تحفظ الوحدة في الدين والعبادة ، كذلك يليق بحكمة الله ان يكون في الكنيسة سلطة روحية منظورة تقضي في الامور الروحية وتكون رابطة للمؤمنين في الوحدة والعبادة والنظام ان السلطة وضعها الله للشعب الاسرائيلي ، وهي ضربة لازب

لكل حكومة او جمعية او شركة تريد المحافظة على كيانها، والقضاء على الفوضى التي تلاشيها، فالسلطة هي ملح الارض، والحكومة هي مرآة الامة. وما هو حقيقي في الممالك هو ايضاً ضروري في الاسرة، فكل اسرة يقتضي ان يكون لها رأس، وهذا ما لا بد منه لكل ادارة. فان لم يكن للباخرة ربان هامت على وجهها في عباب البحار ولم تأمن الغرق، وإن لم يكن للجيش قائد لا يلبث ان يركن الى الفرار والهزيمة

فالكنيسة التي هي جمعية منظورة مؤلفة من بشر، ليست باقل حاجة من الحكومات الى سلطة توحد كلمتها في الايمان والآداب، وتقودها الى غايتها التي هي الخلاص الابدي

اجل لقد كان في وسع مؤسسها ورأسها الالهي الذي هو المسيح ان يغميها باعجوبة مستمرة عن مثل هذه السلطة المنظورة. ويدبر اعضاءها مباشرة من السماء ويرشدهم بلا واسطة، جماعات وافراداً، الى ما عليهم من الواجبات الخ. الا ان النصوص الانجيلية الصريحة وشواهد وقائع الحال تثبت انه لم يُرد ان يخرجها عن سنن النظام المؤلف للجماعات المنظورة. وحسبنا اثباتاً لذلك الانشقاقات والاضاليل المتفشية بين المسيحيين انفسهم وبقاؤهم على ذلك، اذ بقوا منفصلين عن الحبر الاعظم

واذا كان البشر يشعرون ان هذه السلطة ضرورية لكل جمعية بشرية يُراد لها البقاء والنجاح، فهل يكون السيد المسيح اقل حكمة من سائر المشتريين؟ هل يكون إله الحكمة اقل

حكمة من سائر البشر ؟ فالكنيسة اذاً بدون رأس منظور تكون كمركب بلا ربان او كقطيع بلا راع او كجسم بدون رأس نقول ذلك بعد ان اثبتنا انه جلّت حكمته، وهو رأس الكنيسة الحقيقي ومصدر كل سلطان فيها، لم يشأ ان يجعل كنيسته من حيث الادارة المحسوسة الظاهرة شاذة في الجماعات البشرية الكافلة الوحدة والنظام على الارض وهذا . هو الحل الذي نراه في الكنائس المنشقة عن وحدة الكنيسة . فهي كبقايا سفينة متكسرة يهيم كل جزء منها في البحر على حدة بلا ارتباط ولا غاية ولا انتظام، اذ ليس لهم وحدة تجمعهم ولا رابطة تربطهم . واما الرئاسة في الكنيسة الكاثوليكية فهي حجر زاويتها وقوة حياتها

وهذه الرئاسة، مصدرها السيد المسيح نفسه، كما سبق لنا القول، لا السلطة البشرية ولا دافع الكبرياء والعجرفة . فان من يطالع الكتاب المقدس بنية مستقيمة وبعين مجردة عن الاغراض يرى ان السيد المسيح أعطى بطرس ملء السلطة في رعاية الكنيسة . وما من حقيقة في الكتاب المقدس اوضح من هذه الحقيقة . فالسيد المسيح وعد اولاً القديس بطرس بالرئاسة على كنيسته، ثم انجز هذا الوعد، والقديس بطرس استعمل هذه السلطة على ما نعلم في اعمال الرسل

١ وعمر السيد المسيح للقديس بطرس بالرئاسة على الكنيسة

ان السيد المسيح منذ اول نظرة نظرهما الى بطرس غير اسمه فلقبه بلقب آخر وقال له : « انت سمعان بن يونا . انت تدعى كيفاً اي الصفاة » . ولم يغير المخلص اسم غيره من الرسل . ومما هو معروف في الكتاب المقدس ان الله لا يعطي احد اوليائه لقباً جديداً الا ليكون هذا اللقب رمزاً الى حقيقة يريد الله تحقيقها فيه ، كما كان ذلك لابراهيم ابي الابرار .

وبعد ان لقب السيد المسيح بطرس بالصخرة ، وعده بأن يكون صخرة يؤسس عليها كنيسته ، اي يجعله فيها رئيساً وإماماً وقد تم ذلك فعلاً اذ كان يسوع مجتازاً بالقرب من قيصرية فيلبس ، فألقى على رسله هذا السؤال : « من تقول الناس ان ابن البشر هو ؟ فقالوا : قوم يقولون إنه يوحنا المعمدان وآخرون انه ايليا ، وآخرون انه ارميا او احد الانبياء - قال لهم يسوع : وانتم من تقولون اني هو ؟ أجاب بطرس قائلاً : انت المسيح ابن الله الحي . فأجاب يسوع وقال له طوبى لك يا سمعان بن يونا ، فانه ليس لحم ولا دم كشف لك هذا ، ولكن أبي الذي في السموات ، وانا اقول لك انت الصفاة وعلى هذه الصفاة ابني كنيستي ، وابواب الجحيم لن تقوى عليها ، وسأعطيك مفاتيح

(١) يوحنا ١ : ٤٢

ملكوت السماوات، فكل ما حللته على الارض يكون محلولاً في السماوات، وكل ما ربطته على الارض يكون مربوطاً في السماوات» (متى فصل ١٦ عدد ١٣ - ١٩)

يتضح من هذا الكلام ان السيد المسيح اراد ان يبنى كنيسته وان يجعل اساسها على بطرس . وليس لهذه الاستعارة التي يستعملها السيد المسيح الا معنى واحد، وهو انه يجب على اعضاء الكنيسة كلهم ان يكونوا متحدين مع بطرس . وكما ان الصخرة هي اساس البناء حتى انه لا يكون لحجر في البناء ثبات ومتانة الا باستناده الى الصخرة الاساسية، كذلك لا يكون لاحد من المسيحيين ضمانة للثبات في بناء الكنيسة الا باتحاده ببطرس الذي هو اساس الكنيسة، وهو رأسها بإرادة منشئها السيد المسيح نفسه

ولنا على ذلك براهين ساطعة تبهر العيون، حسبنا منها بعض ما هو وارد في الكتب الطقسية المستعملة في الكنيسة الشرقية . فمن ذلك مثلاً ما نقرأ في الميناون في قانون عيد القديسين بطرس وبولس حيث نتلو مراراً مثل هذه العبارة «بأية اكلة من المدايح نتوج بطرس وبولس زعيمى الكارزين باللاهوت، لان احدهما زعيم الرسل، والآخر قد تعب اكثر من الجميع . . . يا بطرس الصخرة والاساس الوطيد، ويا بولس الاناء المصطفى . . . يا بطرس هامة الرسل الاكارم وصخرة الايمان، ويا بولس الالهى خطيب وكوكب الكنائس المقدسة»، الى غير ذلك من الالتفات التي

تدلّ جلياً على ان الكنيسة الشرقية تعتقد ان القديس بطرس هو راس الكنيسة . فما اعظم عبارات الكنيسة الشرقية هذه حجة في تأييد قضيتنا واثباتها . فضلاً عن سائر الحجج والبراهين القاطعة في هذا الصدد من الكتب المقدسة والتقليد العام والتأريخ الصحيح

واذا تتبعنا كلام السيد المسيح في هذا المعنى، نسمعه يقول لبطرس : « وسأعطيك مفاتيح ملكوت السموات » . فما معنى تسليم المفاتيح سوى الدلالة على تسليم مقاليد السلطة بين يدي من دفعت اليه المفاتيح ؟ فاذا اشترى احدكم بيتاً مثلاً، أفلا يكون تسليم المفاتيح اليه علامة منحه السلطة على هذا البيت ؟ وقد اعطى السيد المسيح بطرس هذه السلطة شاملة كاملة بلا قيد ولا شرط، وخولّه اياها على الجميع، ولم يضع لها حداً : « كل ما حللته يكون محلولاً وكل ما ربطته يكون مربوطاً »

٢ السيد المسيح انجز وعده للقديس بطرس بالرئاسة على الكنيسة

ان السيد المسيح، الذي وعد القديس بطرس برئاسة الكنيسة انجز وعده بعد قيامته من بين الاموات، قبل ان ينتقل الى ابيه السماوي . وقد جرى هذا لما ظهر للرسول على بحيرة طبرية . فبعد ان تناول الطعام معهم، وجه كلامه بنوع خاص الى سمعان بطرس وسأله ثلاث مرّات « يا سمعان بن يونا هل تحبني اكثر من هؤلاء ؟ »

واذ كان بطرس قد ازداد تواضعاً بعد سقوطه لم يتجاسر ان يقابل نفسه بالرسل بل اكتفى بان قال : « نعم يا رب انت تعلم اني احبك . فقال له يسوع : ارفع خرافي . ثم قال له ثانية : يا سمعان ابن يونا اتجني ؟ فقال له : نعم يا رب انت تعلم اني احبك . فقال له يسوع ارفع غنمي . ثم قال له ثالثة : يا سمعان بن يونا اتجني ؟ فحزن بطرس لانه سأل ثلاث مرار اتجني . فقال له : يا رب انت تعلم كل شي . وانت تعلم اني احبك . فقال له يسوع ارفع نعاجي » (يوحنا ف ٢١ عدد ١٥ - ١٧)

بهذه الكلمات يُقيم ويثبت السيد المسيح بطرس رئيساً على الكنيسة، لا على الخراف الناطقة الذين يؤمنون فقط، بل رئيساً على النعاج اعني باقي الرعاة . وهذا ما فهمته الكنيسة الشرقية نفسها ايضاً في صلواتها اذ تقول ذاكرة هذا النص : « ان الرب لاجل محبته لاغنامه سأل بطرس بعد القيامة الالهية ثلاثاً اتجني . وانتدبه رئيس رعاة غنمه » (الاكتوئيخوس : الاكسابستيلاري الحادي عشر)

٢٣ القديس بطرس استعمل هذه السلطة مرة مباركة

لقد نال القديس بطرس المنزلة الاولى بين الرسل، وقام بواجب وظيفته واستعملها، واقر له الرسل بهذه السلطة، على ما نرى في اعمال الرسل وعلى ما نقرأ في الانجيل الاربعة . فاننا نراها جميعها تضع القديس بطرس في مقدمة الرسل، مع انه ليس الاقدم

دعوة فيما بينهم، ولا الاقرب منزلة في الظاهر من قلب معلمه
الالهى . وهي تذكره باسمه مفرداً بينما تكتفى بذكر مجموع
الرسل كاعضاء أسرته . فتقرأ مثلاً : « بطرس والذين معه » .
« اذهب وقلن لتلاميذه ولبطرس » . « قام بطرس مع الاحدى عشر » .
وقد ظهر السيد من بعد قيامته لبطرس قبل ان يظهر لباقي
الرسل . ونرى بطرس بعد الصعود يحفظ هذه الاولوية ويستعملها
ولم يعترض عليه من الرسل احد . وحسبنا ان نقرأ بتروا اعمال
الرسل ليثبت لنا ذلك، واذ ذاك يتضح صدق قول بوسويه :
« ان بطرس يظهر اول الرسل من كل الوجوه : هو الاول في
الاعتراف بالايمان، والاول في اظهار واجب الحب، هو اول من
شاهد يسوع المسيح ناهضاً من بين الاموات، كما كان اول من
شهد ليسوع امام الشعب كله، هو اول من ثبت الايمان بأعجوبة،
كما كان الاول في طلب اكمال عدد الرسل الناقص، هو اول
من رد اليهود الى الايمان المسيحي، واول من قبل الوثنيين في
الكنيسة، وعلى الجملة هو الاول في كل الاحوال (خطاب بوسويه
في وحدة الايمان)

فالسيد المسيح قد اعطى بطرس السلطة، واعطاه القوة
لكي ينفذها : « انا معكم كل الايام » . وليست قوة بشرية تلك

(١) لوقا ف ٨ : ٤٥

(٢) مرقس ف ١٦ : ٧

(٣) اعمال الرسل ف ٢ : ١٤

التي جعلت رجلاً قروياً من الجليل، وهو صياد لا يملك الا شبكة ممزقة، وضعيف يخاف من صوت امرأة، وجاهل امي لا يعرف الكتابة ولا القراءة، يذهب الى عاصمة الرومان، ويهدي عدداً كبيراً من الوثنيين واليهود هناك، ويجعل كرسي سلطته في عاصمة القياصرة، وتكون مملكته الروحية اوسع من مملكة القياصرة الزمنية، واخيراً يسمع صوته بشخص خلفائه اكثر من ٣٥٠ مليوناً في العالم، فيطيعونه طاعتهم السيد المسيح، يقود بعصاه الرعائية خرافاً ناطقة من كل الامم والشعوب، رغماً عن اختلاف تربيتهم وتباين عوائدهم وسياستهم . تلك قوة إلهية جعلت له هذه السيطرة العجيبة الشاملة، بلا سيف ولا مال ولا جاه ولا واسطة بشرية . تلك قوة من قال : « انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر »

كررت على قول الرب الايام ومررت العصور، وجرف الزمان في جريه السريع الدول والممالك . فشهد اليهود خراب الهيكل ودمار اورشليم، وشهدت روما المتسلطة على العالم افول نجم قياصرتها العظام، اذ هجم البرابرة فقضوا على عظمتها ومجدها، وبعد ان نالت المملكة الشرقية قسطها من العز، لعب بها سيف الاتراك فقطع اوصالها، وقامت على انقاض هذه الشعوب البائدة دول وممالك أخرى تألقت انوار عزها ردىاً من الزمان، ثم لم تلبث ان سقطت وهي ايضاً توارت بدورها

هوت الممالك وتحطمت العروش، والصياد الجليلي باقٍ على
قمة الفاتيكان ومجده لا يزال يشع في العالم. فهو وحده باقٍ على
مدى الاجيال، وهو وحده منتصر على عوادي الزمان وغير
الدهر، على الاضطهادات والهرطقات. حمل عليه الغزاة الطامحون،
وصوب اليه الفلاسفة سهامهم الحادة حتى جعلوه موضوع هزئهم
وسخريتهم، فطاشت سهامهم وتحطمت قوتهم دون اقدم عرشه،
وباؤوا جميعهم بالخيبة والفشل والندم

ولقد طالما توهم الكفرة والملحدون انهم وجهوا الى شيخ
الفاتيكان الضعيف الضربة القاضية، ولكن القياصرة فنوا
والمضطهدين بادوا والغزاة تلاشوا، وشيخ الفاتيكان باقٍ. فalcوات
الكفرية، واهواء الطبيعة البشرية الساقطة، وسفسطات العلماء
المتبجحين، ودسائس الساسة الطغاة تضافرت كلها على ملاشاة
الشيخ الضعيف، فخاب سعيها وارتدت خاسئة مدحورة

وهذا العصر الذي شاهد سقوط العروش وتدهور الممالك
يرى سلطة القديس بطرس تزداد مجداً على توالي الايام

ان كنيسةنا الشرقية تقول، كما برهننا من كتبها، برئاسة
القديس بطرس، ومسيحي بلادنا المنفصلين عن وحدة الكنيسة
اكثرهم سليمو النية في اقامتهم على هذا الانشقاق المؤلم. وما
ابهج ما نشاهد كل يوم من حركات الارتداد الى حضن الكنيسة
الكاثوليكية من جهات سوريا وفلسطين. ونحن واثقون انه حتى
لو اتيح لغبطة بطريركنا المبجل وللسادة الاساقفة الاجلاء العدد

الكافي من الكهنة الافاضل والمساعدات المادية، لجنينا اضعاف
ما نجني الآن من هذه الثمار الشهية، ورأينا من اقبال اخواننا
الروم الارثوذكس ما يعزّي القلب المسيحي ويعود بالفخر المقدس
على الكنيسة الكاثوليكية . وما نحسبه فالأحسن للتقرب
وزوال الجفاء بين اخوة العائلة الواحدة ان الحكومة اليونانية
قد اخذت تتبع الحساب الغربي، وذلك مما يقرب بين القلوب
ويوحد الاعياد . قرب الله اليوم السعيد الذي فيه تتم رغبة
السيد المسيح بان تكون رعية واحدة لراع واحد . هذا ما
يجب ان نطلبه كل يوم من الراعي الصالح



في رئاسة البابا

رأينا في المحاضرة السابقة ان السيد المسيح اقام القديس بطرس رئيساً على الكنيسة، وان هذا معتقد الكنيسة الشرقية والغربية معاً . على ان الكنيسة لم تمت بموت القديس بطرس، لانها تدوم الى منتهى الاجيال، وما اعطاه السيد المسيح من الامتيازات التي خُصَّ بها القديس بطرس يجب ان ينتقل من بعده الى خلفائه على توالي الاحقاب

فالكنيسة محتاجة الى رئيس اعلى في كل مكان وزمان كما كانت عليه في زمن القديس بطرس . بل قد يمكن القول انها من بعده وفي مثل ايماننا هذه احوج الى رئيس اعلى منها في زمن الرسل، لان مملكتها قد ازدادت اتساعاً، ورؤسائها ليس لهم قداسة الرسل، وقد اجتمع عليها عداة عشرين جيلاً، ما عدا ما نراه اليوم من الانشقاقات والمهرطقات المنظمة كنائس وجماعات . فهي تحتاج الى سلطة تحفظ وحدة ايمانها ووحدة نظامها

لذلك كان لا مناص من القول ان كل الامتيازات المعطاة للقديس بطرس والمعروفة ضرورتها لرعاية الكنيسة، تنتقل الى خلفائه من بعده بصفة كونهم خلفاء، كما تنتقل القاب ملك انكلترا مثلاً الى خلفه ولقب رئيس جمهورية فرنسا الى الذي يعقبه

ولسنا نعني ان سلطة العجائب وسلطة الالهام الالهي التي كانت للقديس بطرس تنتقل الى خلفائه، فان هذه الهبات التي كانت ضرورية لنشأة الكنيسة ليست ضرورية لرعاية الكنيسة. لان الله يعامل كنيسته كما يعامل غرسة صغيرة نغرسها . فاننا في اول الامر نسقيها، ونرفع التراب فوق جرثومتها، ونفرط في الاعتناء بها . ولكن عندما تتأصل في الارض وتمتد جرثومتها نتركها في نموها لحكم الطبيعة، لانه قد اصبح لها قوة كافية على ازدياد النمو . وهذا ما فعله السيد المسيح بكنيسته، فقد غذّاها وسقاها في زمن طفوليتها بالالهام والعجائب، ولما اصبحت شجرة عظيمة، تركها لحكم عنايته العادية

ولعلّ قائلًا يقول : « كيف اصبح كرسي روما كرسي خلفاء القديس بطرس ؟ لماذا يكون مطران روما لا غيره خليفة القديس بطرس ؟ لماذا خُصّت رئاسة الكنيسة بكرسي روما لا بكرسي آخر ؟ فنجيب ان ذلك كان لسبب تاريخي لا يسع احداً انكاره، وهو ان القديس بطرس كان في آخر حياته اسقف روما، وقد مات فيها شهيداً على عهد نيرون . فهو اسقف روما الاول، ولذلك يخلفه خلفاؤه في سلطته، وهذا حادث تاريخي لا ريب فيه . ولذلك امتدّت سلطة القديس بطرس الى خلفائه في روما، كما تمتد سلطة بطريركنا مثلاً الى خليفته على كراسي انطاكية والاسكندرية واورشليم

واذا سألتكم لماذا اختار القديس بطرس روما، ولم يختار مدينة

اخرى . فالجواب ان هذا الاختيار لم يكن عن وحي ، وهذا هو الغالب . فمن الوجهة الجغرافية والتاريخية ، لم يكن بين المدن ما هو اصلح لكرسى القديس بطرس من مدينة روما ، لان القديس بطرس لم يكن مخيراً الا بين مدينتين اورشليم وروما

فاورشليم كانت عاصمة التوحيد ومرجع الديانة الحقيقية ، ومحل هيكلمها الذي كان احدى عجائب الدهر ، اما روما فكانت عاصمة العالم ومجتمع الشرك حتى انه كان لكل من الالهة مقام فيها ، فأيهما الاجدر بان تكون مقراً لرئاسة الكنيسة ؟

ان اورشليم كانت العاصمة الدينية للشعب اليهودي ، وكانت بصفتها هذه تصلح لان تكون عاصمة الدين المسيحي . ولكنها جلبت على نفسها اللعنة بقتلها المسيح الفادي وجهلها ساعة افتقادها ، وقد أنبأ السيد المسيح بخرابها وخراب الهيكل . واذا نظرنا الى الامر من حيث النظام الاجتماعي - وقد اراد الله ان يكون من عوامل عنايته في نشر الديانة المسيحية - نجد ان اورشليم كانت عاصمة لشعب صغير لا حول له ولا طول ، ولا تأثير له ولا لعاصمته في سائر العالم المعروف

واما روما فكان لها عيوب بشر كها ورذائلها ، ولكنها كانت عاصمة العالم المتمدن . فمنها تشعب الطرق الى سائر انحاء المملكة المترامية الاطراف ، وبريدها كان يصل بين كل الآفاق ، مما يسهل على الرسل نشر تعليمهم في كل العالم المعروف وقتئذ . فادارتها كانت تساعد على نشر الديانة المسيحية ، اما مفسادها فانها لم تمنع

الكنيسة من ان تحولها الى فضائل . وللعناية الالهية مقاصد موجهة الى خير الكنيسة باتخاذها روما عاصمة الديانة المسيحية . لذلك اصبح ذلك الصياد الفقير الضعيف فخر روما الى الابد ، كما اصبح نيرون ملكها لطخة عار وخزي في التاريخ الى الابد واسقف روما هو البابا . وهو خليفة القديس بطرس اينما كان ، سواء نفي او سجن ، وسواء انتخب في روما او خارجاً عنها ، سواء سكن فيها او اضطر الى مغادرتها . وله الحق ان يخلف القديس بطرس . ذلك ما سلمت به الكنيسة ولم تدع مدينة اخرى قط الحق بهذه الخلافة

كان القديس بولس في عيون الناس ومن حيث ظواهر الحال اعظم شأناً من القديس بطرس ، لانه كان أغزر علماً منه ، وهو رجل نابغة ، وأحد عمُد الكنيسة وقد تعب اكثر من الجميع . الا ان الرب لم يختره رئيساً للكنيسة ، بل انما اختار القديس بطرس . لذلك عدّ المسيحيون الاولون روما كرسي القديس بطرس لا كرسي القديس بولس

ان ما ذكرناه من البراهين عن رئاسة القديس بطرس يجب ان نردده عن خليفته في روما ، لان الخلف يخلف سلفه في كل حقوقه ، ولا أحتاج الى مزيد ايضاح في ذلك . الا انه لكون المسألة في غاية الاهمية نرى من الواجب ان نورد براهين تاريخية لا مرد عليها ، تشهد بان الباباوات اساقفة روما هم المعروفون رؤساء الكنيسة ، منذ عهد الرسل الى عهد الاصلاح في اوروبا ،

والى عهد الشقاق في الشرق في الجيل التاسع بل الى الجيل
الحادي عشر اذ تم الانفصال المؤلم نهائياً على يد مخائيل كيرولا روس
بطريرك القسطنطينية

واول برهان على ذلك هو رفع الدعاوي الى روما، فان
الاصول لا تسمح بان ترفع دعوى من محكمة التمييز الى محكمة
الاستئناف ولا من محكمة الاستئناف الى محكمة البداءة، بل
ترفع من محكمة البداءة الى الاستئناف ثم الى التمييز . فاذا
رأينا كرسي روما، منذ ايام الرسل الى يومنا، يقبل الدعاوي التي
ترفعها اليه كراسي الشرق والغرب على السواء، ويحكم فيها
حكماً نهائياً يسلم به الجميع، حق لنا ان نستنتج ان رئاسة روما
على باقي الكنائس أمر تاريخي لا ريب فيه، ونحن نكتفي ببعض
امثال شهيرة يغني ذكرها عن غيرها

نبتدي بالقديس اكليمنضوس الذي مدحه القديس بولس
في رسائله وقد صار رابع خليفة للقديس بطرس . فقد جرى على
ايامه في مدينة كورنثس اليونانية مشاحنات ومخاصمات شديدة
بين المسيحيين ادّت الى تمرّد البعض على الرئاسة الروحية .
وكان بالقرب من كورنثس القديس يوحنا الحبيب الانجيلي في
افسس . فلم ترفع الدعوى الى الرسول الحبيب بل رفعت الى
البابا اكليمنضوس، فوجه اليهم رسالة سنة ٩٧ لا يزال نصها بين
ايدينا، يقول فيها : « ليلزم كل واحد منكم مكانه ووظيفته :
الاسقف ثم الكاهن ثم الشماس والعالمي، وبهذه الوسطة يقوم

النظام . وهذا هو الدواء للداء الذي انتشر في كورنثس . ومن لا يدعن لما يأمر يسوع بفمنا فليعلم انه مخطئ ومعرض نفسه لخطر عظيم ، ونحن نكون ابرياء من هذا الاثم »

فكيف يحق للبابا اكليمنضوس ان يرسل مثل هذه الاوامر الى كنيسة كورنثس ، في حياة القديس يوحنا الحبيب الذي كان قريباً منهم في افسس ، لو لم يكن معروفاً ان للبابا سلطة القديس بطرس التي هي سلطة عامة اعظم من سلطة القديس يوحنا الحبيب ، وإن كان هو الرسول الوحيد الباقي في قيد الحياة ، لان سلطته كانت سلطة خاصة

وفي القرن الثاني سنة ١٩٠ جرت مشاحنة في امر عيد الفصح ، اذ كان الشرقيون يحتفلون بهذا العيد مع اليهود ، والغربيون يعيدونه في الاحد الذي يلي البدر الربيعي . فتوسط البابا فيكتور في الامر واعلن وجوب الجري على سنن واحدة في هذا الصدد . وكان من ذلك ان جرت الكنيسة جمعا على ما اوجبه البابا ، بالرغم عن المناقشات العديدة ورغبة كثير من الكراسي الاسقفية الشرقية في ذلك العهد ان تتمسك بعاداتها المحلية . وها ان الجميع يعيدون العيد كما هو معروف طبقاً للنظام البابوي المذكور في الاحد الذي يلي بدر الربيع

وفي القرن الثالث نرى ديونيسيوس اسقف روما يطلب ايضا حات عن ايمان بطريك الاسكندرية ، بعد ما سمع انه ضل في ايمانه ، فاجاب البطريك موضحاً عقيدته ، ومطيعاً للبابا

ديونيسيوس . وقد لاحظ بعض المؤرخين انه، من القرن الرابع الى القرن التاسع، اي من سنة ٣٤٠ الى القرن التاسع، قد رفع الشرق نحو ٢٣ دعوى الى روما لحسم المشاكل الواردة منه

ومن ذلك ما هو مشهور عن القديس اثناسيوس الكبير من انه رفع دعواه الى البابا يوليوس الاول، بعد ان نفاه المهرطقة خمس مرات، وحكم عليه بعض الاساقفة لزعمهم انه افسد عقائد الايمان، فالغى البابا حكم الاساقفة ويراً ساحة القديس اثناسيوس . وفي القرن نفسه، كتب باسيليوس الكبير رئيس اساقفة الكابدوك للبابا داماسيوس، يعرب له عن احزانه ويستنجد بسلطته . وفي اوائل القرن الخامس التجأ القديس يوحنا فم الذهب بطريرك القسطنطينية الى البابا اينوشنسيوس الاول لينصره على عدد من المطارنة اعدائه المتמרدين على سلطانه الشرعي، وكانت قد دفعتهم الى ذلك الامبراطورة افذكسيا الناقمة عليه، لمحاولته ردها عن الشر بموجب وظيفته الرعائية

وفي اواسط القرن الخامس لجأ القديس كيرلس الاسكندري الى البابا شلستينوس، مستجيراً بسلطته العليا لحفظ الكنيسة جمعا من تعاليم نسطوريوس الكفرية، فحكم البابا على نسطوريوس ورشقه بسهام الحرم

وفي الوقت نفسه لما رأى المؤرخ الشهير ثاودوريطوس ان مجمع افسس غير الشرعي قد حكم عليه سنة ٤٤٩ كتب الى البابا لاون مستأنفاً اليه دعواه . ومن جملة ما قاله بالحرف :

« اني انتظر البتّ في الحكم من كرسيك الرسولي ، والمدافعة
عمن ينتظر المساعدة من محكمتك العادية الصادقة ، فمر ان
اتي اليك لأعرض عليك تعاليمي التي هي تعاليم الرسل . فأرجو
منك ألا ترفض طلبي ولا تحتقر بياض شعري . وقبل كل شيء
ارجو منك ان تقول لي هل احتمال هذه الشكاية ام لا ، اني
منتظر جوابك » . الى غير ذلك من الكلام الدالّ على ان حكم
البابا هو الحكم الذي يستند اليه المؤرخ الشهير اكثر من سائر
الاحكام

وفي القرن السادس ، نشاهد رئيس احد اديرة القسطنطينية
يرفع دعواه الى البابا غريغوريوس على بطريك القسطنطينية
فينقض البابا حكم البطريك ويبرّر رئيس الدير
لا بل نشاهد فوتيوس نفسه في سنة ٨٥٢ يكتب رسالة
للبابا نيقولاوس الاول ، يلتمس بها منه ان يثبت انتخابه للكرسي
البطريكي القسطنطيني . الا ان البابا بعد ان اطّلع على كيفية
هذا الانتخاب وظروفه اعلن بسلطانه الاعلى بطلانه ، وأيد
اغناطيوس البطريك الشرعي . وكان ما كان بعد ذلك من
تمرد فوتيوس لعدم مجازاة البابا له في مطامعه الشاذّة ، وتناسي
سابق اقراره له بالسلطة العليا ، والتجاءه اليه طامعاً ان يقرّه على
الكرسي البطريكي المغتصب . فكان ذلك بدء عهد انفصال
الكنيسة الشرقية

ويحذر بنا ايضاً ان نذكر علاقات الشرق بالغرب فيما يسمى

« رسائل الشركة ». اذ كان بطريرك جديد يرسل الى سائر البطارقة رسالة تنبيء بتنصيبه، فيبعثون إليه برسالة الاخاء دليلاً على قبولهم إياه في شركتهم، اما الحبر الاعظم فكانوا يوفدون اليه وفداً خاصاً يحمل اليه نتيجة انتخاب وتنصيب البطريرك الجديد ويلتمس تثيسته بصفة كونه اول البطارقة ورأس الكنيسة (في سبيل الاتحاد ص ٨٤)

وانا نقف عند هذا الحد من الشواهد التي تثبت جلياً ان اساقفةً امتازوا بعلمهم وقداستهم، وهم ممن تفتخر بهم كنيسةنا الشرقية، قد استأنفوا حكم الاساقفة الشرقيين والكراسي البطريركية الى كرسي السلطة العظمى في روما، حيث سلطة القديس بطرس نائب السيد المسيح على الارض . فان كان ذلك لا يكفي في نظر البعض للدلالة على رئاسة كرسي روما على الكنيسة بأسرها، فليطلبوا غير نور الشمس دليلاً على وجود النهار ولنا في المجامع المسكونية برهان آخر ساطع على رئاسة البابا . ان المجمع المسكوني عبارة عن اجتماع جميع الاساقفة الذين يمثلون كنيسة المسيح ويرعونها، وهم يمثلون الكنيسة اكثر مما يمثل الامة مجلسا الشيوخ والاعيان في المملكة

وقد انعقد الى عصرنا هذا ١٩ مجمعا مسكونياً، ١١ منها وهي الاخيرة في الغرب، والثمانية الاولى في الشرق . ولا حاجة الى ذكر اعتراف المجامع الغربية بسلطة الحبر الاعظم، فذلك يقر به الجميع . ولكني اذكر بوجيز الكلام ما كانت سلطة الحبر

الاعظم في الجامع الثمانية الشرقية . فالجمع الاول انعقد في نيقية سنة ٣٢٥ ، والثاني في القسطنطينية سنة ٣٨١ ، والثالث في افسس سنة ٤٣١ ، والرابع في خلكيديونيا سنة ٤٥١ ، والخامس في القسطنطينية سنة ٥٥٣ ، والسادس في القسطنطينية سنة ٦٨٠ ، والسابع في نيقية سنة ٧٨٧ ، والثامن في القسطنطينية سنة ٨٦٩

فاساقفة روما هم الذين عقدوا هذه المجامع كلها او على الاقل وافقوا على عقدها . وقد رأس مندوبوهم هذه المجامع من غير مقاومة ولا اعتراض . وهي على كل حال لم يُعرف لها سلطة في الكنيسة ولم تصر احكامها نافذة الا بعد ان وقعوا بسلطتهم على بنودها . وقد اثبت التاريخ انعقاد بعض مجامع حاول عاقدها ان يجعلوها مسكونية - كما حدث في فترة انعقاد الجمع الافسي من انصار نسطوريوس - الا انها ، برغم اجماع الاساقفة فيها على ما قرروه ، لم تعترف بها الكنيسة ، لا الغربية ولا الشرقية ، وذلك لعدم تثبيت البابا اياها بسلطانه الاعلى

أليس ذلك برهاناً ساطعاً على الرئاسة البابوية العليا في الكنيسة ؟ فالبابا هو الذي يعقد الجمع ويرأسه ويصدق عليه ، وليس ذلك من باب المجاملة لكن بسلطة حقيقية يقر بها الجميع . لان الذي يعقد الاجتماعات ويرأسها ولا يكون لها سلطة الا بعد تصديقه اياها هو الذي تكون له السلطة العليا على كل ذي سلطة سواء ولا حاجة بعد ذلك ان نذكر اقوال آباء الكنيسة بعد ما ذكرنا افعالهم ، فالفعل افصح من القول . الا اننا نكتفي بشهادة

واحدة ترتقي الى القرن الثاني لقدم عهدها، ولما في فحواها من البراهين الساطعة. ان القديس ايريناوس الشهير الجامع بين تعاليم الكنائس الشرقية والغربية إذ كان شرقياً وأسقفاً على ليون كتب ما يلي :

« يطول بنا ان نورد قائمة جميع الاساقفة الذين تعاقبوا في كل الكنائس، فنكتفي بكنيسة روما اعظم الكنائس وأقدمها واشهرها التي اسسها الرسولان العظيمان بطرس وبولس، وعلماهما التعليم الذي بشرت به العالم بأسره، وقد تعاقب اساقفتها الى هذا العهد. فهذا وحده كافٍ لان ينجل كل الذين يتعدون عن الحقيقة بسبب الكبرياء او المجد الباطل او العمی او المقاصد الذميمة. الى هذه الكنيسة يجب ان تلتجئ باقي الكنائس اعني مؤمني البلدان كلها. لان الرسل الذين أسسوها وعلموها سلّموا ادارتها الى لينوس، وقد خلف لينوس انا كليتوس فأكليمندوس فافاريستوس فالاسكندر فسكستس فالكسندروس وهيجين وبيوس وكليستوس وسوتيروس الذي خلف انيكيستوس والفتيريوس هو الثاني عشر الذي يدير شؤون الكنيسة »

فهل من شهادة أوضح من هذه للدلالة على سلطة كرسي روما في الاجيال الاولى ؟ وامثال هذه الشهادات كثيرة في القرون العشرة الاولى، يطول بنا ذكرها لكثرتها. لذلك نرى اسم البابا مطبوعاً بحروف لا تمحى في كل صفحة من صفحات

(1) Advers. Hæres. Lib. III. c. 3

التاريخ . فالخبر الاعظم هو المعروف دائماً انه القائد الاعظم لجيش الكنيسة، وهو الراعي الصالح الذي يهتم بالنعاج والخراف، وهو الحافظ لوديعة الايمان ولنظام الكنيسة العام من الفساد والاختلال . كان مطارنة الشرق مثلاً اذا شعروا باضطهاد من قبل البطارقة والملوك التجأوا الى كرسي روما التجاء السفينة الى ميناء الخلاص . فيحامي عن المظلوم البريء ويحمي النظام من عبث القوى . ثم اننا اذا استفتينا آباء الكنيسة رأيناهم جميعهم يوقرون الخبر الاعظم، ويعدّون قوله القول الفاصل في الجدل قائلين : « ان بطرس تكلم بفم اسقف روما » . لذلك نرى الاحبار الاعظمين في كل زمان يتولّون حماية الكنيسة كلها من الضلال وفساد التعليم . فلا يكاد يظهر تعليم منافٍ للدين والآداب في اي قطر او شعب كان من اقطار وشعوب المسكونة، حتى ينادي البابا بالتعليم الصحيح، ويعمد عند اقتضاء الحال الى سلطانه الاعلى ليقطع العضو الفاسد، كائناً من كان ولو اسقفاً ولو بطريركاً . كان الخبر الاعظم السند الاعظم في بيعة الدياميس في ايام الاضطهاد . واسقف روما هو اول من قطف ثمار انتصار قسطنطين وقام مقام القياصرة في روما . هو الذي مدّن الامم الاوروبية بواسطة الرسل الذين بثهم في كل انحاء اوروبا . هو الذي جيش الجيوش الصليبية للمحاربة عن القبر المقدس . هو الذي نشط العلوم والفنون حتى جعل الفاتيكان وكنيسة القديس بطرس من عجائب الدهر . هو المغيث لكل ملهوف في الكوارث

والمملات . وقد رأيناه في هذه الحروب الكونية الاخيرة يخفف على قدر الامكان وطأة المصائب والويلات ويهتّم بالجرحي وبالاسرى، فاقرب له حتى غير المسيحيين بالفضل العميم على البشرية، حتى ان المسلمين انفسهم اقاموا له تمثالاً في الاستانة ناطقاً بفضله ومحبته الشاملة للجميع . وهو الذي في هذه الايام يغيث على السواء منكوبي المسكوب ومنكوبي الارمن ومنكوبي الاروام في ازмир . وهو الذي يسمي نفسه عبد عبيد المسيح، مردّداً مع القديس بولس « من يضعف ولا اضعف انا، او من يشكك ولا احترق انا » . هو مرجع وعماد الوحدة في العقائد المسيحية، حتى اصبح من المؤلف ترديد قول القديس اغوستينوس في هذا المعنى : « تكلمت روما فحُسم الخلاف » . هو الواقف بالمرصاد لمقاومة تيار الفساد في العالم ومحاربة الرذائل والعوائد الذميمة . فسلطة الحبر الاعظم كانت ولا تزال اكبر سلطة ادبية على وجه الارض، حتى ان اعظم الملوك، ومنهم من ليسوا مدعين لسلطته، يفدون الى روما ليؤدوا له الاحترام والاكرام، كما ان اكثر الممالك لها من يمثلها لدى الفاتيكان

ان سلطة الحبر الاعظم ليست سلطة بشرية، والا لما ثبتت كل هذه الازمان برغم كل عوامل الانحلال التي رأينا انها اجتمعت عليها . هي سلطة من قال لبطرس : « انت الصخرة » . هي

(١) ٢ كورنثس ١١ : ٢٩

(٢) متى ١٦ : ١٨

سلطة من قال له « اذا رجعت فثبت اخوتك^١ » . هي سلطة من قال له : « ارعَ خرافي - ارعَ نعاجي^٢ » . هي سلطة من قال للكنيسة جمعاء : « انا معكم كل الايام والى منتهى الدهر^٣ » « ثقوا فقد غلبت العالم^٤ »

ان اكبر داء في بلادنا بين المسيحيين هو التفرق . نرى الجميع يريدون الاتحاد ويرددون هذه الامنية بصوت واحد ، الا انهم لا يتخذون الوسائل للحصول عليه . فالسيد المسيح لم يعط وسيلة اخرى للاتحاد سوى الصخرة التي جعلها اساساً لكنيسته . لم يضع لخرافه راعياً اعظم الا القديس بطرس . ولا يتوهمن احد ان الفوارق الاصلية الجوهرية بين الكاثوليك والكنائس المنفصلة كانت من قبيل الاختلافات الدينية في العقائد . فقد اجتمع الشرق والغرب بعد الانفصال في مجمعين مسكونيين : الاول في مجمع ليون سنة ١٢٧٤ والثاني في فلورنسا سنة ١٤٣٩ ، وتمكنوا من التفاهم والاتفاق التام في كل العقائد الدينية . الا ان الانفصال المشؤوم قد عاد فتأصل بعد ذلك لأغراض شخصية ، واسباب سياسية ، وقد زالت الان هذه الاسباب بجمليتها . فلنتمسك اذاً بالصخرة التي وضعها السيد المسيح اساساً لكنيسته ، ولنلتجئ

(١) لوقا ٢٢ : ٢٣

(٢) يوحنا ٢١ : ١٥ - ١٧

(٣) متى ٢٨ : ٢٠

(٤) يوحنا ١٦ : ٣٣

الى الذي تسلم مفاتيح ملكوت السموات، ولنسمع صوت الراعي الكبير لنكون من رعية المسيح . ولنسج الى الاتحاد بالصلاة : بان نصلي كل يوم لاجل اخوتنا المنفصلين، ذاكرين رغبة السيد المسيح الحارة في صلاته : « ايها الاب احفظ باسمك الذين اعطيتهم لي ليكونوا واحداً كما نحن واحد » . لنسج الى الاتحاد بالمحبة، بان نعامل اخوتنا المنفصلين معاملة الاخوة، مريدين لهم الخير الذي نريده لنفوسنا، ومقدمين له من الامثال الصالحة ما يساعدهم على الانضمام اليها . حينئذ تتم رغبة السيد المسيح في ان « تكون رعية واحدة لراع واحد » امين



(١) يوحنا ١٧ : ١١

(٢) يوحنا ١٠ : ١٦

الكنيسة والرسول

بعد ان عرفنا الكنيسة الحقيقية ونظامها وادارتها، يحسن بنا ان نرى كيف اُتمت على توالي الاجيال عمل السيد المسيح، وكيف بقي هو معها ونصرها على قوات الجحيم . ولنرَ بادئُ بدء، كيف بقي السيد المسيح مع رسله وكيف نصرهم على قوات الجحيم ان لنا في كيفية انتشار الديانة المسيحية على يد الرسل دلالة واضحة على ان قدرة السيد المسيح بقيت مع كنيسته، كما ان لنا في سيرة الرسل اعجوبة باهرة دالة على الوهية السيد المسيح . فماذا كان الرسل قبل حلول الروح القدس، وماذا صاروا بقوة الروح القدس ؟ ان اخضاعهم العالم لحكم السيد المسيح بدون قوة بشرية، وبرغم مقاومات ارباب السلطة، هو من اعظم العجائب

قد عهد السيد المسيح الى رسله في مطالب تفوق طاقتهم، ولم يستعمل لنيلها وسيلة بشرية . بل قامت قدرته مقام الوسائل البشرية وظهرت قوته الالهية . اراد من الرسل ان يذهبوا ويبشروا في العالم بأسره، واوجب ان يطيعهم العالم « اذهبوا وبشروا كل الامم'... من سمع منكم فقد سمع مني^٢ »

(١) متى ٢٨ : ١٩

(٢) لوقا ١٠ : ١٦

ولكي نفهم صعوبة هذا الطلب يجب ان لا نكتفي بالنظر الى الديانة المسيحية في وقتنا الحاضر، حيث نراها منتشرة في العالم بأسره، واهمّ الممالك والشعوب تدين بها، واعظم العلماء يفاخرون بانتمائهم اليها. ولكي نفهم مشقة الرسل في ما اقدموا عليه يجب ان لا نبني حكمنا على ما نراه في جيلنا العشرين هذا، ونحن فيه نجني ثمار تعاليم الكنيسة المنتشرة، ونتمتع بمنافع فضائلها التي عاجلت امراض الانسانية وجراحاتها خلال عشرين قرناً متوالية. بل يجب ان نتمثل الديانة المسيحية كما كانت عليه في عصر السيد المسيح، بعد ان مات مصلوباً مردولاً من الجميع، اذ كان الصليب شكاً لليهود ورذالةً عند الامم

فالسيد المسيح امر رسله بان يذهبوا الى العالم بأسره، وامرهم بان يبتدثوا باليهود صالبيه انفسهم، وان يهدّوا اركان آلهة ذلك العصر التي عبدها آباء الامم واجدادهم، وان يحملوا القياصرة والحكام والعلماء والشعب الروماني المتكبر على عبادة اله مصلوب، معلنين انتصاره على الموت وقيامته من بين الاموات وصعوده الى السماء. طلب منهم ان يبشروا بتعليم 'مفعّم' بالاسرار الغامضة التي لا يدركها عقل، وان يبشروا باله واحد في ثلاثة اقانيم، باله متجسد، باله مصلوب، باله مكنون تحت اشكال الخبز والحمز. طلب منهم ان يوجبوا على الناس ان يتواضعوا ويدوسوا الطبيعة الفاسدة المحبولة بالكبرياء، والمعجونة بحب الارض والطمع في المال والتمرغ في حمأة الرذائل والفساد. طلب منهم ان

يأمروا العالم بان يمتنعوا عن الطلاق وتعدد الزوجات، ويمارسوا العفة الى حد الامتناع عن النظر الى امرأة بنية فاسدة . طلب منهم ان يأمروا الناس بحب اعدائهم والاحسان الى مبغضيههم واي وسائل اتخذ السيد المسيح ليصل الى هذه الغاية السامية والفائقة الطبيعة ؟ انه اتخذ أضعف الوسائل للبلوغ الى اسمى الغايات . انتخب اثني عشر رجلاً من الصيادين جمعهم من حوالي بحيرة طبرية، اثني عشر رجلاً اميين لا يعرف اكثرهم القراءة والكتابة، اثني عشر فقيراً يعيشون من صيدهم ويتعبون في اصلاح شباكهم الممزقة، اثني عشر رجلاً من الجبناء يخاف زعيمهم من صوت امرأة فيحلف في ساعة الخطر انه لا يعرف معلمه، ويهربون كلهم عند وقوع معلمهم بين أيدي أعدائه

فتى كان العالم ياترى يجب الفقر ويحترم الضعف ويعجب بالجهل ليميل الى هؤلاء الفقراء الضعفاء الاميين الذين يدعون الناس الى كل ما يضاد الاهواء البشرية ؟ أمرهم السيد المسيح قائلاً : اذهبوا وبشروا العالم - ان العالم يجب المال الى درجة العبادة، ويحترم المتمولين فوق احترامه للخالق . فالسيد المسيح يقول لهم : « لا تأخذوا شيئاً في مناطقكم ولا تحملوا ذهباً ولا فضة »

ان العالم يطيع القوة . فاذا ارادت دولة ان تسطو على غيرها

جيشت الجيوش وحشدت وأعدت للقتال عداته في البر والبحر والهواء، من مدافع ودبابات مسلحة ودوارع وغواصات ومناطيد وغازات سامة وكل ما يساعد على التقتيل والتدمير، لتلقي الرعب في القلوب . فإذا كان العالم يطيع القوة الغاشمة فالسيد المسيح يقول لرسله : اذهبوا انتم عزلاً، وليكن سلاحكم الصليب «ها انا مرسلكم كالخراف بين الذئاب»

ان العالم يميل الى الفلسفة والعلم لكن السيد المسيح يقول لرسله : اذهبوا وبشروا بالانجيل ولا تهتموا اذا ما اضطهدوكم واقاموكم امام الولاة والملوك، ولا تهتموا ماذا تقولون وبماذا تجيبون فان الروح القدس يلقنكم اذ ذاك ما تفحمون به اعداءكم . . . والى اين ارسلهم؟ والى من؟ ومن ياترى يسمع لهم ويطيعهم، وهم على ما هم عليه من الفقر والضعف وبجانبه الحكمة البشرية في التبشير بالمسيح مصلوباً . ستذهبون وتنجحون «وتكونون لي شهوداً في اليهودية والسامرة والى اقصى الارض» . «واذا لم يسمعوا لكم فلا تنتقموا منهم، بل حسبكم ان تنفضوا غبار ارجلكم شهادة عليهم . وانا اتولى الدفاع عنكم والقضاء عليهم . الحق اقول لكم ان سادوم وعمورة اخف حساباً يوم الدين» اطاع الرسل امر معلمهم فذهبوا وبشروا، وفتحوا العالم لا

(١) متى ١٠ : ١٦

(٢) اعمال ١ : ٨

(٣) متى ١٠ : ١٤ و ١٥

بدم سفكوه، اللهم ألا بدمائهم هم انفسهم سُفكت بفعل الظالمين المضطهدين، فكانت منهم اذكى شهادة لحقيقة ما كانوا يبشرون به . ولم يمضِ القرن الاول ويتوارى الرسل من هذا العالم حتى كان الايمان المسيحي قد انتشر في العالم المعروف آنئذ، حتى حق للقديس بولس ان يكتب للرومانيين المسيحيين « اشكر الله ان ايمانكم بُشِّر به في العالم كله »

اطاع الرسل امر معلمهم فتحول عقلمهم المظلم الى نور، وادارتهم الضعيفة الى قوة، واصبحت فتوحات كل منهم لنشر مملكة المسيح اهم من فتوحات الاسكندر والقيصر . وما سر هذا الانقلاب في الرسل وهذا النجاح في عملهم ؟ حلّ الروح القدس عليهم فنالوا قوة الله وأناروا العقول وأخضعوا القلوب وقلبوا وجه البسيطة . ان تأريخ الرسل هو تأريخ العجائب

رمى زعيمهم الصياد شبكته لأول مرة بعد حلول الروح القدس على ثلاثة آلاف نفس للمسيح آمنت به إلهاً بعد ان شهدته مهاناً مصلوباً . والقاهها مرة ثانية بعد ايام قليلة فاصطاد خمسة آلاف نفس اخرى . ثم طمحت نفس هذا الصياد الضعيف الى ما كان يروّع الجبابرة حتى التفكر به، فاختر روما القياصرة عاصمة العالم الروماني سيدة الارض في ذلك العصر، وارادها عاصمة العالم المسيحي، وان يحلّ فيها عرشه محل عرش القياصرة

انفسهم . فبعد ان بشر بالايان في انطاكية، وكان اول اسقف عليها، ذهب الى روما سنة ٤٢، فبشر بالايان في عاصمة العلم والعظمة والجاه والوثنية . ثم رجع يتفقد احوال اورشليم فالتقى الملك أغريبا في السجن سنة ٤٤ . الا ان الله انقذه باعجوبة اذ اخرجته ملاك من السجن . ثم رأس المجمع المنعقد في هذه المدينة وحسم الخلاف القائم على علاقة الوثنيين المرتدين الى الايمان المسيحي بعوائد اليهود وشريعة موسى

ثم رجع الى روما وكتب للمسيحيين المنتشرين في العالم الرسائل النفيسة . وما زال يبشر بالايان بالمسيح، حتى اخذ مع القديس بولس شيخ العرافين والسحرة سمعان الساحر . واخيراً مات شهيداً كعلمه الالهي معلقاً على الصليب في اليوم الذي قطع فيه رأس القديس بولس اعني ٢٩ يونيو سنة ٦٧ . الا ان يد الله كانت مع كنيسته، فلم يُغن عن القياصرة فتيلاً ان قتلوا بطرس، وما رد عنهم وعن سلطانهم وعروشهم ان غيَّبوه، فان بطرس بقي حياً بخلفائه . وما اراده من ذلك عرش القياصرة . قد كان . وها ان روما القياصرة قد اصبحت روما الباباوات تنبعث منها انوار الحقيقة الى العالم باجمعه بعد ان كانت مباءة الجهل الديني ومنبعث الفساد

ولا نفصل ذكر القديس بطرس عن ذكر من شاركه في عناء التبشير واستشهد معه، وهو القديس بولس أحد آيات السيد المسيح في رسله . فان هذا الرسول العظيم الذي ولد في طرسوس

كان في اول عهده اكبر عدو للدين المسيحي، وكان شاهداً لرجم القديس استفانوس اول الشهداء، لكن الله اعدّه ليحول بغضه الى حب . فصرعه على طريق دمشق وهو ذاهب اليها ليضطهد المؤمنين بالسيد المسيح، فاعمى بصره وفتح عيني ذهنه وقلبه وجعله يؤمن في الحال، وارسله الى القديس حنانيا احد التلامذة فعمّده وارجع اليه بصره . فبدأ القديس بولس يبشر بالايان بالمسيح في حوران مدة ثلاث سنين ثم رجع الى دمشق، وواصل التبشير . فاضطره بغض اليهود الى ان يختفي ويهرب الى اورشليم، حيث واجه بطرس زعيم الرسل

ثم ذهب الى طرسوس وطنه لبشر بالايان . ومن هناك رافق برنابا الى انطاكية فجمع منها الحسنات الى اورشليم . وفي هذه المدة سيم اسقفاً وبدأ رحلاته الرسولية الشهيرة

ففي اول رحلة ذهب الى قبرس ثم الى شواطئ آسيا الصغرى ثم رجع بعد ان طاف تلك البلاد الى انطاكية سوريا، وفي السنة الحادية والخمسين حضر مجمع اورشليم

وفي رحلة ثانية طاف في آسيا الصغرى ومقدونيا وآثينا . ولما افترق عن برنابا رافقه سيلا وتيموثاوس ولوقا

وفي رحلة ثالثة دامت من سنة ٥٦ الى ٥٩ زار كنائس غلاطية وفرنيجيا ومكث في افسس مدة . فاضطهده فيها، فذهب الى مقدونيا والى كورنتيا وارسى في طرواده . وعند رجوعه استدعى كهنة افسس، والقى عليهم ذاك الخطاب البليغ الشهير

الذي اسال فيه الدموع . وبعد ان وصل الى اورشليم في عيد
 الغنصرة اوقفه اليهود في الهيكل ثم اسروه وارسلوه الى قيصرية
 فلسطين . وهناك استأنف الحكم الى روما سنة ٦٠ فأقام فيها
 سنتين . وقبل استشهاده بثلاث سنين رجع الى الشرق وعرج
 في طريقه على اسبانيا . ثم رجع الى روما فاعتقله نيرون مع
 القديس بطرس ، وتم استشهاده بقطع الرأس في ٢٩ يونيو سنة ٦٧
 فهذا الرسول العظيم بلغت الينا كتاباته اكثر من غيره .
 وقد حق للقديس يوحنا فم الذهب ان يقول عنه : « ان قلب
 بولس هو قلب المسيح » . ذاك الرسول الذي كان مُغرماً بالسيد
 المسيح الى حدّ انه كان يضطرم غيرة ويجتهد في ان يكسب له
 العالم بأسره ، قد طاف في الشرق والغرب ثلاث مرار ، واسس
 كنائس عديدة في كل الاماكن التي طاف فيها

هذا الشغف منه بيسوع جعله يتمنى لو يكون مبعلاً اي
 محروماً ما خصه به السيد المسيح من الامتيازات والمواهب
 الاستثنائية والتعزيات الفائقة الوصف ، لو كانت هذه التضحية
 منه تؤول الى هداية اسرائيل الى المسيح : « الحق اقول لا
 اكذب ان لي في قلبي وجعاً لا ينقطع . ولقد وددت لو اكون
 انا نفسي مبعلاً من اجل اخوتي ذوي قرابتي بحسب الجسد »
 حبّ المسيح جعله يشاق الموت ليكون معه كما كان يهتف :

« ان لي رغبة ان انحل لاكون مع المسيح » . هذا الحب جعله يقول : « من يفصلني عن حب المسيح ؟ أجوع أم عري أم موت أم اضطهاد » . هذا الحب أهله ان يصعد الى السماء الثالثة فاختطف وسمع ما لا يحل لانسان الا لسكان السماء . هذا الحب جعله يحتمل كل انواع الاعذبة : الجلد والجوع والعري والحبس والسهر والوقوع في عمق البحر والمشقات والاختار في الاسفار براً وبحراً، وما ادراككم ما كانت الاسفار في تلك الايام (٢ كورنثس ١١)

ان حياة القديس بولس، على ما تقدم وصفه، تصور لنا ما كانت عليه حياة باقي الرسل . فانهم جميعهم قد عانوا مثل ما عانى، وان يكن قد امتاز عنهم بشدة ما قاساه . فهم جميعاً قد غاروا للرب، وتركوا لاجله كل شيء، وطافوا البلدان والممالك، وقاسوا الاضطهاد والعذاب في سبيل تبشيرهم بالمسيح . اسسوا الكنائس، ونظموا جماعات المؤمنين، وعلموهم تعاليم الخلاص كما كانوا قد تلقنوها من فم سيدهم المعلم الالهي، وكلهم سفكوا دمائهم شهادة لايمانهم

فالقديس اندراوس بشر بالايمان شمالي آسيا الصغرى وصلب في بتراس في اخاثيا

(١) فيلبي ١ : ٢٣

(٢) رومية ٨ : ٣٥

(٣) ٢ كورنثس ١٢ : ٤

والقديس يعقوب الكبير قطع راسه الملك أغريبا سنة ٤٤،
والتقليد الذي يرتقي الى القرون الاولى، يذكر انه كان قد
سافر الى اسبانيا بعد استشهاد القديس استفانوس

والقديس يوحنا الحبيب بشر خاصة في اسيا الصغرى، واستقر
في افسس، ومنها أخذ الى روما حيث حكم عليه دوميسيانوس
ان يُلقى في قدر زيت حار يغلي. الا انه باعجوبة خرج من القدر
سالمًا. فنفاه المضطهد الى جزيرة بطمس، حيث كتب رؤياه
السماوية. وبعد موت دوميسيانوس رجع الى افسس حيث كتب
انجيله. وكان له من العمر نحو ٩٧ سنة فمات طاعناً في السن

والقديس توما الذي كان قد تردد حيناً في تصديق رواية
رفاقه عن قيامة المسيح، واشترط ان يتحقق الامر بروية آثار
المسامير، وبوضع يده في محل الطعنة من جنب سيده، بشر بالايمان
في الحبشة والعجم والهند ومات فيها مطعوناً بحربة

والقديس يعقوب الصغير كان اسقفاً على اورشليم حيث
ظهرت آثار غيرته المتوقدة واستشهد سنة ٦٢

والقديس فيلبس بشر بالانجيل في فريجيا، ومات مصلوباً في
ايرابوليس وهي منبج. والقديس برثلماوس بشر بالانجيل في الهند،
ومات اهل هول ميته مقاسياً عذاب سلخ جلده حياً

والقديس متياس، بعد ان بشر بكلمة الرب في اليهودية،
ذهب الى الحبشة واستشهد فيها. كما استشهد فيها ايضاً القديس
متى الانجيلي فختم بدمه الانجيل الذي كتبه

والقديس سمعان، بعد ان بشر بالايان في مصر، توغل على ما يقال حتى الى بريطانيا العظمى، ثم اشترك مع القديس يهوذا واستشهد معه في ارمينيا

فترون مما تقدم ان الرسل قد ماتوا كلهم شهداء؛ وقد تحول جهلهم الى نور، وضعف عزيمتهم الى قوة، واصبحوا لا يبالون بالموت في سبيل التبشير باسم الرب يسوع، نشروا الديانة المسيحية في العالم برغم ما كانوا يعانون من مشقة الاسفار وبرغم عدم اعتمادهم على شي من الوسائل البشرية. مما يحسبه الناس ضرورياً لضمانة النجاح. فهم لم يكن معهم سلاح ولا مال، ولا استعملوا السياسة والدهاء، ولا كان في تعليمهم ما يرضي الالهواء البشرية. نشروا الديانة المسيحية وسلاحهم الضعف، على خلاف ما ألف الناس من جعل الحق للقوة. نشروا الديانة المسيحية فاضعوا لها الامم، وقوتهم الفقر على خلاف ما يرى عباد المال من حق السيطرة للذهب والفضة. وقصارى الكلام قد اقتحموا العالم بضعفهم وفقرهم وسذاجتهم. «فسبوا كل بصيرة لطاعة المسيح» وتحقق بهم ما كانوا هم انفسهم يجاهرون به عن انفسهم: «ان الله قد اختار الجهال من العالم ليخزي الحكماء والضعيف من العالم ليخزي القوي». هذا هو عملهم العظيم، وانها لا عجوبة تتجلى بها قوة الله باوضح مما يكون في توقيف الشمس عن

(١) ٢ كو ١٠ : ٥

(٢) ١ كورنثس ١ : ٢٧

سيرها، وبعث الموتى من قبورها، اعجوبة تعمل في العالم عملها منذ نحو ألفي سنة، عملاً مطّرداً متواصلاً. فكأن بطرس وبولس وسائر الرسل قد تجسّموا في خلفائهم، ولا يزالون « يهدمون الحصون المنيعة » من اهواء واميال الطبيعة الفاسدة « ويسبون الضمائر » بالحب للمسيح

انتصر الرسل اذاً لا بالسيف ولا بالدهاء، ولا بالعلم ولا بالمال، ولا بالحكمة البشرية، ولا بمالأة الاميال والشهوات . وانما هم انتصروا بقوة من كان يعطيهم ان يشفوا المرضى ويطهروا البرص ويفتحوا عيون العميان ويقىموا الموتى . انتصروا بقوة من قواهم حتى طالب لهم الموت واستسهلوا الاستشهاد وبذل دمائهم في سبيل كلمته . فشيّدوا الكنيسة واناوا العقول بقوة من ينير الاذهان ويلين القلوب، بقوة من قال « انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر »، بقوة من قال : « ثقوا فاني قد غلبت العالم »، بقوة من قال « وابواب الجحيم لن تقوى عليها »، بقوة من « هو هو امس واليوم والى منتهى الدهر »

فما اجدنا بعد هذا ان نردّد بالفخر والاعتباط ترنيمة عيد

(١) متى ١٠ : ٨

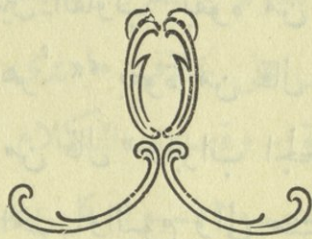
(٢) متى ٢٨ : ٢٠

(٣) يوحنا ١٦ : ٣٣

(٤) متى ١٦ : ١٨

(٥) عبرانيين ١٣ : ٨

الغنصرة « مبارك انت ايها المسيح الهنا الذي اظهرت الصيادين
غزيري الحكمة، وسكبت عليهم الروح القدس بغزارة، وبايديهم
المسكونة جمعت، يا محب البشر المجد لك »



(١) انجيل لوقا ١١ : ١٧

(٢) ١١ : ١٧

(٣) ١١ : ١٧

(٤) ١١ : ١٧

(٥) ١١ : ١٧

انتصار الكنيسة على الضلال

تَحَقَّقَتْ مواعيد السيد المسيح لرسله بان يبقى معهم الى منتهى الدهر، فظهرت فيهم قدرته اذ تمكَّنوا من تبشير العالم دون ان يكون بين ايديهم وسيلة بشرية، لا مال ولا سلاح ولا جاه فأخضعوا العالم بقوة الصليب وقوة العجايب باسمه

وتَحَقَّقَتْ مواعيد السيد المسيح لكنيسته بان يبقى معها الى منتهى الدهر فبقي مع كنيسته في الأجيال الاولى التي قضتها في الاضطهادات، اذ ثارت عليها عشرة اضطهادات كبرى ما عدا الصغرى، حاول فيها القياصرة ملاحقتها . فسفكوا دم ما ينيف على عشرة ملايين من الشهداء، منهم الشيخ والولد والرجل والمرأة والشاب والعدراء، ممن استشهدوا لاجل المسيح بكل انواع الاعذبة : بقطع الرأس والصلب وتوتير الاعضاء، والحريق والغرق، وغيرهم ماتوا في الحبوس او فرائس السباع . الا انه كان كلما ازداد عدد الشهداء ازداد عدد المؤمنين ايضاً حتى حق لترتوليانوس ان يهتف « ان دم الشهداء زرع للمسيحيين » . وكانت نتيجة كل ذلك ان باد القياصرة وباد مضطهدو الكنيسة، والكنيسة خرجت ظافرة متألثة مجداً

تَحَقَّقَتْ مواعيد السيد المسيح بان يبقى مع كنيسته، اذ بقي معها في محاربة الكتبة الوثنيين والهرطقة الذين صوبوا سهامهم

الى كبدها بتشويه الحقائق . فغلبت المارقين من الدين، وابكمت فلاسفة الوثنيين، وحافظت على وديعة الايمان . وهذا ما نراه في هذه المحاضرة فنشاهد كيف انتصرت الكنيسة على الضلال تعلمون ما للكتابة والصحافة من القوة التي تفوق احياناً قوة السيف. تعرفون كيف يُتذرّع بها لبلوغ اعظم الامور : فاذا ارادت دولة مثلاً ان تشهر الحرب على دولة اخرى عمدت الى اثاره الراي العام، لتنال به ما تريد . واذا كان ميعاد الانتخابات للمجالس النيابية وامثالها عمد طلاب النجاح فيها الى قوة الصحافة توسلاً لآرئهم . تلك كانت الخطة في كل عصر ومصر، على قدر ما كان يتسنى من وسائل النشر والدعاية . وهذا ما فعله الكتبة الوثنيون في العصر الاولي اذ أصلوا الكنيسة بكتاباتهم واقوالهم حرباً عواناً

تعرفون مغزى المثل المشهور : « ان الدنيا مع الواقف » والواقفون في عهد الرسل وبدء عهد الكنيسة كانوا القياصرة الذين حاولوا ان يلاشوا الديانة المسيحية بكل وسيلة لديهم . فكانوا يحدون دائماً لديهم مئات الوفاء من المتملقين، يصورون ظلمهم عدلاً، وقساوتهم الوحشية حكمة واصالة رأي، ويشنعون على النصرانية بأقبح ما يهيج كره السامعين وغضبهم عليها . ونذر جداً من كانت سلامة طويته تدعوه الى تبرئة المسيحيين، كما فعل الحاكم المدعو بلين الصغير، اذ كتب الى تراجان قائلاً « ان المسيحيين ابرياء مما يتهمونهم به » . فأجابه تراجان : « لا

تبعوهم، ولكن اذا قدّموهم الى الحاكم فاحكموا عليهم واقتلوهم». تلك هي نعمة بيلاطس الذي كان يقول: «اني بري» من دم هذا الصديق^١، وفي الوقت نفسه حكم عليه

وبماذا كان يقاوم الكتبة الوثنيون الديانة المسيحية؟ بالا كاذيب والفري. فان فولتير لم يخترع خطة جديدة اذ كان يقول لتلاميذه «اكذبوا، اكذبوا، فلا بد ان يعلق شيء من الكذب». كان المسيحيون في نظر الكتبة الكفار سرّاً قتلة ومرتكبي كل الفواحش، لذلك كانوا ينسبون اليهم كل المصائب التي تحل بالمملكة، من جراً، فسادها او بعوامل الطبيعة. فاذا طغأ نهر قالوا ان المسيحيين هم سبب الطوفان، واذا تفشّى طاعون ردّدوا ان المسيحيين سبب انتشاره، واذا انكسرت جيوش القياصرة اشاعوا واكّدوا ان المسيحيين هم سبب الانكسار. لذلك كان الشعب يهيج خنقاً وينقضّ عليهم كالوحوش الفوارس

يفترون عليهم الا كاذيب ويحاربونهم بالهزء والسخرية، ولا تجهلون ما للهزء من التأثير العظيم على الضعفاء والبسطاء. هذا ما عمله فولتير وهذا ما كان يعملهُ أعداء المسيحيين في الاعصر الاولى كبورفيروس وشلسوس

ومع الا كاذيب والهزء اتخذوا الضغط على النفوس سلاحاً لهم. فان يوليانوس الجاحد حاول ان يُقصي المسيحيين من المدارس

ومن وظائف الحكومة، ويحرمهم كل الامتيازات التي لعامة الشعب، وذلك اصعب تأثيراً من السيف . وكان يدعو السيد المسيح « الجليلي »، كما روى عنه المؤرخون يوم وقع في احدى المعارك، فانه اخذ براحته من دمه وقذف به نحو السماء صارخاً برجز ويأس : « لقد غلبتني ايها الجليلي » . وقد اخذ عنه غيره بترديد هذه الكلمة للتحقير والسخرية . ألا ان « الجليلي » كان ينتصر دائماً ويُقنّع الهازئين به بالخزي والعار . من ذلك ان احد الكتبة المدعو ليبيانيوس قال يوماً لاحد المسيحيين مستهزئاً : ماذا يعمل الجليلي ابن النجار ؟ فاجابه المسيحي : « ان الجليلي ينجر نعشاً للوثنية »

اي نعم ان السيد المسيح قد دفن في هذا النعش الوثنية والكفار والملحدون وكل من ناواه على توالي الاجيال ظفرت الكنيسة بالقيصرة المضطهدين وبالكثبة الكافرين، وظفرت بما هو اعظم من ذلك، باعداء داخلين كانوا أشد وطأة عليها، الا وهم الهرطقة

فان الكنيسة المحافظة على وديعة الايمان لا تسمح ان تُضيع هذه الوديعة بهاؤها بالضلال، بل هي تصونها كحدقة العين، لتبقى بين يديها كما تسلمتها من المعلم الالهي . والهرطقة من الحقيقة كالزؤان من القمح، بل ان مثير الهرطقة والداعي اليها كالذئب بين الخراف، على ما وصفه القديس بولس اذ كان يتكلم مع كهنة افسس فقال : « سيدخل بينكم ذئب خاطفة لا تشفق على

القطيع . ومنكم انفسكم سيقوم رجال يتكلمون باقوال فاسدة ليجذبوا التلاميذ وراءهم' . « ولا عجب من وجود البدع في الكنيسة، فان الحقائق التي استودعها اياها مؤسسها الالهي قد عرفنا انها مما يفوق العقل البشري ، وقد حفظ الله حق تعليمها وايضاها وتفسيرها للسلطة التي اقامها في كنيسته . الا ان الشيطان ، وهو منذ البدء « قاتل الناس » كما يصفه الانجيل المقدس وهو « ابو الكذب » ، يجتهد في تشويه كل ذلك ، اما بحمل البعض ان يكتفوا بانوار العقل الطبيعية الضئيلة لفهم هذه الحقائق الالهية السامية ، واما بان ينتحلوا لنفوسهم سلطة تفسيرها وشرحها ، مستقلين في ذلك عن سلطة الكنيسة الشرعية العليا . وفي كلتا الحالتين يؤول الامر الى البدع والهرطقات والانشقاقات

وقد يُقدم البعض على ما تقدم عن كبرياء ودعاوة ، ويُقدم البعض الآخر بعامل التمرد على المنازع المقدسة التي توجبها هذه التعاليم الالهية على القلب البشري لكبح جماحه وتطهير اهوائه ، وبعضهم عن سلامة نية ولكنهم مُشبعون باوهام ماضيهم قبل اهتدائهم الى الايمان المقدس ، كاليهود والوثنيين المتنصرين في بدء عهد الكنيسة . ولا غرابة فالعقل البشري ضعيف والقلب البشري أعمى . ونحن انفسنا مع ان الدم المسيحي يجري في

(١) اعمال ٢٠ : ٢٩ و ٣٠

(٢) يوحنا ٨ : ٤٤

عروقتنا منذ اجيال، ما اكثر ما يحملنا جهلنا على الاغاليط ونحن لا ندري

ولاجل ما تقدم لاقت الحقائق الدينية كلها مصاعب جمّة لترسخ في العقول . فالبعض أنكروا وجود الله من النوفاسيين والمانويين، فقاومهم رجال فطاحل، كالقديس يوستينوس واكليمنضوس الاسكندري وترتوليانوس واوريغانوس والقديس ايريناوس والقديس كبريانوس

وانكر فريق آخر البند الثاني من قانون الايمان او شوهوه تشويهاً جوهرياً، كآريوس ونسطوريوس وأوطيخا، اذ انكر بعضهم مساواة الابن للاب بالجوهر، وعزا بعضهم الى السيد المسيح اقنومين، والبعض الآخر طبيعة واحدة، فقاومهم رجال قديرون بالقول والعمل، كالقديسين اثناسيوس وباسيليوس ويوحنا فم الذهب

هذا قليل من كثير مما حاول الشيطان القاءه من زؤان تعاليمه في الكنيسة بواسطة عماله . الا ان الكنيسة خرجت ظافرة سالمة المعتقد في كل ذلك . وكانت دائماً تضعف المبتدعين والمنشقين بتحريم تعاليمهم وبقطعهم من شركتها، لا فرق لديها في ذلك بين قوي وضعيف، وبين سيّد ومسود، وبين عالم وجاهل . وسواء كان بذكاء اريوس، او بتدين نسطوريوس، او بفصاحة ترتوليانوس او بثقافة لوتير، او بدهاء كلفين، او بقدرة الملك العظيم هنري الثامن، او بمهارة رينان . فهي تحرم الهرطوقي ولو كان سلاحه

العلم او التاج او القوة . وعلى ذلك قاومت الكنيسة العالم ،
لأجل الدفاع عن الوهية السيد المسيح ، قاومت الجزء الأكبر
من الكنيسة الشرقية للمحاربة عن رئاسة القديس بطرس ، وقاومت
المانيا لكي تحامي عن عقيدة الغفرانات وسائر ما تدرج مبتدعوها
الى انكاره او تشويهه من المعتقدات ، قاومت انكلترا لكي
تحامي عن سر الزواج

غلبت الكنيسة العدو الخارجي والعدو الداخلي على السواء ،
وانتصرت على اليهودي والوثني ، وأثبتت سيف القياصرة ، وأفحمت
قلم المتفلسفين والمهرطقة . انتصرت وانتشرت بنوع عجيب في
العالم كما هو بادٍ لكل ذي عينين

خرجت في بدء عهدا من القدس ، وملأت سوريا وآسيا
الصغرى ، وتخطت الى روما ، وامتدت الى سائر انحاء المملكة
الرومانية وجاوزتها الى غيرها من الامم والشعوب كالهند والصين
وبلاد فارس ، وذلك منذ عهد الرسل على ما مرّ شرحه . فبعد
ان اقام القديس بطرس في انطاكية سبع سنين ، انتقل الى روما
عاصمة المملكة الرومانية سنة ٤٢ ، ولما لم ينل النجاح المرغوب
فيه ، داخله بعض اليأس على ما ورد في بعض الروايات التقليدية
القديمة وهمّ ان يخرج من روما ، واذا المخلص حامل صليبه .
فسأله بطرس بحب وشغف : « الى اين يا رب ؟ » فاجابه السيد
المسيح : « اني ذاهب لأصلب مرّة ثانية » . ففهم بطرس انه
يجب عليه ان يمكث في روما ، وان يموت فيها كعلمه الالهي ،

فمكث فيها زهاء ٢٥ سنة وارتدّ بواسطته عدد كبير حتى من
اعضاء الاسرة الملكية ومن اشراف روما، كالاسرتين فلافيـا
وكورنيليا وغيرهما، حتى انتشر المسيحيون في البلاط الملكي نفسه .
ثم انتشرت النصرانية بين كل طبقات الشعب . ومما يدلّ على ذلك
ما قاله المؤرخ تاسيت سنة ٦٤ « ان عدداً كبيراً من المسيحيين قد
حكم عليهم لا بتهمة احراق المدينة، بل لكونهم اعداء الجنس
البشري » . أو ليست الدياميس في روما بتشعباتها العديدة وطول
مداهاتها تحت الارض، برهاناً ساطعاً على كثرة عدد المسيحيين فيها ؟
والقديس بولس في ثلاثة اسفار متوالية بشر بالانجيل في
العالم بأسره، وأسس كنائس في كل مكان، ووجه رسائل الى
اعظم المدن، الى كورنثس وفيلبي وكولوسي وافسس وتسالونيكيـا،
وأخبر الرومانيين المسيحيين ان ايمانهم بُشر به في العالم كله ولم
يبقَ بلد في الشرق والغرب لم تطأها اقدام الرسل

ولم يمضِ سبعون سنة بعد موت السيد المسيح حتى كتب
بلين حاكم بيتينيا على عهد الامبراطور تراجان، « ان هذه الشيعة
قد ملأت المدن والقرى والقفار »

وبعد قرن يذكر القديس يوستينوس ان عدداً كبيراً من
الامم المتوحشة ارتدوا الى الايمان . فقد تجاوزت الكنيسة في
قرن واحد الحدود الرومانية

وفي أوائل القرن الثالث كتب تروتيانوس الى القياصرة :
« نحن ابناؤنا امس وقد ملأنا مع ذلك مدنكم وقراكم وساحاتكم

ولم نترك لكم الا هياكلكم فارغة، حتى اننا لو افترقنا عنكم
لكان افتراقنا وبالاً عليكم»

وفي القرن الرابع كان استيلاء الديانة المسيحية على العالم
كاملاً، حتى انه كان في شمال افريقيا وحدها، في البلاد المعروفة
الان ببلاد تونس، ما ينيف على ٤٠٠ ابرشية

وبعد ان برهن الله القدير مدة اجيال، انه ليس بمحتاج في
نشر الديانة المسيحية الى سلطة بشرية، وبعد ان استرضى دم
الشهداء، عدل الله، شاءت جودته ورحمته ان تنال الكنيسة الانتصار
الذي استحقته بجهاد اجيال طويلة، فاقام قسطنطين الملك على
عرش العالم المسيحي وذلك بأعجوبة باهرة

فان الملك قسطنطين، لما رأى، وهو في سهول روما، قلعة
عدد جيشه ازاء جيوش مكسانس الجرارة، خاف الهزيمة والانكسار
فأخذ يبتهل الى إله امه هيلانة قائلاً: «يا إله امي ان اثلتي الظفر تبعت
ديانتك». فرأى رؤيا، وهي صورة الصليب مرسومة في اعلى
السما، وهذه الكتابة بالحرف اليوناني مؤداها «بهذه العلامة تغلب»،
فاتخذ تلك العلامة المدعوة «باللاباروم» رايةً لجيوشه. ولما
اشتبك القتال كان النصر حليف الفرقة التي هجمت براية اللاباروم
فانكسرت جيوش ماكسانس. وبلغه نبأها فخرج من روما
بجيش اعظم ايضاً. ألا ان الرعب دب في قلبه عند رؤيته تلك
الراية العجيبة، واركن الى الفرار فوقع في نهر التيبر، حيث
حاول النجاة ساجحاً ثم غرق. وبعد ان ولت جيوشه الأديبار.

دخل قسطنطين مدينة روما ظافراً واستولى على عاصمة العالم لما تم النصر لقسطنطين قام بوعده . فاصدر مرسوماً في ميلانو منح فيه الحرية للديانة المسيحية، لا بل أصبحت الحكومة تحامي عن هذه الديانة . ووهب قسطنطين للبابا قصر اللاتران، وبني في روما كنيسة الرسل، وبني في اماكن عديدة كنائس ملكية معروفة بالفاسيليقه، منها كنائس القدس وبيت لحم وجبل الزيتون التي اعتنت والدته هيلانه بانشاءها . ثم انه خص الكنيسة بمميزات عظيمة، فاعفى الكهنة من العسكرية وامر بالتعديد يوم الاحد، وجعل الراحة فيه اجبارية، والغى الحكم بعذاب الصلب احتراماً لصلب السيد المسيح، وجعل الصليب على تاجه وفي اعلى قصره

وفي الجملة ايد قسطنطين ديانة السيد المسيح، وخضع لاحكامها وعزز شرائعها، وبني في قصره معبداً، وساعد على عقد مجمع نيقيا، ووقف بين آباء المجمع ٣١٨ وقفة المحترم لآباء الكنيسة، ولم يُرد ان يجلس بينهم الا بعد ان قدم صلاة الشكر لله . ومن ذاك التاريخ بدأنا نرى اتفاق الكنيسة والحكومة، وهذا الاتفاق كان قوة العصر المتوسطة ونتج منه اعظم ثمار التمدن وقد اتم ثاوضوسينوس الكبير ما بدأ به قسطنطين الملك، فحامى عن الكنيسة مقاوماً الاربوسيين، ونظم الشرائع المدنية وجعل اساسها الشرائع الكنسية . لذلك نسمع القديس امبروسوس يرثيه عند موته ويقول : « لقد احببت هذا البطل الرحوم،

لذلك تبكيه احشائي . احببت هذا البطل ، لذلك لا تزال دموعي
وصلواتي ترتفع لكي يصعد الى جبل الرب في ارض الاحياء
الحقيقية . وكان الجميع يبكون عليه . ان المجد الذي يأتي من
الله هو المجد الحقيقي ، وأما الذي يأتي من البشر فليس بشي .
انتصرت اذاً الكنيسة مع قسطنطين وثاؤوسيسيوس ، وانتصر
معها الحق والعدل والمحبة والحرية ، وتجلت فيها تلك الوحدة
العجيبة ، اذ كان في الكنيسة كلها خمسة كراسي - كرسي روما
وانطاكية والاسكندرية واورشليم والقسطنطينية . وكانت هذه
الكراسي كلها تقرّ بالرئاسة الشرفية والفعلية لكرسي روما . وظهرت
وحدة التعليم بتأليف قانون ايمان نيقيا نفيًا لبدعة آريوس ، وهو
اشد ايضاحاً واوفى تفصيلاً من قانون الرسل . وفي ذلك الوقت
تألق طقسنا الجميل ببهائه الساطع ، واختصر القديس باسيليوس
ثم القديس يوحنا فم الذهب ليتورجية القديس يعقوب الرسول .
وألف الآباء القديسون الكتب العديدة التي نرى من آثارها ٣٠٠
مجلد ترين صدور المكاتب العصرية . وبالجمله فقد كان ذلك
العصر العصر الذهبي الذي لم نزل نهتدي بنوره في عصرنا الحاضر
فالمجد للذي وعد كنيسته بان يبقى معها ، والمجد للذي حقق
وعده ونصرها على قوات الضلال . له المجد والعزة الى الابد
امين



الكنيسة والبرابرة

رأينا إتمام وعد السيد المسيح لرسله بالبقاء معهم، ومساعدته إياهم بتأييده العلوي . وتأملنا كيف نشر الديانة المسيحية في العالم اثنا عشر صياداً ممن لا ثروة لهم ولا جاه ولا قوة ولا سلاح، واخضعوا لسلطانها بقوة الهية العالم والجاهل والمقتدر والضعيف . رأينا كيف انتصرت الكنيسة على الاضطهادات التي اثارها قوّات الجحيم اذ تأمر عليها العالم بحافل اذاليه واهوائه وشهواته المنحرفة . قاومها الشعب الذي كان يرى في الديانة المسيحية عدواً لاهوائه . ثار عليها الفيلسوف المتكبر الذي لا يريد ان يُخضع عقله للاسرار المقدسة، والقياصرة الذين رأوا في انتشارها تهديداً وضراً لسلطتهم، قاوموها بالسيف وبكلّ ضروب الاعذبة، وحاولوا ان يلاشوها من العالم . ألا انها، لا بقوة بشرية بل بقوة الهية، قد انتصرت على كل هذه الاضطهادات التي دامت ثلاثة قرون، وخرجت منها ظافرة منتشرة في العالم

رأينا الوهية الكنيسة في انتصارها، بعد ان حان الزمان لينال المسيحيون جزاء صبرهم، بظهور قوة الصليب في اعلى السماء، فظفر قسطنطين بواسطة الصليب، وكان ظفره انتصاراً للدين المسيحي وبدء عهد جديد للكنيسة اذ اصبحت الديانة الرسمية في العالم الديانة المسيحية وخضع لحكمها الكبير والصغير

وقد ظهرت ثمار التمدن المسيحي في القرن الرابع بأبهى مظاهرها . فسطعت انوار علوم لا يزال علماء الدين يستنيرون بها حتى ايامنا هذه، وفاح اريج قداسة لا يزال نستنشق عبيرها، وبلغ التمدن المسيحي أَوْجَهُ في ايام ثاودوسيوس الكبير الذي اخضع لحكمه العالم المتمدن بأسره

إلا ان الضلال والفساد لم يزالا يسريان في عروق المملكة الرومانية حتى هرمت وتداعت، ولم يبق امامها الا السقوط والاضمحلال، فان الاحزاب قطعت اوصالها، وضلال الاوثان غشى على عقولها، والفساد اضعف عزيمتها وهدّ قواها، ومن المعلوم انه لا سهل ان تغرس نبتة جديدة فتنمو باعتدال ونشاط، من ان تجدد شجرة قد نخرها السوس واكلها الدود

واذ ازفت ساعة اضمحلال المملكة الرومانية في الغرب، بعث الله عليها صاعقة غضبه بواسطة طوائف من البرابرة اجتاحوا اوروبا، فردوا تمدنها همجية وعمارها خراباً ونورها ظلاماً

هبت تلك العاصفة في اوائل القرن الخامس سنة ٤٢٠، فزعزعت اساس اوروبا الاجتماعي وهدّت اركانها، حتى سمعنا القديس ايرونيμος، وهو في عزلة بيت لحم في كهفه العميق يقول : « ان المملكة تتدهور الى الخراب »

هبت من رنجاد آسيا الصغرى شعوب هاجت كالبحر المتلاطم، ووصل سيلها الجارف الى سهول اوروبا، واخذوا يضربون على ابوابها كما يضرب السياف ابواب المحكوم عليه . أتوا كالجراد،

فكان العمار امامهم والخراب وراءهم، حتى لا ينبت عشب حيث تطأ اقدامهم. وقد تقاسموا عمل الخراب في اوروبا، فهجم السلاف على روسيا، والجرمان على الدانوب، والانجلو ساكسون على بريطانيا، والفرنجة على غاليا، والفيسيغوط على اسبانيا، والفانдал على قرطاجة، فكان عملهم عمل السيل الجارف الذي يقتلع الاشجار، ويحتاج الحصاد ويهدم البيوت، ولا يدع في ممره الا آثار الخراب والدمار. ومن امثلة الخراب الذي احدثوه، قرطاجة وما جاورها: فقد كان هناك اكثر من ٤٠٠ ابرشية مسيحية، فأصبحت الان كلها أثراً بعد عين

توغل البرابرة في البلاد وخرّبوا و كأنّ يداً إلهية كانت تدفعهم الى التدمير حتى كان يقول قائلهم: «دعني فان قوة اقوى مني تدفعني الى التخریب»، وكان اتيلا يقول: «انا صاعقة غضب الله». فكما ظهرت لبشاصريد كتبت في اعلى الحائط: «منا تقل وفرسين» اي أحصي ملكك فوجد ناقصاً وهو يدفع الى فارس، وكما انه قبل تدمير تيطس لأورشليم كان رجل غريب الاطوار يصرخ: الويل لأورشليم، الويل للهيكل، حتى خربت اورشليم وخرّب الهيكل، هكذا كانت قوة تدفع اولئك البرابرة الى تخریب اوروبا

ولكن ماذا كان عمل الكنيسة امام هذا الهجوم؟ قد كان

عملها عمل المهندس الحكيم، يحول السيل الى مجرى النهر فيتحول بذلك الى اداة نفع وخصب في البلاد التي يمر فيها

اجل جعلت الكنيسة لسيل البرابرة حدوداً على مثال ما يحدثه المهندسون لنهر طاغٍ يخزنون مياهه لاوقات معلومة، ويقىمون له سدوداً وقناطر خيرية وينظمون سيله طبقاً لمنفعة البلاد فيوزع الخصب حيثما تقرر مياهه، وينبت الزرع وتبسق الاشجار، وتقوم على جوانبه المدن والقرى وتستخدم شلالاته للإنارة الشوارع والمساكن وادارة المعامل والمطاحن، فتتحول البلاد به الى هناء من العيش ووفرة من الثروة . هكذا كان عمل الكنيسة في البرابرة من الوجهة الادبية والاجتماعية . فانها اذ لم تقدر ان تحول دون سقوط المملكة الرومانية، حوت عنيتها نحو هؤلاء البرابرة لتمنع ما امكنها من تعميم التخريب، فأنارت عقولهم بأنوار العلوم، اذ فتحت لهم المدارس، وهذبت اخلاقهم الشرسة، فحظرت عليهم الحروب في ايام معلومة . وثقفت اميالهم اذ منعتهم من الطلاق وتعدد الزوجات، وعلمتهم الحلم بدل ما كانوا عليه من الغضب، والتواضع بدل الكبرياء، والطهارة بدل الفساد، وهكذا روضت ذاك الجواد الجموح

وقد بنّت الكنيسة رسلها في كل الاقطار للتبشير ولتهذيب الاخلاق، فردّت الى الايمان بلاد غاليا، التي كان ارتدادها الى الايمان نافعا للكنيسة الكاثوليكية منفعة عظيمة على توالي الاجيال فان اولئك الفرنجة، الذين هم خليط من شعبي الغالين

والرومان، بُشّر عدد منهم بالايان حتى كانت زوجة ملكهم كلوفيس المدعوة كلوتيلدا كاثوليكية . وقد ارتدت هذه المملكة الى الايمان في معركة، كما ارتدت قسطنطين ايضاً في معركة . وذلك ان كلوفيس كان يحارب الجرمان وقد بدأ جنوده يتقهقرون، فأخذ يهتف « يا اله كلوتيلدا اذا انت نصرتني فلا يكون لي اله سواك » . واذا بجنوده قد لموا شعثهم وضموهم شملهم، وكسروا الالمان شر كسرة . فقام كلوفيس بوعدة وتعلم الديانة المسيحية، وفي ليلة عيد الميلاد سنة ٤٩٦ عمّده اسقف ريمس القديس ريمي، وفيما هو يعمّده قال له : « طأطى هامتك ايها السيكامبري الابي النفس، اعبد ما كنت تحرقه واحرق ما كنت تعبده » . ثم مسح بالزيت المقدس ملكاً . وقد اعتمد في ذلك النهار ٣٠٠٠ جندي مع الملك، واصبح كلوفيس من المحامين عن الديانة الكاثوليكية، فكسر شوكة الاريوسيين، وحامى عن الكنيسة مدة حياته جهداً استطاعته

وبعد ان بشرت الكنيسة بلاد غاليا بالايان، واصلت فتوحاتها الدينية في انكلترا وهدتها الى الايمان المسيحي، فان البابا غريغوريوس الكبير بينما كان يتجول يوماً في اسواق روما شاهد أسرى من بلاد الانكليز عليهم جمال رائع، فقال : من هؤلاء؟ فقالوا له : « انهم أسرى من الأنجل » . فقال : ما هم « أنجل » ولكنهم أنجلي « اي ملائكة »

واذ ذاك ارسل اليهم القديس أوغسطينوس مع اربعين راهباً،

فكانت هداية الانكليز الى الايمان المسيحي عن يدهم
ثم اهتمت الكنيسة بجرمانيا فبعثت الى سكانها بالقديس
بونيفاس، فبشّرهم بالايمان المسيحي. وكان رسول روسيا العظيم
القديس متوديوس فهداهم الى الايمان بالمسيح

وقد تمكّن البابوات من دفع الخراب عن روما ثلاث مرار،
فاوقفوا جنسريك وأتيلا واودواكر، وجعلوهم يدخلون المدينة
كنعاج، بعد ان هاجموها واحاطوا بها كذئاب خاطفة

وماذا نقول عن فضل الرهبان في اوروبا؟ وهم العامل
الاكبر في انجاحها ورقيتها، اذ علّموا البرابرة زرع الاراضي،
وجفّفوا المستنقعات وجعلوها صالحة للزراعة، وهم الذين حافظوا
على كتب التمدن القديم، ومنعوا البرابرة من تمزيقها، فكان
حفظها سبباً لنهضة العلوم في القرن السادس عشر ولحركة التمدن
الحديث في عصرنا

روّضت الكنيسة تلك الوحوش الضارية، وصقلت من طباعها
الحسنة، فهي امّ التمدن لأن لا تمدّن الا بالحقيقة والفضيلة.
وقد استقت الحقيقة ممن قال لها «انا نور العالم». انا الطريق والحق
والحياة». وتعلّمت الفضيلة ممن قال لرسله «انتم ملح الارض».

(١) يوحنا ٨ : ١٢

(٢) يوحنا ١٤ : ٦

(٣) متى ٥ : ١٢

ووعدهم بأنه يساعدهم على صَوْن الحق والمحافظة على الفضيلة بقوله : « انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر »

فعلى قدر ما تبتعد الامم عن اتباع تعليم الكنيسة، تبتعد عن التمدن وتتخبط في دياجير الهمجية . وعلى قدر ما تتبع تعاليم الكنيسة وتتحلى بفضائلها، تكون متقدمة في منهج الحق وتابعة قواعد المحبة التي هي اساس كل تمدن

فعبثاً يخترع عصرنا الطيارات في الهواء والغواصات في البحر والمدافع ذات العيارات الكبيرة والدبابات تمهد امامها كل عقبة . فاذا لم يتبع تعاليم الكنيسة فهو سيفوق المتوغلين في الهمجية توحشاً . ان اساس التمدن المحبة واتباع اقوال الانجيل القائلة : ما تريده لنفسك فافعله بغيرك : « عِدِ المريض ، اطعم الجائع ، اسقِ العطشان ، اكسِ العريان ، » كل ما تفعلونه باحد اخوتي هؤلاء الصغار في فعلتموه^١ . فليس التمدن بتعدد الازياء ولا بالملابس الخلاعية ، انما التمدن ان نعطي الله حقه من العبادة والشكر ، وان نعطي كل انسان حقه من العدل : الاحترام لمن له الاحترام ، والطاعة لمن له الطاعة ، والمحبة نحو الجميع ، وان نتاجر بالوزنات التي اعطاناها الله : فنستعمل عقلنا لمعرفة الحق ، وقلبنا لحب الله وحب كل ما يقربنا اليه ، وجسدنا لخدمة من اعطانا هذه الحواس .

(١) متى ٢٨ : ٢٠

(٢) متى ٢٥ : ٤٠

واذ ذاك نعيش عيشة هنيئة بالسلام الذي يكون بداية السماء
حيث السعادة التي تفوق كل ما تتصوره مخيلة وكل ما يحلم به
عقل، وهي التي اتمناها جميعكم آمين



الكنيسة والاصلاح

هاج البروتستانت على الكنيسة زاعمين انهم يريدون اصلاحها، فكان اصلاحهم خراباً على المانيا وانكلترا وسويسرا وأسوج وزوج، لا بل قد شمل الخراب نصف اوروبا، وكاد يعم العالم . فكان من نتيجته سفك الدماء والحروب وفراغ الاديرة وازالة الاسرار، وهدم الاكليروس ومحاولة هدم كنيسة المسيح . الا أن الكنيسة التي فيها العنصر البشري القابل للضعف، فيها ايضاً عنصر الهي يظل معها الى منتهى الدهر ويجعلها دائماً ملح الارض ونور العالم، فالكنيسة غير قابلة الهبوط والاضمحلال، كباقي الدول وكم من دولة ارضية تمتد املاكها وتعظم ثروتها ويكثر جنودها وتقوى شوكتها، فترتفع على سائر الممالك، وتمد سيطرتها على الشعوب، وتردهر بمعارفها وينتشر تمدنها، ثم لا تلبث متى كثرت فيها الثروة وتوفرت اسباب الراحة والرفاهية، ان يغشيها الفساد، فترتخي منها العزائم ويسود فيها الظلم، وتأخذ اذ ذاك تهوي نحو الانحطاط، الى ان تصدمها دولة فتية لم ينخرها الفساد، فتقضي عليها وتجعل تلك الدولة العظيمة أثراً بعد عين، ولا يبقى منها الا خرائب تدل على ما كان فيها من عظمة وحضارة بعد ان تسجل اعمالها في بطون الدفاتر، فتدرج في الكتب، يُوضع

تأريخها في المكاتب عبرة لمن يعقبها من الدول . هذا ملخص
حياة كل الدول التي تعاقبت على الارض ولن تقدر دولة مهما
كانت قوية ان تضمن لنفسها البقاء والخلود

اما الكنيسة المبنية على الصخرة فانها باقية خالدة ما بقي الذي
وعدها بان يكون معها، فهي تستمد منه القوة والحياة والخلود .
واذا تولي العنصر البشري الضعف او الخمول او الفساد، فالكنيسة
تكون والحالة هذه اشبه بأشجار الزيتون التي نازع تحتها السيد
المسيح في بستان الجثمانية ولم تزل مُغصنة الى الان، فانها عندما
يدب فيها الهرم تُقَلَّمُ اغصانها فتعود اليها الحياة ويتجدد فيها
الشباب . بل ما اشبه الكنيسة بالارز المرتفع في لبنان . فهو
على توغله في القدم لا يزال يرتفع في الفضاء ويمد اغصانه الى
الافاق هازئاً بعوادي الايام وكرور الاجيال، لا تريده الثلوج
والعواصف الا قوة ومثانة

فالكنيسة بعد ما لاح ان البروتستانت كادوا يززعونها
عرفت كيف تستعوض مما لحق بها من الخسارة بفتوحات جديدة،
واصلحت داخليتها بعقد المجمع التريدينيني، فكان من نتيجته
إصلاح الاكليروس والرهبانيات

إن الكنيسة اعتاضت عما لحقها من الخسارة بفتوحات
جديدة في امريكا والهند واليابان وافريقيا . ففي سنة ١٤٩٢
تسلم خريستوف كولمب من الملك فرديناند الكاثوليكي ثلاثة
مراكب شراعية، ليسافر فيها ساعياً الى اكتشاف عالم جديد،

كان عقله الثاقب يوحي اليه انه وراء الاوقيانوس . وكان ظاهر مطلبه من ذلك توسيع المملكة والسعي وراء الثروة . الا ان رغبة السيد المسيح القائل « اذهبوا وعلموا كل الامم » حملت المرسلين ان يسافروا معه ، فاكتشف امريكا ، وقد توفّق الفلورنسي امريك ان يلقبها باسمه . فانتشر المرسلون في البلاد الجديدة التي استولى عليها الاسبانيون والبرتغاليون ، وبشر فيها الفرنسيون والدومينيكان واليسوعيون فيما بعد بالايمان المسيحي ، واصبحت شعوب امريكا الجنوبية مع المكسيك وكندا شعوباً مسيحية . وكان الرهبان والمرسلون يحامون عن سكان تلك البلاد ، بينما كان الفاتحون يعاملونهم بقسوة وطمع لا حدّ لهما ، ولذلك رقى رجال الكنيسة اهل تلك البلاد ، وعلموهم كيف يقطعون الغابات ويزرعون الاراضي ويجففون المستنقعات ، واستعملوا كل الوسائل النافعة خلاصهم الروحي ولمنفعتهم الزمنية . وما عمله اليسوعيون في مقاطعات البراغويه مدة ١٣٠ سنة كان مثلاً لكل الدول التي تريد ان يشمل الهناء شعبها

وبعد ان فتح خريستوف كولمب امريكا سنة ١٤٩٧ اكتشف فاسكو دي جاما طريق الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح . فتأثره المرسلون ، وكان في مقدمتهم الرسول العظيم القديس فرنسيس كاسافاريوس ، الذي ازدان بغيرة بولس الرسول ، فجال في

بلاد واسعة وبشّر بالايان ممالك مختلفة في الهند واليابان، وعمد بيده اكثر من ثلاثمائة الف نفس . ثم لحقه اليسوعيون في الصين فامتازوا بفضيلتهم وعلمهم في مملكة ابن السماء اي الصين، وامتاز بينهم العالم الفاضل ريتشي الذي خلد له ذكراً في تلك البلاد بعلومه وقداسته

ثم امتدت تلك الفتوحات المسيحية الى مجاهل افريقيا والبلاد المتوغلة في الهمجية . فلم يخف المرسلون من هؤلاء الزنوج آكلي اللحم البشري، ولا من شدة الحر في بلاد خط الاستواء، فردوا الى الايمان عدداً وافراً من الزنوج، ومنعوا التجارة بالرقيق، الى ان وافي الى افريقيا فيما بعد الرسول العظيم الكردينال لافيجري وبواسطة مرسلي جمعيته التي أسسها ردّ الى الايمان عدداً لا يحصى، فهدّ بهم بتعليم الكنيسة وربّاهم على فضائلها، وزرع فيهم بذار التمدن الحقيقي، وجعلهم ينتظمون في عداد الممالك المتعدنة وان يقوموا مقام تلك الامم التي تبتعد عن حضن الكنيسة وتهيم في ظلام الضلال

اصبحت الكنيسة ضعفاً في الجمع التريدينتي، فكان من نتائجه تحديد العقائد المسيحية بوضوح يدفع كل شبهة وريب، وتأسيس المدارس الاكليريكية، وإصلاح الرهبانيات القديمة، وتأسيس رهبانيات جديدة للصلاة والعمل قد كان لها اعظم تأثير في نهضة الكنيسة، وازدهار الفضائل في هذه الاعصر
ففي تأسيس المدارس الاكليريكية خير عظيم . اذ انه بينا

نرى بعض الكنائس المنفصلة تندب الى الكهنوت رجالاً تشرّبوا روح العالم وعرفوا فسادهم ولم يتدربوا على العلوم الكهنوتية والفضائل الرسولية، بل انما تعلّموا واجبات الكهنوت علماً سطحياً، ترى الكنيسة قد تلافى هذا الخطر بتدبيرها الحكيم، اذ تلزم الاكليريكي ان يقضي اثنتي عشرة سنة على الاقل في درس العلوم المدنية والعصرية، وبعد ان يتمّ درس اللغات اللازمة مع التاريخ والرياضيات يدرس الفلسفة مدة سنة او سنتين، واللاهوت النظري والادبي مع الكتاب المقدس مدة خمس سنين، يتدرب في اثنائها على روح الغيرة الرسولية، وعلى الفضائل المسيحية، قاضياً شبابه في عزلة المدارس بعيداً عن ضوضى العالم وفساده.

تعرف الكنيسة انها مهما قاست في تربية الاكليريكي فهو قليل بالنظر الى دعوة الكهنوت السامية . فالكاهن يقدم الذبيحة الالهية، ويصبح وسيطاً بين الله والبشر، ويوزع اسرار الحياة على المؤمنين، ويجعلهم بالمعمودية ابناء الله، وبالميرون جنود المسيح، ثم يغذيهم بجسد المسيح ويسقيهم من دمه، وبواسطته يمنح الله نعمة سر الزواج، واذا ما فقد المؤمن حياة النعمة فان الكاهن يرجعها اليه بواسطة سرّ التوبة، ولا يزال يتعهد نفس المؤمن من صغرها في تعليمها التعليم المسيحي وتتبعها في إتمام واجباتها، الى ان يضمن لها بواسطة سرّ المسحة والاعتراف والتناول الدخول الى ملكوت السموات.

والكاهن يبقى بتولاً باذن الله وقوة الاسرار والابتعاد عن اسباب الخطيئة . فالتولية هي أعجوبة خاصة بالديانة المسيحية ، اذ يصون الكاهن البتول والراهب جسمه من الدنس ، لكي يقدر كل يوم ان يحمل إله الطهارة بين يديه في ذبيحة القداس . يبقى بتولاً لكي تكون صلواته اكثر حظوى لدى إله الطهارة . يحفظ التولية لكي يستطيع ان يخدم المرضى والمبوهين والمصابين بالامراض المعدية . يحفظ التولية فلا يغشاه خوف على اولاد يتركهم يتامى اذا اقتضت مصلحة النفوس ان يبذل حياته . يبقى بتولاً لكي يدرك الامور السامية عملاً بقول السيد المسيح : « طوبى للانقياء القلوب فانهم يعاينون الله » . يجرم نفسه لذات الحياة الدنيوية وافراح العالم لكي يقدر ان يظل الملح للعالم ، والنور الذي يضيء المؤمنين . يموت وليس له اولاد ليكون عليه ولكنه يموت سعيداً لكونه خدام الله والانسانية

اصلحت الكنيسة نفسها في المجمع التريدنتيني باصلاح ما يجب إصلاحه في الرهبانيات القديمة ، وبتأسيسها رهبانيات جديدة للصلاة والعمل ، كرهبانية الكرمليات واللعاشرين وراهبات المحبة واليسوعيين . وان العالم لمحتاج الى رهبانيات للصلاة كما هو محتاج الى رهبانيات لممارسة افعال المحبة الروحية والزمنية . فانه غير خاف ما في العالم من روح طمع يدفع الناس ان ينهب ويخدع بعضهم

بعضاً بالمكر والغش والاحتيال والكذب حتى كأنهم يا كلون بعضهم بعضاً، ومن روح الفساد الذي يدفعهم الى ارضاء حواسهم وشهواتهم لا يعرفون في ذلك محلاً او محرماً حتى سبقوا الحيوانات بمراحل، ومن روح الكبرياء التي تعلم الانسان الأثرة والانانية فيضحّي بالغير في سبيل حب الذات كأن العالم لم يُخلَق الا له . فبينما العالم غريق في المذات والمعاصي وهو ناس خالقه ومستنزل على نفسه اللعنة، اذا يبيع النفوس البارة التي تفهم معنى التضامن وتفهم قوة التكفير عن الخطايا، تقدم ذاتها ضحية عن غيرها . يصومون بدلاً عن لا يصوم، ويصلّون عوضاً عن لا يصلون، ويميتون حواسهم عوضاً عن لا يعرفون للتقشف معنى . وهذا ما تفعله الرهبانيات المنعكفة على الصلاة والتقشف وإماتة الحواس . فهم الحراب التي توضع في اعلى المنازل لتسحب الصاعقة اليها، وتحولها عن المنزل وسكانه

ومع الرهبانيات المخصصة للصلوات والتقشفات تأسست رهبانيات اخرى لممارسة أعمال الرحمة الزمنية والروحية . فهناك راهبات ورهبان يهتمون باللقطاء الذين يُلقون في الشوارع دون ذنب جنوه، وللأولاد الايتام الذين ليس لهم من يهتم بهم، ولتعليم الناشئة في المدارس، وللمستشفيات وتضميد جروح الانسانية، والسهر على المرضى وتعزية الحزاني والنفوس المتألّمة، وللعجز الذين ليس لهم اولاد يساعدونهم في شيخوختهم، ولكل مبتلى وحزين او ممتحن بمصائب الحياة، لكي يكسوا العراة ويطعموا الجياع

ويعودوا المرضى ويقوموا بسائر اعمال الرحمة
 فمثل هذه المشاريع كانت من نتائج الجمع التريدينيني .
 وعلى هذه الصفة أصلحت الكنيسة نفسها مما لحق بها من الضعف
 البشري . فالجد للسيد المسيح الباقي حياً في كنيسته ، وهو الذي
 وعدها بان يبقى معها كل الايام الى منتهى الدهر . آمين



الكنيسة والتمدن

بعد ان عرفنا الكنيسة الحقيقية وميزانها بالعلامات الفارقة التي زانها بها السيد المسيح، ورأينا سلطتها ونظامها وبعض صفحات مجيدة من تاريخها، يجدر بنا ان نذكر تأثيرها في الترقى، ونرى ثمارها في التمدن الحقيقي، وذلك لنزداد تعلقاً بالكرمة التي هي المسيح ومنه تستمد الاغصان الحياة

كثيرون يُجَلِّون كلمة تمدن في غير محلها، بل يفهمونها على خلاف معناها. فيستعملونها لبعض عوائد غريبة ومستهجنة، قد تكون مخلة بالاداب. فيسمّون مثلاً راقياً ومتمدناً من يتزياً بآخر زي، ويدعون متأخراً او غير متمدن ذاك الشاب الذي لا يجاري بعض عوائد عصره المذمومة، من حضور الروايات الخلاعية او الاشتراك في الرقص المختلط. وبعضهم يحصر التمدن في اختراع بعض آلات تعين على إبادة الانسان باعظم سرعة. لا بل أخذ بعض كفره عصرنا يعزّون الى الكنيسة التقهقر، لكونها لا تجاري بعض المتطرفين في المبادئ الفاسدة، والعوائد العصرية المذمومة. ان عصرنا قد أَلَف سماع بعض كلمات طنانة يسكر المرء بها، ولو لم يفهم معناها، فما هو التمدن يا ترى؟ - معنى تمدّن تخلّق بأخلاق المدن، مما يدل على ان ساكني المدن اقرب الى الرقي من

من غيرهم، وكلمة تمدن تدلّ على ترقّ ونموّ وكمال، وهذا الترقّي، لكي يستحقّ هذا الاسم، يجب ان يكون في حياة الانسان العقلية والادبية والزمنية، فيكون الترقّي في العقل بالعلوم وفي النفس بالآداب والاخلاق، وفي المعيشة بتسهيل طرق المعاش وتخفيف وطأة المصائب عن الانسانية

فمن سعى بإثارة العقول وتوسيع نطاق العلوم ومعرفة اسرار الطبيعة، ولا سيما معرفة خالق الطبيعة، فذلك هو العامل على التمدّن العقلي

ومن حسن الأخلاق وعلم الآداب القويمة ورفع الانسان من خموله الى مقامه اللائق به، وثقّفه في الصدق والاستقامة واحترام نفسه مع احترام غيره، ومعاملة كل انسان بما يقتضيه العدل والانصاف، ووضع اساس المجتمع على مبادئ قويمة تكفل سعادته، فذاك هو العامل على التمدّن الادبي

ومن سعى في تسهيل طرق المعاش وتوفير أسباب الهناء وتخفيف ويلات الانسانية ومعالجة مصائبها، فذاك من دعاة التمدّن المادي. هذا هو التمدّن الحقيقي الساعي وراء سعادة النفس والجسد؛ فاذا اعتبرنا التمدّن بهذا المعنى الصحيح حقّ لكنيسة المسيح بان تسمّى ممدّنة العالم

فالكنيسة هي العاملة على التمدّن العقلي، اذ بددت ظلام جهل الوثنية، وعلمت العلوم البشرية والالهية طبقاً للمبادئ القويمة. الكنيسة هي العاملة على التمدّن الادبي، اذ هذبت الاخلاق

الشخصية، وعلمت الصدق والاستقامة والشرف، ووضعت كل فرد من اعضاء الاسرة في المكان اللائق به والكافل لسعادة العيلة، وسنت للشعوب الشرائع الكافلة لها العدل والنظام والأمن العام . وان لم تكن غاية الكنيسة الاولى تحسين طرق المعاش وتوفير اسباب الراحة الزمنية، فهي اكبر عامل على هناء العيش ولا سيما تخفيف مصاعب الحياة

قلنا اولاً ان الكنيسة هي العاملة على التمدن العقلي كل يعلم ما كان نُحَيِّماً على العالم من ظلام الوثنية عند مجي السيد المسيح، اذ كانت الشعوب متوغلة في الضلال . واذا كان لا بد لها من ديانة فقد عبدت كل شي . ما عدا الخالق، كما قال بوسويه . وما لكم الا ان تجيلوا النظر في متحف مصر وفي كل ما يمثّل الالهة من الحيوانات، لتدركوا حقيقة قولنا وتفهموا الى اي درجة من السخافة يبلغ العقل البشري بدون النور الالهي . وغير مجهول ما في هذه العبادات من المزاغم السخيفة الحاطة من مقام الانسانية . وان كان بعض الفلاسفة الوثنيين من هنود ويونان ومصرين قد كتبوا بعض حقائق، فهي مبعثرة بين اضاليل لا عداد لها، وما هذه الحقائق الا آثار من التعليم الصافي الذي استقاه آدم من الله، او مما وصل اليهم من وحي الله في التوراة ولا حاجة الى ذكر ما كان للوثنية من النتائج الفظيعة، ممّا كان يحملهم على تقديم الذبائح البشرية لاختاد غضب الالهة . وكفى بذلك مثلاً لتدركوا الى أي درجة من الانحطاط قد وصلت

الانسانية . فالكنيسة قد بددت ظلام عبادة الأوثان، وعلمت
 السجود لاله واحد بالروح والحق . وقد انبعثت أنوار الدين
 المسيحي من شرقنا، فطار منه الرسل مطيعين لأوامر المسيح،
 وانبثوا في انحاء العالم مبشرين بالانجيل . وبعد ان كانت الديانة
 المسيحية تمارس في الخفاء وفي الدياميس، ارتفعت مع قسطنطين
 الملك الى عرش القيصرية، واصبحت أساس الشرائع الدولية، واذ
 ذاك تألق الشرق بأنوار التمدن الصحيح مدة أجيال طويلة
 هيهات ان يرى نظير لها بم عزل عن الكنيسة

ففتحت المدارس لعدد لا يحصى من الطلاب، وامتاز منها
 مدارس الاسكندرية وانطاكية وقيصرية وبירות والرها . فكانت
 بمثابة كليات عصرنا، ونبغ فيها فلاسفة شهرون هم فخر الانسانية:
 كالقديس يوستينوس وتاسيان واكليمنضوس الاسكندري
 وترتوليانوس واوريچانوس واوغسطينوس وكثيرون غيرهم . وامتاز
 الآباء القديسون بعلمهم وفصاحتهم مع قداستهم . ولا يسعنا
 تعدادهم فنقتصر على ذكر القديس باسيليوس الكبير وغريغوريوس
 الثاولوغوس ويوحنا فم الذهب واثناسيوس الكبير والقديس افرام
 والقديس يوحنا الدمشقي الذين كانوا كواكب ساطعة في سماء
 عصرهم، وكتبهم المائلة الى الآن مكاتب الشرق والغرب تشهد
 بطول باعهم بالفصاحة والعلوم . وقد برز مؤرخون شهرون
 كهيجيزيب واوسابيوس الملقب بأبي التاريخ الكنسي . وفاحت
 براري الصعيد وسوريا وفلسطين بفضائل النساء، وهم منعكفون

على الصلاة والدرس، مُضاهين الملائكة بحبهم لله والتجرد عن ملذات الدنيا

وبينما كان التمدن المسيحي ساطعاً في الشرق، كانت الديانة المسيحية تمدّن في اوروبا الامم البربرية المتوغلة في الهمجية، التي اخذت تدرج من القمط في الاجيال المتوسطة، حتى بلغت وارشدت وجنت ثمار التمدن العصري التي نراها عليه اليوم

ولا احد ينكر ان ما بلغ الى عصرنا من كتب الاقدمين انما الفضل الوحيد في حفظه للكنائس والاديرة، التي ظلت حاملة نبراس العلوم رغماً عن كل ما جرّته الحروب من الخراب والدمار واذا كانت الدولة الاموية والعباسية والاندلسية قد افتخرت بنهضة علمية، فلا جدال بان الغزاة الوافدين من صحارى العرب قد حصلوا على معلمين مسيحيين لفنّوهم العلوم وترجموا لهم الى العربية من اللغات اليونانية والسريانية الكتب العلمية المتنوعة، كأولاد بختيشوع وعبدالله بن الفضل الانطاكي وكثيرين غيرهم، وضبطوا لهم الدفاتر في الدواوين، كالقديس يوحنا الدمشقي وغيره وكانوا الساعين في النهضة العلمية المعروفة

ولما انتقل التمدن المسيحي الى اوروبا، أليس ان العصرين اللذان امتازا بالعلوم والفنون الجميلة هما عصر البابا لاون العاشر وعصر لويس الرابع عشر؟ وكلنا يعرف الروح المسيحية التي اهتمت في هذين العصرين الفلاسفة والشعراء والخطباء واصحاب الفنون الجميلة، فجادت قرائهم بالتحف التي تبقى ذخيرة الدهر

وهل يقدر عصرنا الحاضر ان ينكر ما لارباب الدين ورجاله من الفضل عليه في المدارس والكلليات، ومن نبغ فيه من العلماء؟ فهل نذكر فرعاً من فروع العلم كالفلسفة والآداب والتأريخ والطب والكيمياء والطبيعات والرياضيات وعلم الهيئة والفنون الجميلة والاختراعات العصرية، ولا يكون فيه للرجال المتدينين الاسبقية والقدح المعلى؟ وقد يضيق بنا الوقت أن نعدد ولو قسماً منهم، فنقتصر ان نقول انه لما اقترحت جرائد باريس اكتاباً في هذه المدة الاخيرة، لترى على من يُجمع الرأي العام بأنه كان أعظم محسن للانسانية في القرن التاسع عشر، كان الجواب بلا جدال: ان باستور هو اعظم محسن للانسانية في القرن التاسع عشر، وفضلوه على نابوليون وفيكتور هيغو وسائر من اشتهر بين رجال السيف والقلم. وكل يعلم ما كان عليه باستور من التمسك بالدين المسيحي

وان كان بعض الكفرة ممن أشربوا روح فولتير وروسو يريدون ان يتبرأوا من الدين، فهم اشبه ببن قد حصل على بعض صفات والديه وتربيتهما، ثم خرج عن طاعتها وعقها واذا كنا نرى تمدن عصرنا يتداعى في هذه الايام التاعسة، فما ذلك الا لكون بعض الحكومات اخذت تبتعد عن الله فنالت جزاء كفرها من الشقاء، غالبية كانت ام مغلوبة. وقد رأينا الدول في اشد ايام الحرب تلتجئ الى قداسة البابا للمفاوضة بالصلح وتخفيف ويلات الحروب، كمبادلة الاسرى والاهتمام بالجرحي.

واذا كان الكهنة والجنود المسيحيون قد امتازوا ببسالتهم في هذه الحرب، فذلك لانهم يعرفون فضيلة بذل النفس في سبيل الواجب، فالقواد الذين يحفظ التاريخ ذكرهم والذين حازوا الانتصارات الباهرة هم، ولا يخفى عليكم، من الرجال الذين كانوا يجاهرون بعبادتهم ودينهم ويتناولون القربان الطاهر عدة مرار في الاسبوع، ويدلون بحسن سلوكهم على استقامة عقيدتهم

ونحن مسيحي هذه الهلاد، بعد ان رمانا الدهر بالأزراء، فقسّمنا الاحزاب والمهرطقات، ولعب بنا سيف الغزاة، وارغموا قسماً كبيراً منا على إنكار دينه وأرجعونا أجيالاً الى الوراء، فان كان لا يزال بيننا بالرغم من ذلك طبقة متنورة وامة راقية بالنسبة الى غيرها أفليس الفضل في ذلك للمدارس الدينية والكلّيّات المسيحية؟ أفليس الفضل لتلامذة ذاك القائل: « انا نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلام؟ » فالديانة المسيحية اذن هي العاملة على التمدن العقلي. وهي العاملة ايضاً على التمدن الادبي. ان الآداب عموماً تتبع العقائد. فاذا كانت العقائد ساقطة فالآداب فاسدة، وكل يعلم ما كان عليه العالم الوثني من الحالة التعسة في الاداب، اذ كان ثلثا العالم عبيداً أرقاء، والثلث الاخر يستعبد الآخرين ويعاملهم كسلعة، حتى ان السيد، اذا لم يكن

يجد من عبده منفعة لنفسه، كان يذبحه ويرميه طعماً للأسماك . كلُّ يعلم ما كانت عليه حالة المرأة من الذل والهوان، واستعمالها كآلة للملذات، حتى اذا قضى الرجل أربه منها طلقها واستعبد لها، غير مبالٍ بحقوقها ولا بخير البنين . والولد نفسه كان لوالده عليه سلطة الحياة والموت يستعملها بلا مقاوم ولا معارض . وقد كان من اكبر ملذات ذلك العصر ان يرمي الحكام المسجونين الى الوحوش الضارية في اعياد خاصة، فيشهد الشعب مسروراً من اعلى درجات المسرح كيف تثب تلك الوحوش على اولئك التاعسين فتفترسهم . كان الشعب ينظر الى هذه المشاهد البربرية ويظهر سروره بالتصفيق والاستحسان . وما فعله تيطس اذ خنق يوم عيد ابسه فاسبيسيانوس ألوفاً من اليهود كان يُحسَب شيئاً مألوفاً ومن مقتضيات افراح العيد . ان ذلك يُسهل لكم ان تتمثلوا باقي الرذائل من الكبرياء والعهارة والدنس والانغماس في خيرات الارض وملذاتها

فجاءت الكنيسة وعلمت ان الانسان مخلوق على صورة الله، واننا ابناء الله بالنعمة، وفسنا فداها المسيح بدمه . وأخذت تسعى في تحرير الانسان من رق العبودية، وكل تأريخها يشهد لها بهذا السعي من القديس بولس الذي طلب تحرير اونيسيموس من سيده ليجعله تلميذاً له، الى البابا لاون الثالث عشر الذي استعان بالكردينال لافيغري، فاضطر دول اوروبا الى جمع مؤتمر في بروكسل لمنع النخاسة في افريقيا . ولا تزال نرى المرسلين في البلاد

المتوحشة يشترون العبيد ليحرروهم . فهم المسيحيون حرية النفس الحقيقية فاستشهد منهم بضعة ملايين ليبرهنوا للقياصرة انه اذا كان لهم سلطة على الجسد فليس لهم اقل سلطان على النفس ليرغموها على عمل ياباه الضمير . فالحرية هي من تعليم الكنيسة، والاخاء الحقيقي هو في الكنيسة، ولا مساواة حقيقية الا في الكنيسة . وقد وضعت هي اساس الاسرة المسيحية، فعلمت الرجل ان يحب امراته كما يحب المسيح كنيسته، واعلنت تحريم انحلال الزواج الا بالموت حفظاً للحب الضروري بين الزوجين واعتناءً بمنفعة البنين . ورفعت الولد في الاسرة الى المقام الذي تقتضيه الطبيعة

فصلت الكنيسة بين السلطة الدينية والمدنية بكلام مؤسسها : « اعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله » . وعلمت الرعية ان تطيع الحكام بقولها : « كل سلطة من الله، ومن يقام السلطة يعاند ترتيب الله »

علمت الكنيسة الفضائل الشخصية التي عليها قوام المجتمع الانساني في المعاملات، اذ تقول بفهم معلمها الالهي : « ليكن كلامكم نعم نعم ولا لا » . السيد المسيح قد علم الطهارة للعالم، تلك الطهارة التي لم يكن يعرفها العالم، حتى انه جل جلاله

(١) لوقا ٢٠ : ٢٥

(٢) رومية ١٣ : ١ و ٢

(٣) متي ٥ : ٣٧

حظر على الانسان النظر الى امرأة القريب بشهوة^١ . علّم الطهارة بقوله : « طوبى للانقياء القلوب فانهم يعاينون الله^٢ » . ومن هذا التعليم نشأت طغمة العذارى والمتبتلين لله . فالجسد لمؤسس الكنيسة الذي يرفع الطبيعة البشرية الى درجة الملائكة

فالكنيسة اذن هي العاملة على التمدن العقلي والادبي وهي العاملة على التمدن الزمني ايضاً . نعم انه ليس من غايات الكنيسة الاولى توسيع طرق المعاش وتوفير وسائل الراحة والهناء ، فإن ذلك من غايات الحكومة المدنية . ولكن الكنيسة مع اهتمامها بالنفس تهتم بالجسد ، وتستعمل كل أنواع الرحمة والشفقة لتخفف عنه وطأة المصائب . ولا يسعنا الآن ان نذكر كل ما عملته الكنيسة في هذا الشأن من أعمال الرحمة ، فذلك ما لا نهاية له ، كما أنه لا نهاية لويلات الدهر . ولا عجب في ذلك ، فان الكنيسة اساسها المحبة ، وقد علّمنا السيد المسيح ان كل ما نعمله بأحد اخوته هو لأخوتنا الصغار فيه نعمله^٣ . علّمنا ان نعامل غيرنا كما نعامل نفسنا^٤ . ولذلك نكتفي من ذكر اعمال الرحمة بان نذكر كم ما تراه أعينكم ، وأنتم أعضاء الجمعية الخيرية وأعضاء جمعيات يوحنا فم الذهب العاملون بعضاً من هذه العجائب . فالكنيسة ترى دواء لكل المصائب التي تعترى الانسان من المهد الى اللحد لذلك نرى الراهبات يهتمن بالاولاد التساعسين المعرضين

(١) متى ٥ : ٨

(٢) متى ٥ : ٨

(٣) متى ٢٥ : ٤٠

(٤) متى ٧ : ١٢

للموت، فيلتقطنهم وينشلنهم من مخالب المنون ويحلبن لهم مرضعات ويربينهم الى ان يبلغوا سنّاً من العمر يقدرّون معه على القيام بجاجاتهم الكنيسة تقدم لليتامى مدارس عديدة يقوم فيها مديروها مقام الآباء، ويعلمونهم حرفاً وصناعات تجعلهم أعضاء نافعين في المجتمع الانساني

للكنيسة مشاريع تصون بها عرض الفتيات الفقيرات، وتعدّ لهن جهازاً يساعدهن على زواج شريف الكنيسة هي ام الفقراء وقد اهتمت بهم منذ رسم الشماسة السبعة للاهتمام باليتامى والارامل الى يومنا هذا، الذي فيه جمعيات عديدة تمسح دموع الفقير وتجبر قلبه الكسير - للكنيسة مكاتب تعاون تساعد العامل العاقل على ايجاد عمل له يمكنه من كسب معاشه بشرف

وهوذا المستشفيات المسيحية العديدة في كل المدن فاتحة ابوابها لجميع المرضى من أية ملة كانوا، يرفرف فيها ملائكة محبة وسلام لمعالجة الامراض بصبر وبذل نفس عجيبين . وعند ما تفتك الامراض الوبائية في بلدة فاننا بينا نرى الناس يخافون من عيادة بعضهم بعضاً نشاهد الكهنة رسل المحبة والسلام يعطون براهين كافية على تفانيهم، كما فعلوا في ايام الحرب هذه، وخطروا بانفسهم للاهتمام بنفس وجسد الموبوئين

ولا تقف المحبة المسيحية عند هذا الحد، بل تتناول الشيوخ والعجّز الذين ليس لهم من يعولهم في شيخوختهم . فترى راهبات

المحبة والراهبات الصغيرات المنتميات للفقراء، وهن غالباً من أسر شريفة يُفرغن وسعهن في تعزية اولئك الشيوخ، ولا ينجلن من الاستعطاء لهم، ويقدن لهم من الخدم ما يجعل هؤلاء الشيوخ ينهون حياتهم بسكون وسلام ويكفل لهم مئة صالحة

بقي للكنيسة لكي تمارس كل اعمال الرحمة ان تهتم بدفن الموقى الفقراء، وهذا ما تقوم به جمعيات مختلفة الاسماء، تجعل للغريب والفقير كرامة في مأواه الاخير، وتستمطر عليه الرحمة والرضوان هذه بعض مساعي الكنيسة في سبل الترقى الحقيقي . فالشكر لهذه الكنيسة الساعية في تنوير العقول، وتعليم العلوم ولا سيما العلوم الالهية . الشكر للكنيسة التي رقت الآداب وجعلت كل فرد من اعضاء الاسرة في المقام اللائق به، وجعلت اساس الحكومة والرعية على صخر متين، وعلمت الفضائل الشخصية . الشكر للكنيسة التي لا ترى جرحاً للانسانية الا تضمده، فلقد يحق لنا ان نسميها ممدنة العالم . فتمسكوا بها فهي التي توليكم فخراً . وامشوا على آثار اباؤكم واجدادكم، فانتم ابناء هذه الكنيسة، ويجب ان تمتازوا عن غيركم بمعارفكم وسلوككم ورحمتكم، « لكي يرى الناس اعمالكم ويمجدوا اباكم الذي في السماوات »

(١) طالع اعلاه (الصفحة ٦٦ في الحاشية) احصاء اخيراً لبعض المشاريع

(٢) متى ٥ : ١٦

الخيرية في الكنيسة الكاثوليكية

الكنيسة والاعتراضات

لقد كثرت الاعتراضات على الديانة المسيحية وعلى الكنيسة الكاثوليكية في عصرنا خاصة، حتى لا يكاد يخلو منها حديث في البيوت وفي المقاهي والمنتديات العامة والاجتماعات الخاصة، فضلاً عما يرد في الكتب الفاسدة والروايات الخلاعية والجرائد غير الرصينة. البعض يحملون على الديانة جهاراً، والبعض ينسابون كالصل ينفضون خفية السم في الدسم. يفعل بعضهم ذلك عن خفة وطيش، وغيرهم عن خبث شيطاني، حتى اصبح في كثير من أهل العالم من الظرف والكياسة أن يملح الحديث ببعض الاعتراضات على الديانة المسيحية، ولا سيما الديانة الكاثوليكية. وازاء هذه الصدمات نرى المسيحيين الاتقياء على أنواع. فالبعض منهم يبقون حازنين مدهوشين لا يجيرون جواباً، والبعض يتشككون ويسدون آذانهم استنكاراً خوفاً منهم على الديانة من طغيان أمواج الكفر عليها. وليس هناك إلا القليلون يبرزون الى ميدان الدفاع عن حقوق الديانة وهي حقوق الله نفسه. فإذا يجب عمله والحالة هذه إزاء الاعتراضات؟ يجب أولاً ان لا نعجب منها، ثانياً ان لا نخاف، ثالثاً ان نكون متسلحين للدفاع يجب أولاً ان لا نعجب من الاعتراضات لان تعليم الديانة

واسع جداً، وفيه أسمى ما يمكن خليقة عاقلة ان تبحث عنه .
 لان الديانة بحدّ نفسها هي مجموع علاقات الله مع البشر، ومن
 ثم موضوعها لا نهاية له حتى الديانة الطبيعية . فما القول في الديانة
 الالهية الحاوية للوحي الالهي ؟ وما القول بالخصوص في الديانة
 المسيحية التي يعلمنا الوحي فيها ان « الله قد صار بشراً » واننا
 أصبحنا بها « أبناء الله » واخوة لابنه ... الى آخر ما هنالك
 من التعاليم السامية من أسرار التثليث والتوحيد والتجسّد والفداء
 الالهية . فحديث الديانة انما هو حديث عن الله جل جلاله وعن
 اقانيمه وصفاته، وعن خلق العالم وتاريخه . فيتكلّم عن الوحي
 وعمّا نطق به الله بالسنة الانبياء عن السيد المسيح وتعاليمه
 واسراره وكنيسته، ويفحص النبوءات والعجائب، ويستقصي عن
 النفس وروحانيتها وخلودها، يهتم لعلاقة الزمان بالأبدية، ولمصيرنا
 والغاية التي لاجلها وجدنا

ففي درس الديانة درس اللاهوت والفلسفة والتاريخ، وكل
 الكتب المقدسة، وكل فرع من فروع العلم له علاقة بالدين .
 وعليه فلا عجب اذا كثرت الاعتراضات على الدين المسيحي،
 وهو شبه يجيش عرمرم منتشر في انحاء الارض كلها . فهو وان
 يكن ظافراً فلا بدّ له من مناوشات صغيرة في اماكن شتى،

(١) يوحنا ١ : ١٤ وغلاطية ٤ : ٤

(٢) ١ يوحنا ٣ : ١ ويوحنا ١ : ١٢

ولكنه كصخرة صماء في وسط البحر تلاطمها الامواج من كل جانب فترجع مزبدة مدحورة

ويمكن القول مع ذلك انه لو كان تعليم الديانة على اتساعه لا يعترض اهوائنا، لقلّ اعتراضنا عليه . ولكن الديانة عموماً والديانة المسيحية خصوصاً مقاومة لاهوائنا، موجبة للتضحية بها الى حدّ الكفر بالذات « ان شككتك يدك الخ » - ان في الديانة المسيحية اسراراً وتعاليم تقتضي كبح جماح الكبرياء وإخضاع العقل لما يفوقه، والحواس لغير ما يستهويها، والارادة لغير ما يلوح لها من خيرات هذه العاجلة

نعم انه ليس في الديانة ما يناقض العقل، او يخالف العلم الصحيح، لان مصدر الحقيقتين الدينية والعلمية واحد وهو الله الحق بالذات، فحاشا ان يكون بينهما شيء من التناقض . ولكن في الديانة حقائق غامضة يثبت عقلنا بالتأريخ تمام الاثبات ان الله قد اوحى بها ولكنه اضعف من ان يفهمها ولو باقصى ما يمكن من البحث والدرس اجيالاً واجيالاً . ولا عجب فالعقل البشري متناهٍ، وموضوع التعليم الديني غير متناهٍ، واذا كان يعجز عن ادراك اسرار الطبيعة نفسها على كونها في دائرة موضوعاته الخاصة، فهو بالاولى يعجز عما هو في دائرة النظام الفائق الطبيعة . ولذلك فان الكنيسة اذ توجب علينا الاعتقاد بمثل تلك الحقائق والاسرار الغامضة فانها

هي تفعل اعتماداً على صدق الله الناطق بها الذي لا يمكنه ان يغش ولا ان يُغش . وهذا ما يعاكس الكبرياء والطمع البشري الديانة المسيحية شديدة الوطأة على الشهوات النازعة الى الفوضى، فتقرب كل افكارنا واقوالنا وأفعالنا، وتذكرنا اننا سنؤدي عنها جواباً يوم الدين، وهي تعلمنا ان طبيعتنا المخلوقة صالحة في حدّ نفسها، ولكن الخطيئة الاصلية قد اضعفت فيها حياة الروح ودفعتها نحو الفساد . ولذلك تأمرنا بعمل ما لا يرضي هذه الطبيعة الفاسدة من اصوام وصلوات وحسنات . وتجعل حدّاً للملذات فتمنع الملذات المحرمة واختلاس مال القريب . تعلن حرباً فينا بين نفسنا وجسدنا، بين نفسنا المخلوقة على صورة الله الطالبة سعادتها في رؤيته والتمتع به، وجسدنا الذي اصبح متمرداً على النفس بعد الخطيئة يطلب ملذاته الحسية البهيمية، غير مكترث لاحتياجات النفس ومنافعها، بل كثيراً ما ينحرف الى ما يخالف هذه المنفعة، حتى قال السيد المسيح : « اني لم آت لألقي على الارض سلاماً بل سيفاً . اتيت لافرق الابن عن ابيه والكنة عن حماها واعداً الانسان اهل بيته » من اراد ان يخلص نفسه فليهلكها ومن لا يكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني فلن يستحقني^١ وقال ايضاً : « ان ملكوت السماوات يغصب والغاصبين يخطفونه^٢ »

(١) متى ١٠ : ٣٤ - ٣٩

(٢) متى ١١ : ١٢

ان السيد المسيح لم يفسح لتباعه طريق المذات، على ما جرى عليه الراغبون في ارضاء اتباعهم من بعض المشترعين ومؤسسي الديانات البشرية، طمعاً بتكثير الاتباع واستجلاب رضاهم. ولكن تعليمه تعليم اله له ان يأمر وله ان يُطاع مهما شق ذلك على الطبع البشري، وله ان يحاسب ويدين، وهو يقرأ اخفى ما في القلب « فاحص القلوب والكلى » . ولكنه له وحده ان يوجب ذلك، لان له وحده السلطة المطلقة على الضمائر

فإذا أمر يعطي القوة، حتى لأضعف الضعفاء، لتنفيذ إرادته المقدسة . ولذلك فانه حين نراه يأمر بما يلوح للطبع البشري انه من المستحيلات، كالكفر بالذات وتفضيل اقتلاع العين وقطع اليد والرجل على التعرض معها للشر، نسمعه يستدرك فينا الخوف والذعر بأعذب الوعود الفائقة الطبيعة، من قوة في هذه الحياة للعمل، وجزاء في الآخرة يفوق كل وصف : « احملوا نيري عليكم . . . فان نيري لين وحلي خفيف »

عندما وعد السيد المسيح بسر الافخارستيا ورأى اليهود يتخاصمون بسبب سوء فهمهم هذه الهبة الفائقة الإدراك، والتلاميذ يتشككون منها، لم يثنه ذلك عنها، لانه أعرف من البشر بما يصلح للبشر، وشريعته وتدبيره فوق أهوائهم وأوهامهم، ولا حاجة له في شيء الى نظرياتهم ومشوراتهم، وهذا ما أراد أن يفهمه

(١) مزمو ٧ : ١٠

(٢) متى ١١ : ٢٩ و ٣٠

لتلاميذه قبل أن يشرح لهم خاصة فحوى كلامه ومغزاه، فسألهم بلهجة التوبيخ وعدم الاكترات لاعتراضاتهم : « أو تريدون أنتم ايضاً ان ترتدوا الى الوراء؟ »

وعندما أمر السيد المسيح بعدم انحلال الزواج وحرّم الطلاق قائلاً : « ما جمعه الله لا يفرقه انسان »، اعترض تلاميذه على ذلك لما فيه من الصعوبة على الأميال، وقالوا له : « ان كانت هذه حالة الانسان مع امرأته فالأفضل له ان لا يتزوج » . فلم يغير يسوع كلامه وقال لهم : « ما كل انسان يحتمل هذا الكلام، من أراد أن يحتمل فليحتمل »، أي من أراد أن يبقى بلا زواج فليبق . ولكن لا أغير شريعتي

فلا عجب إذا ان تثير الأهواء المنحطة كثيراً من الاعتراضات على الديانة المسيحية، لانها تقاوم كبريانا وأميالنا الفاسدة، حتى يمكن القول انه لو كان كل شيء مباحاً في الديانة لما سمعتم اعتراضاً واحداً عليها . فاجثوا عن سلوك المعترضين، تروهم يعترضون على الشريعة ليتخلصوا من واجباتها، ويعترضون على الكنيسة ليتخلصوا من ساططها، وينكرون الحقيقة ليتخلصوا من تبعاتها، ولا نرى عموماً فساد العقيدة يتسرب الى عقل الانسان إلا بعد فساد القلب

يجب إذا ان لا نعجب من الاعتراضات على الديانة لكون

(١) يوحنا ٦ : ٦٨

(٢) متى ١٩ : ٦ و ١٠ - ١٣

تعليمها واسعاً ومقاوماً للطبيعة الفاسدة . ولكن هناك سبباً آخر للاعتراض وهو جهل المعترضين للديانة المسيحية . ان العدد الاكبر من المسيحيين ليس لهم معرفة بالديانة الا ما تعلموه على مقاعد المدرسة ، وقليل ما هو ، وقد نسوا جزءاً من هذا النزر القليل . وكثيرون لا يقرأون شيئاً من الكتب الدينية بل يحشون كل يوم أدمغتهم من الجرائد ، غير الرصينة والروايات الخلاعية والكتب المعاكسة للدين . ومن الغريب انه بينما نرى الناس يتحاشون الخوض في ما يجهلونه من العلوم والفنون نراهم يتناولون على الامور الدينية ويجازفون في الكلام عنها بحسرة ليس لها حد إلا كبرياؤهم وجهلهم . فيقطعون في اهم المسائل التي يتردد فيها حتى كبار اللاهوتيين والفلاسفة والمؤرخين ، وقد صدق العالم باتون الشهير القائل : « قليل من العلم يبعد من الله وكثير منه يقرب الى الله » . فاذا اتضح لنا ان الديانة واسعة ، ومقاومة للاهواء ، ومجهولة ، فلا نعجب من كثرة الاعتراضات على الديانة ومع عدم ابداء العجب من الاعتراضات ينبغي ان لا نخاف منها

اولاً لان هذه الاعتراضات تكون في غالب الاوقات سخيفة وضعيفة . فان كثيرين يتكلمون عن الديانة كما يتكلم المولود أعمى عن الالوان - وجلّ بضاعتهم اعتراضات اقتبسوها من الشيع البروتستانتية ، او من بعض جرائد ومجلات كفرية ، وهي غالباً افتراءات وثم باطلة على الديانة ، اجدر ما يحسن ان تقابل به

في اغلب الاحيان ابتسامة الهزء. والإعراض، ولا سيما إذا كانت من نوع تلك الاعتراضات السخيفة المبنية على مجرد الاستهزاء بالدين.

ولكن ليس كل اعتراض سخيفاً، وليس كل اعتراض هزلياً. فمنها ما هو جدي وصعب الحل. وقد يكون من ذي نية سليمة، ولا سيما ممن لم يستتر بعد عقلهم بنور الوحي ويتعزز بنعمة الايمان. ولا عجب، فالعقل البشري كثيراً ما يضعف عن فهم وتفسير اسرار الطبيعة. فالعلماء مثلاً لا يزالون في تردد وحيرة لتعليل الكلف اي (البقع) التي على سطح الشمس، وقد احصيت يوماً وأنا انظر في منظار فلكي اثني عشرة سفعة شمسية.

وان في كل فرع من فروع العلم مشاكل وصعوبات لم يحلها العلماء الى الان. وترون العلماء كلما ازدادوا علماً ازدادوا تواضعاً، فهل من عجب اذا وجد في الديانة مشاكل يصعب حلها؟ قال السيد المسيح: «ان كنت قد قلت لكم الارضيات ولم تؤمنوا فكيف ان قلت لكم السماويات؟» فاذا نعمل والحالة هذه عندما تُعرض علينا مسألة يصعب حلها؟

ان لعلم الديانة رجالاً اختصاصيين، كما لكل فرع من فروع العلم رجاله، وهؤلاء هم في الدرجة الاولى رؤساء الكنيسة الذين جعل الله وديعة تعليمه بين ايديهم تحت رئاسة الخبر الاعظم، ثم

الاختصاصيون بعلم الدين الكهنة واللاهوتيون، ويليهم كثير والحمد لله من المسيحيين الافاضل المتضلعين من الامور الدينية . فيجب ان يكون فينا تواضع يحملنا على الاقرار بعجزنا في امور ليست من اختصاصنا، ونرفع هذه الاعتراضات الى من يستطيع حلها والمحاماة عن حقوق الله

وكونوا على يقين ان الكنيسة المقدسة لا تخاف اعتراضاً، مهما كان نوعه ومصدره ومهما كان يلوح صعباً . وهذا ما جاهر به البابا لاون الثالث عشر اذ امر بفتح ابواب المكتبة الفاتيكانية، وهي حافلة بالمخطوطات النفيسة، لكل من اراد البحث فيها من العلماء . وقال : «إننا نحن الكاثوليك لا نخشى النور . فلا تخافوا» اذاً من الاعتراضات . لا تخافوا على الكنيسة، فقد برهنت سحابة عشرين قرناً عن صحة عقيدتها، وأيدت كلام السيد المسيح «وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» ، وأظهرت ان السيد المسيح لا يزال معها . قاومها قياصرة روما فغلبت الكنيسة المسيحية القياصرة، وجلس خليفة صياد بحيرة طبرية على عرشهم . قامت الهرطقات تشوه وجه الحقيقة فاجتمعت المجامع المسكونية ونبذت الضلال، فالهرطقة بادوا والحقيقة باقية . أصلاها اعداء الدين حرباً عواناً، كيوليانوس الجاحد الذي استعمل كل ماله من النفوذ الملكي الهائل ليلاشي ديانة الجليلي، كما كان يسمي المسيح، فثات وهو

يصيح يائساً « غلبتني يا جليلي » . وفولتير ذاك الكافر الكبير، بعد أن كان يظن أنه بعد عشرين سنة يُقضى على الديانة، قضى نحبه صارخاً على ما يقوله طيبه البروتستاني ترونشن : « اني أموت مردولاً من الله ومن الناس » . ان الله يسمح بان تضطهد كنيسته، وقد أنبا بذلك قائلًا : « إن كانوا اضطهدوني، فانهم يضطهدونكم أيضاً » . ولكنه إذ يسمح بالاضطهاد لا يسمح بان تغلب كنيسته : « وابواب الجحيم لن تقوى، ثقوا فقد غلبت العالم »^٢

لا تعجبوا اذن من الاعتراضات على الكنيسة ولا تخافوا، بل يجب ان تكونوا متسلّحين وعلى أهبة الدفاع

يجب ان تكونوا متسلّحين وعلى أهبة الجواب عن هذه الاعتراضات . ان الحياة جهاد على الارض في الامور الزمنية كما هي في الامور الروحية، جهاد بين الخير والشر . فأتباع المسيح واتباع الشيطان يجاهدون في المؤلفات والمجلات والجرائد، وجميعها من اكبر العوامل في نشر الحقيقة كما انها اكبر عامل في نشر الضلال، في جمعيات الخير كما في محافل ابناء الارملة، وفي المجادلات الدينية في كل مكان، حتى لم يبق الا الاطرش لا يسمعها والاخرس لا يتكلم عنها . هوذا السيد له المجد يقول لكم : « من

(١) يوحنا ١٥ : ٢٠

(٢) يوحنا ١٦ : ٣٣

ليس معي فهو عليّ ومن لا يجمع معي فهو يفرّق^١ « فلا » نتعرج على الجانبين » كما يقول القديس ايليا النبي^٢، بل فلنختار المسيح ونتبعه، وماذا يجب علينا والحالة هذه ؟ علينا ان نكون متسلحين. يجب ان نكون متسلحين بمعرفة الديانة معرفة جيدة . نعم ان الديانة المسيحية لا تُغلب في العالم، ولكن قد تُغلب فينا ان لم نحافظ عليها ونحارب عنها . ديانة المسيح تبقى منتشرة في العالم ولكن السيد المسيح لم يعد احداً غير بطرس وخلفاءه بعدم الضلال في الايمان . وعليه فلو خان المسيح شعب اعتاض عنه المسيح بشعب افضل . علينا اذاً ان نعرف ديانتنا حق المعرفة كثير من الناس يدينون بدين وهم يجهلون كل شيء منه سوى انه قد كان دين اباؤهم واجدادهم وهم قد ورثوه عنهم . اما نحن المسيحيين فيجب ان نعرف لماذا نحن مسيحيون . نحن الكاثوليك يجب ان نعرف لماذا نحن كاثوليك . يجب ان نقدم، كما قال بطرس الرسول « حجج الرجاء الذي فينا » والا فتتأثر الكفر والتساهل الديني يحرفنا . فحجاً بمنفعة انفسنا، وحفظاً لشرف الله بيننا، يجب ان نبذل الظلام ونظهر النور، يجب ان نعرف ديانتنا . وكيف نعرفها ؟

يجب ان لا نكتفي بما تعلمناه في المدارس، بل فلنطالع الكتب

(١) متى ١٢ : ٣٠

(٢) ٣ ملوك ١٨ : ٢١

(٣) ١ بطرس ٣ : ١٥

بكل لغة نفهمها . فليكن في بيتنا الكتاب المقدس وتفسيره مطبوعاً طبعة كاثوليكية . ليكن عندنا تاريخ الكنيسة وتأليف بعض الكتبة المجيدين العصريين . إننا بكل اسف نرى الكتب الرديئة منتشرة فيما بيننا اكثر من الجيدة . ان لاتباع الضلال في بلادنا جرائد ومجلات اكثر مما لاتباع الحق . اننا نضرّ انفسنا بهذه النشرات المفسدة ، كما نضرّ أجسادنا بشرب الكحول الذي هو سمّ خفيّ . تحافظون على تربية اولادكم وتبذلون دم اكبادهم لكي تعلموهم ، ولكنكم بترككم اياهم يقرأون الروايات الخلاعية ، والكتب المفسدة ، تخسرون في يوم واحد ما تكونون قد اكتسبتموه في سنين ، وتجعلون بين ايديهم سلاحاً يقتل نفوسهم ، ويرميها في وهدة الضلال والفساد . فلنقرأ الكتب الجيدة والمفيدة ولنشرها ما امكننا ، وبذلك نكون متأهبين للمدافعة عن حقوق الدين التي هي حقوق الله

يجب ان نتعلم امور ديننا في الكتب ، وخاصة في الكنيسة أمام منبر الوعظ . لان السيد المسيح امر رسله وتلاميذه والكهنة منهم بالتعليم وقال : « اذهبوا وعلموا كل الامم » . وقال القديس بولس : « ان الايمان من السماع ، وكيف يؤمنون ان لم يُبشّروا » . ان الوعظ ضرورة عليّ « والويل لي ان لم أبشّر »

(١) متى ٢٨ : ١٩

(٢) رومية ١٠ : ١٤ و ١٧

(٣) ١ كورنثس ٩ : ١٦

ان الله تعالى يهددنا نحن الكهنة بقم النبي حزقيال بالهلاك،
 ان لم نرشد الضال وننبه الخاطي . وعليه فانه اذا كان قد أمرنا
 بالتعليم فهو قد اوجب ضمناً على المؤمنين ان يتعلموا ويساعدونا
 بذلك على القيام بوظيفتنا لاجل خيرهم . من الواجب ان يسمعوا
 كلام الله، وان يقوتوا انفسهم بهذا الغذاء الروحي المنعش مهما
 كانت منزلتهم في العلم البشري . ان الارشاد والوعظ للروح
 كالزيت للآلة المتحركة، فان الآلة مهما كانت جيدة ان لم
 تدهن بالزيت يلحقها الصداً ويتعطل عملها . والزهرة ايضاً اذا لم
 تسق فانها تذبل، وهكذا نفوسكم فانها تجف وتيبس ان لم
 تسقوها بكلام الله . فلا نبخلن على الله وعلى انفسنا ببضع
 دقائق فنخصصها كل يوم احد على الاقل لسماع كلامه تعالى
 وانتم ايها الشبان زهرة المسيحيين، الذين أتوا من تلقاء
 انفسهم لسماع كلام الله، ايتها النفوس المملئة غيرة وحماسة والمتلطفة
 ظمناً الى الكمال، اننا نعقد عليكم آمالاً عظيمة لنشر المبادئ
 القوية ورفع لواء الدين المسيحي . اننا نرغب ان تكونوا رسلاً
 للخير . فأنهضوا هممكم وسيروا في هذه الطريق التي تؤدي بكم
 الى الكمال، والله من وراء جهادكم وآمالكم



في الاتحاد الطائفي

« اياها الاب القدوس احفظ باسمك الذين اعطيتهم لي ليكونوا واحداً كما نحن واحد...
ولست اسأل من اجل هؤلاء فقط بل ايضاً من اجل الذين يؤمنون بي عن كلامهم ليكونوا
باجمعهم واحداً، وحتى يعلم العالم انك انت ارسلتني » (يوحنا ١٧: ٢٠ و ٢١)

ان السيد المسيح ليلة الامة وصلبه، بعد ان تناول العشاء
السري مع تلاميذه، اذ كان نازلاً من جبل صهيون حيث ودعهم
بخطاب الهي الوداع الاخير، ختم كلامه برغبة كانت تملأ قلبه
ونفسه حتى كانت تشغله عن آلامه وصلبه، وهي الرغبة في
الاتحاد بين تلاميذه وبين المؤمنين : « اللهم احفظ باسمك الذين
اعطيتني ليكونوا واحداً كما نحن واحد » . وقد أعطى هذا
الاتحاد كعلامة فارقة لتلاميذه يعلم بها العالم ان اياه السماوي
ارسله . فهذه الصلاة قد استجابها الاب الازلي وتجلت نتيجتها
في اتحاد الكنيسة الكاثوليكية . فهو علامة تميزها عن سائر
الكنائس ... ترون في الكنيسة الكاثوليكية ما ينيف على ٣٤٠
مليوناً حسب الاحصاء الاخير، منتشرين بين كل الامم والشعوب
وفي كل الدول والممالك، يتلون كلهم على اختلاف لغاتهم ومشاربهم
قانون ايمان واحد، ويحفظون نظاماً واحداً في الدين والآداب،
ويعيدون الاعياد في زمن واحد، وكلهم يطيعون اساقفتهم

وكهنتهم ويخضعون لنائب السيد المسيح الذي اقامه اساساً لبيعته
وراعياً لغنمه

ولنا شاهد حيّ على هذا الاتحاد في هذا الاجتماع البهي،
حيث نشاهد رجالاً من امم متعددة وطوائف كثيرة ولغات
مختلفة مجتمعين معاً ليعلموا اتحادهم بإيمان واحد وقلب واحد ونفس
واحدة . وليس لهم من غاية في هذه التظاهرة التقوية السلمية
سوى تمجيد الله واظهار حبهم للكنيسة أمهم، وتوثيق عرى المحبة
فيما بينهم . والفضل في هذا الاجتماع لنيافة القاصد الرسولي ممثل
نائب السيد المسيح على الارض، وللسادة الاساقفة خلفاء الرسل
الاطهار الذين يزيدون هذا الاحتفال رونقاً بحضورهم . وانها
لغاية نبيلة من اشرف ما سعى اليه في هذه الديار نيافة القاصد
الرسولي الموقر والسادة الاساقفة الاجلاء في تأسيس هذه الشركة
شركة الاتحاد الكاثوليكي المصري

لذلك رأينا من الواجب ان نشرح ضرورة هذا الاتحاد،
ذاكرين اولاً ان الاتحاد هو قوة الكنيسة الكاثوليكية في كل
عصر وآن، وثانياً ان هذا الاتحاد قد كان جمال الشرق، كما ان
خسرانه كان آفة هذه البلاد، وثالثاً ان اكبر ضامن للحصول على
هذا الاتحاد هو انضمامنا الى شركة الاتحاد الكاثوليكي . وليس
لنا صلاة نقدمها لكي يكون لكلامنا تأثير في القلوب اجمل
من ان نردد صلاة السيد المسيح : « ايها الآب القدوس احفظ
باسمك الذين اعطيتني، ليكونوا واحداً كما نحن واحد، ليعلم

العالم انك ارسلتني « وان نتوسل الى العذراء معونة المسيحيين كي تساعدنا على هذا الاتحاد

« اللهم احفظ باسمك الذين اعطيتني » . ان الاب الازلي قد استجاب هذه الصلاة، وكيف لا يستجيبها وهي منية قلب ابنه الوحيد « الذي به ارتضى وبه كانت مسرته »، فحفظ لابنه المؤمنين به متحدين . وقد فهم المسيحيون الاولون ان اساس الديانة المسيحية انما هو يقوم على المحبة، فهموا ان المحبة هي العلامة الفارقة لهم، طبقاً لتعليم المعلم الالهي نفسه: « بهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي اذا كنتم تحبون بعضكم بعضاً » . فهموا ان محبة الله لا تكون حقيقة في النفس ان لم تكن مقرونة بحب القريب، طبقاً لقول القديس يوحنا الانجيلي : « من قال انه يحب الله وهو لا يحب اخاه فهو كاذب » . لذلك نرى في تاريخ الكنيسة اجمل مظاهر المحبة والاتحاد، نشاهد ان هذه المحبة ظهرت بين المسيحيين بنوع عجيب في مهد النصرانية، اذ نقرأ في اعمال الرسل : « انه كان لجمهور المؤمنين قلب واحد، ونفس واحدة، ولم يكن احد يقول عن شي، يملكه انه خاص به، بل كان لهم كل شي، مشتركاً » واي حاجة لنا بعد هذا ان

(١) متى ٣ : ١٧ و ١٧ : ٥

(٢) يوحنا ١٣ : ٣٥

(٣) ١ يوحنا ٤ : ٢٠

(٤) اعمال ٤ : ٣٢

نستمع الى ما يتغنى به رجال الثورات من كلمات إخاء ومساواة،
والى ما تردده الشيع السرية من امثال تلك الكلمات. ان الكنيسة
قالت وبرهنت بالعمل انها لا تردد كغيرها الفاظاً سحرية لمجرد
التأثير في القلوب والافهام. فظهرت فيها هذه المحبة حية ناشطة
منذ مهدها في اورشليم، وتجاوزتها الى كل انحاء المعمور كما نرى
مثلاً في مسيحي انطاكية اذ اظهروا فيهم من صفات المسيح ما
جعلهم يستحقون ان يكونوا اول من اطلق عليهم لقب
« مسيحين »

هذا الاتحاد كان قوة الكنيسة في عصر الاضطهاد، اذ
هاجمت قوات الجحيم الكنيسة في مهدها لتلاشيها، فلم تقوَ عليها.
اضطهدها الشعب اليهودي، واضطهدها الشعب الوثني، واضطهدها
الولاة، واضطهدها القياصرة مدة ثلاثة قرون، واثاروا عليها عشرة
اضطهادات عامة قصدوا بها ملاحقتها. فقاسى المسيحيون كل
خروب الاعذبة، فذبح بعضهم ذبح الشاة، وبعضهم صلبوا، اناس
منهم أحرقوا، واناس عُرضوا في المسارح الرومانية للوحوش
الضارية، وغيرهم عذبوا بتقطيع الاعضاء وماتوا في السجون.
وكانت نتيجة كل ذلك عكس ما كان يقصد المضطهدون، اذ
كان عدد المسيحيين على ازدياد متواصل. استشهد على اقل تقدير
من المسيحيين ما ينيف على عشرة ملايين في القرون الثلاثة

الاولى فقط . فكان ذلك مدعاة الى زيادة الاهتدات وزيادة عدد
المسيحيين، حتى تمكن احد الكتبة الشهيرين ترتولياس ان يقول
هذه العبارة الشهيرة المعبرة خير تعبير عن واقع الحال : « ان
دم الشهداء زرع للمسيحيين » . وكانوا اذا قتلوا منهم واحداً
قام بعده مئة، واضطروا ان يختبئوا للصلاة في الدياميس تحت
الارض يجعلونها بيعة لهم، لشدة الضغط عليهم، بعد ان كانت
مدافن، حتى امتدت تلك الدياميس تحت الجزء الاكبر من روما .
وما زالوا يهرقون دماءهم الزكية محاماة عن ايمانهم حتى سكن
العدل الالهي واستوفى حقه، فظهرت في السماء علامة الصليب
التي قرأ فيها قسطنطين : « بهذه العلامة تغلب » . فكسر جيشه
الصغير جيوش مكسناس الجرارة، ودخل روما ظافراً، فاصبح
كرسي خليفة صياد بحيرة طبرية محل عرش القياصرة الذين اضطهدوه .
ان اتحاد المسيحيين بكرسي روما جعل البابا مسيطراً على
كل الامم الاوروبية في الاجيال المتوسطة . وكان من هذه
السيطرة المباركة ان خرجت الامم البربرية من همجيتها، وعاشت
أجيالاً طوالاً تحت ظل السلطة الروحية كأُسرة مسيحية واحدة،
يطيع الملوك فيها سلطة الخبر الاعظم كما يطيع الابن اباه . هذا
هو الاتحاد الذي ساعد شارل مارتل في معركة بواتيه، وساعد
جان سوبينيسكي على ابواب فينا، ومنع ان يُقضى على التمدن
المسيحي

هذا الاتحاد يعطي القوة للجمعيات الرهبانية والمرسلين المنتشرين

في العالم بأسره، الذين يردون كل سنة الى حضن الكنيسة الكاثوليكية مئات الالوف من الوثنيين وغيرهم هذا الاتحاد يسهل لجمعية انتشار الايمان وجمعية الطفولية المقدسة ان تجمع كل سنة الملايين لمساعدة نشر الايمان، وتخفيف الويلات عن الانسانية

هذا الاتحاد نراه بأبهى مظاهره، عندما يجتمع مجمع مسكوني كمجمع الفاتيكان سنة ١٨٧٠، حيث التأم اكثر من ٨٠٠ مطران وافدين من كل ابرشيات العالم ملتقين حول الكرسي الرسولي، معلنين ايماناً واحداً

هذا الاتحاد نشاهد ابهى مظاهره في عصرنا متجلية في مؤتمرات الافخارستيا التي كتب عن احدها بعض الخارجين عن الديانة المسيحية : « ان ما رأيته من جمال الحفلات وكثرة عدد الحاضرين واتحادهم، بالرغم عن اختلاف جنسياتهم ولغاتهم، لما يفوق كل وصف، فليست مملكة ولا قوة في العالم تضاهي قوة البابا الادبية، ولا اتحاد يماثل هذا الاتحاد »

هذا الاتحاد هو قوة الكنيسة الكاثوليكية في كل آن ومكان . كان قوة الشرق في العصر السالفة كما ان خسرانه كان آفة هذه البلاد، ولسنا في حاجة الى ان نصف ما هو معروف من مفاخر الكنيسة الشرقية في الاجيال السالفة . فهذه البلاد الشرقية هي مهبط الوحي ووطن الانبياء، ومسقط رأس السيد المسيح والرسل وعدد كبير من القديسين . بلادنا الشرقية

التي اذا نظرنا الى حضارتها القديمة ننسى في حينها الحضارة العصرية من جملة وجوه، هذه البلاد التي سُقيت بعرق الفادي ودمه، والتي انتشر منها الرسل فنشروا الديانة المسيحية في العالم بأسره، هذه البلاد التي اصطبغت ارضها بدم الشهداء، تفتخر بأبائها القديسين وملافتها العظام الذين ترين كتبهم مكاتب الشرق والغرب على السواء. هذه البلاد التي فهم فيها عدد كبير من اصحاب النفوس الزكية معنى الحياة ومعنى الابدية، فهجروا العالم وملذاته مرتفعين فوق هموم هذه الدنيا، مستعدين لملاقاة ربهم ملاقاته الابن لآبيه.

وفي الجملة هذه البلاد هي التي تألقت فيها انوار العلوم وفاح منها عرف القداسة. فلما بالنا نراها الان قد اصبحت عقيمة بالقديسين والعلماء؟ ما بال الاسكندرية لم تعد تخرج امثال النابغة اوريجانوس، والقديسين اثناسيوس وكيرلس ويوحنا الرحوم؟ ما بال الصعيد لم يعد يُبرز مثل باخوميوس وانطونيوس الكبير؟ وفي سوريا لم هذا الانقلاب، لم لم تعد انطاكية تنجب اولاداً كيوحنا في الذهب، وقيصريه كباسيليوس الكبير، وبيروت كقزما وداميانوس، ونصيبين كالقديس افرام، ولبنان كالقديس مارون، وحمص كالقديس اليان، ودمشق كالقديسين حنانيا وصفرونيوس ويوحنا الدمشقي، ونبلس كالقديس يوستينوس، واورشليم كالقديس كيرلس، وقفار فلسطين كالقديسين سابا وثاوكتيستوس وثاودوسيوس وافثيميوس؟ لماذا انقطعت سلسلة

الآباء القديسين او كادت تنقطع ؟ آه انه ليعزّ علينا ان نقول،
والحزن ملء القلب، ان احزابنا واغراضنا قد قطعت اوصالنا
ونهبكت قوانا . ان انفصال غصن كبير عن كرمه الكنيسة
جعله يحفّ . ان الدودة التي فخرت تلك الشجرة الباسقة الافنان
الوارفة الظلال الشهية الثمار، هي دودة التحزب والتغرض، هي
دودة الكبرياء التي تجعل الواحد منا يستبد برأيه، ولا يعرف ان
يتفق مع غيره، كما قال احد رجالنا العظام، هو ذاك الداء الذي
يجعل اجتماعاتنا لا قوّة لها ولا ثبات فيها، ومشاريعنا العامة في
حكم العدم، برغم ما امتاز به الشرقي من الذكاء وحب الاقدام،
وقوة المشاورة، وغير ذلك من المزايا التي تجعل له ارجحية على
كثيرين من الاجانب

فأين الدواء إذن لهذا الداء ؟ اننا نراه في هذا الاتحاد
الكاثوليكي، فهو اكبر ضامن لنا للنجاح . ولا يراد بالاتحاد
الكاثوليكي أن يترك المسيحي منا طائفته وطقسه، وينسى مفاخر
آبائه واجداده، وينضم الى طائفة اخرى وطقس آخر . ليس في ذلك
رغبة الكرسي الرسولي الذي يحافظ اشد المحافظة على التقاليد
والطقوس الشرقية، ويعامل ابناؤها معاملة الام الحنون، وله
القوانين الصارمة المانعة تغيير الطقوس او مسها بادنى تبديل .
وانما يراد به اتحاد مطابق لمبادئ ديننا الكاثوليكي، اتحاد جميع
الطوائف الكاثوليكية تحت رئاسة الحبر الاعظم بشخص نيافة
ممثله بيننا ...

هذا هو الاتحاد الذي يريده السيد المسيح من كل مسيحي .
ان جميع المسيحيين يرغبون في الاتحاد، ولكن لا يسعون للحصول
عليه كما يريده السيد المسيح . ان السيد المسيح لم يضع اساساً
لكنيسته سوى بطرس الذي لقبه بالصفاة اي الصخرة، وقال له
« انت الصفاة وعلى هذه الصفاة ابني كنيستي، وابواب الجحيم لن
تقوى عليها » . ولم يُقم راعياً لغنمه سوى الرسول بطرس الذي
قال له بنوع خاص : « ارفع خرافي، ارفع غنمي، ارفع نعاجي » .
وقد جعل سائر الرسل وخلفاءهم من بعدهم معاونين له في العمل
تحت رئاسته . ذلك ما يقرّ به معنا اخوتنا الروم الارثوذكس
انفسهم في كتبهم الطقسية التي نتلوها معهم على السواء، اذ
يقولون معنا في عيد القديس بطرس في كتاب الميناون: « يا بطرس
الصخرة، يا بطرس زعيم الرسل الاكارم » . ويتلون معنا في
الاكتويخوس الاكسبستيلاري الحادي عشر « ان المسيح لاجل
محبتة لاغنامه، سأل بطرس بعد القيامة الالهية ثلاثاً اتجني وانتدبه
رئيس رعاة غنمه »

فالقديس بطرس مات شهيداً في روما، وخلفه الحق بان يخلفه
في كل امتيازات الرئاسة، كما هو معروف في خلافة كل رئيس
يخلف سلفه . وقد شهد التاريخ بحق خلافة كرسي روما للقديس
بطرس مدة اجيال طويلة، اذ كانت الكراسي الاسقفية والبطريركية

(١) متى ١٦ : ١٨

(٢) يوحنا ٢١ : ١٥ - ١٨

تلتجىء الى كرسي روما في مشاكلها، وتقبل حكمه قبولها
 للقول الفصل، وتعترف له في حق عقد المجامع المسكونية والتصديق
 عليها . ذلك ما اعترف به الشرق كله الى الجيل التاسع الى زمن
 الانفصال المؤلم، والغرب كله الى زمن الاصلاح. الموهوم الى
 الجيل السادس عشر . فبموجب هذا الاتحاد بالكرسي الرسولي،
 نؤمن كلنا بايمان واحد، ونحفظ كلنا الوصايا نفسها، ونتبع فيما
 يخص الدين والآداب نظاماً واحداً . وباتحادنا بكنيسة المسيح
 تتم فينا مواعيد السيد المسيح . بان ابواب الجحيم لن تقوى
 علينا، وتتم فينا مواعيده بان يكون معنا الى منتهى الدهر
 ولذلك يستحلفنا القديس بولس قائلاً : « أسألكم أن تقولوا
 كلكم قولاً واحداً، وان تكونوا على اتفاق الرأي واتحاد
 الافكار » . بهذا المعنى يقول لنا ايضاً ان « ليس فينا لا يوناني
 ولا اعجمي، لا عبد ولا حر، بل كلنا بالمسيح واحداً » ، لان
 إلهنا واحد، وإيماننا واحد ومعموديتنا واحدة ومسيحنا واحد
 غاية هذا الاتحاد الكاثوليكي المصري الذي يرأسه نيافة
 القاصد الرسولي الموقر والسادة الاساقفة الاجلاء، هي ان يجعل
 للأعمال الخيرية والجمعيات الكاثوليكية رابطة تعززها وتريدها
 تعارفاً بين بعضها . فقوانينها لا تسمح بان تتدخل في شؤون
 الاعمال الطائفية الخاصة، بل يبقى لكل طائفة ملء الحرية في

(١) ١ كورنثس ١ : ١٠

(٢) كولوسي ٣ : ١١

عملها . غاية هذا الاتحاد المساعدة والتعارف والتآلف وضم
القوى

وللحصول على هذه الامنية رأيت من المناسب ان تقسم
عملها الى فروع : منها فرع يهتم بالجمعيات التقوية وتعزيز الجمعيات
الخاصة بكل طائفة، والمساعدة على تشكيل جمعيات اخرى
اذا اقتضى الامر وتوثيق الرباط بينها، ليكون لها من حين
الى آخر بعض اجتماعات عامة في السنة يتآخى فيها الجميع
متقدمين الى مائدة الخلاص ويكون لمظاهرتها التقوية منفعة
كبرى للنفوس

وفرع آخر اجتماعي يسعى في تعزيز النوادي والمجتمعات
الكاثوليكية للشبان والاحداث، وفي انشاء مجتمعات ادبية
وجمعيات تعاون واقتصاد للفعلة ولارباب المهن والصناعات، وانشاء
جمعيات لارباب العائلات

وتتذرع هذه الشرية بالصحافة للمحاربة عن حقوق الطوائف
المسيحية وامتيازاتها التي اقر بها مدة اجيال طويلة سلاطين بني
عثمان، والحكومة المحلية . تتذرع بالصحافة وبالكلام للمحاربة
عن مبادئ الدين الكاثوليكي وعن آدابه . يتخذ الاتحاد
الوسائل لنشر التعليم الديني والادبي، ومنع ما يجري في اجتماعاتنا
من سم الفساد بواسطة الرقص الخلاعي والازياء غير المحتشمة
وبعض معارض السينما الخالية من كل حشمة وادب . وفي الجملة
فالاتحاد يسعى في تقديس النفوس لان الكنيسة مقدسة طبقاً

لقول السيد المسيح: «كونوا كاملين كما انّ اباكم السماوي كامل»
 ان الكنيسة باتحادها هذا تحقق عملياً في هذه البلاد معنى
 كلمة الكاثوليكي، وهو اسم الديانة التي يجب ان تنتشر في العالم
 بأسره . فعند ما يرى غير المتحد بكنيستكم جمعكم المبارك
 مؤلفاً من كل جنس وبلدة، قد جمعته رابطة الوحدة الدينية،
 يفهم معنى الكنيسة الكاثوليكية اي الكنيسة التي يجب ان تضم
 في حضنها من كل الامم والشعوب . وعندما يرى في اجتماعكم
 العلامة الفارقة لكنيسة المسيح، وهي الكشكشة، يفهم ان ايمانكم
 قد بشر به في العالم اجمع طبقاً لامر السيد المسيح القائل :
 « اذهبوا الى العالم اجمع وبشروا بالانجيل للخليفة كلها »، فيزداد
 ثباتاً في ايمانه بان الكنيسة الكاثوليكية هي كنيسة المسيح .
 فيهتف مع بلعام، وكان قد صعد على جبل موآب ليلعن اسرائيل
 فبارك عوضاً عن ان يعلن وقال : « ما اجمل خيامك يا يعقوب
 واخبيتك يا اسرائيل منبسطة كأودية وجنات على نهر وكأغراس
 عود غرسها الرب وكأرز على مياه . . . مباركوك يباركون
 ولاعنوك يلعنون » . ويهتف مع النبي داود : « ما احلى وما
 اجمل ان تسكن الاخوة معاً »

(١) متى ٥ : ٤٨

(٢) مرقس ١٦ : ١٥

(٣) سفر العدد ٢٤ : ٥ و٦ و٩

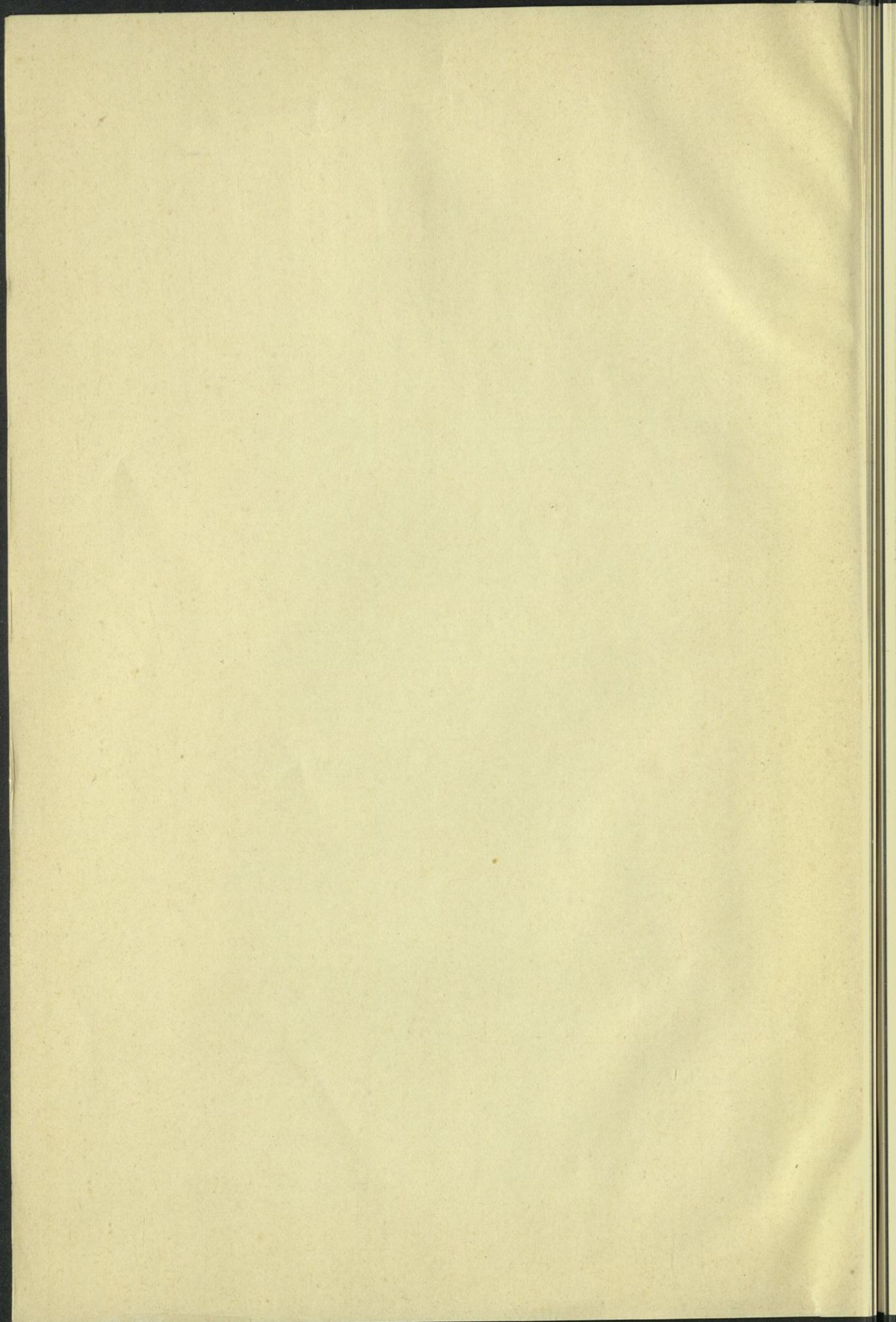
(٤) مزمور ١٣٢ : ١

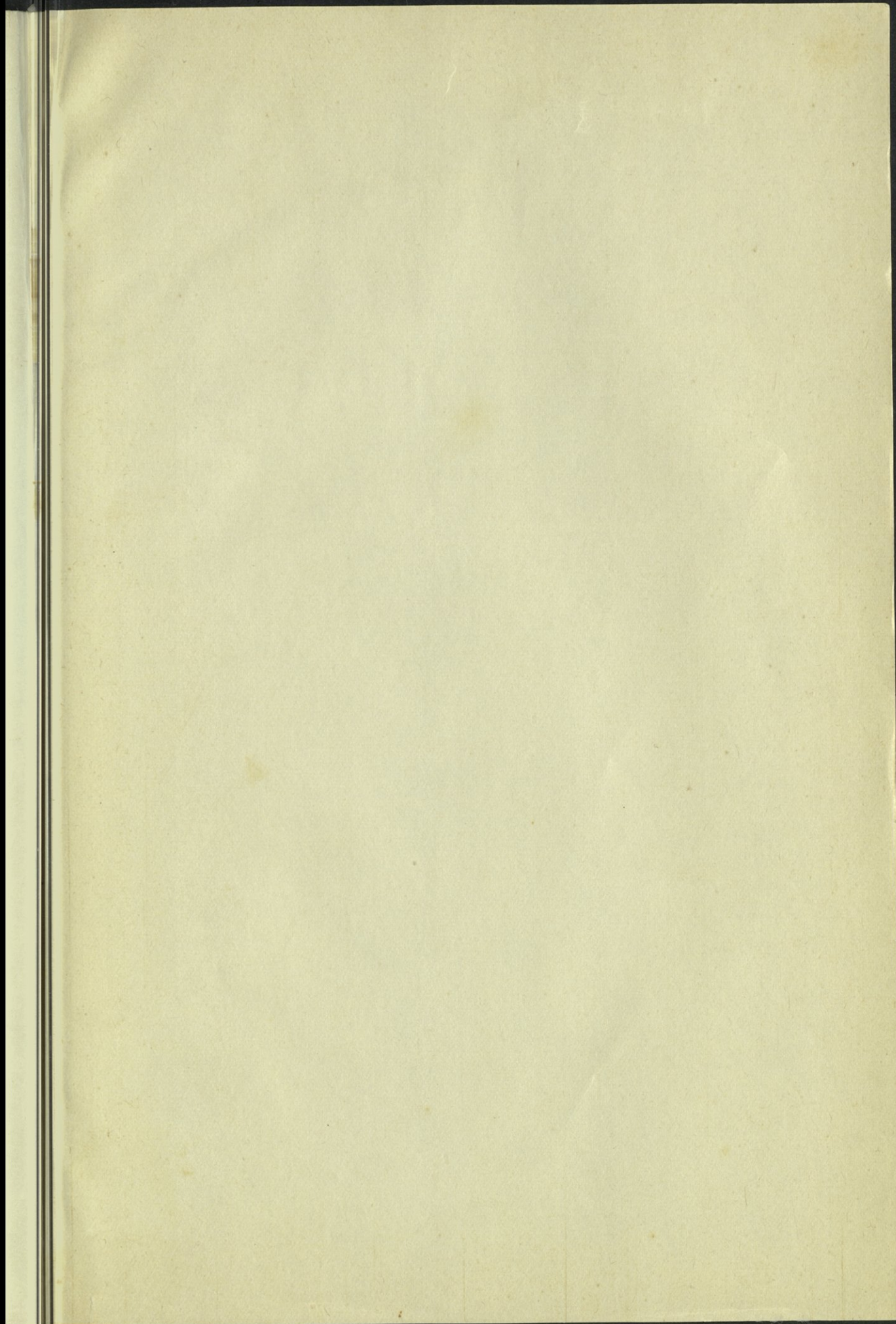
فليهنأ نيافة القاصد الرسولي الموقر والسادة الاساقفة الاجلاء
الذين سعوا في هذا الاتحاد. وليهنأ جمهوركم المبارك الذي «يضي»
نوره امام الناس فيمجّدون اباكم الذي في السماوات^١. «بارك
الله في همهة كل كاهن وكل علماني يسعى الى مثل هذا. ان اجتماعنا
هذا هو أول حلقة من سلسلة نتمنى ان تكون طويلة وممتينة.
وبما ان مساعي البشر يصيبها الفشل والخذلان، وهي لا تجدي
نفعاً في النظام الديني الفائق الطبيعة الا بنعمة الروح القدس،
فلنضمّ صوتنا الى صوت السيد المسيح في صلاته الاخيرة ولنقل:
«ايها الاب السماوي احفظ باسمك الذين اعطيتني، ليكونوا
واحداً كما نحن واحد، ليعلم العالم انك انت ارسلتني»^٢

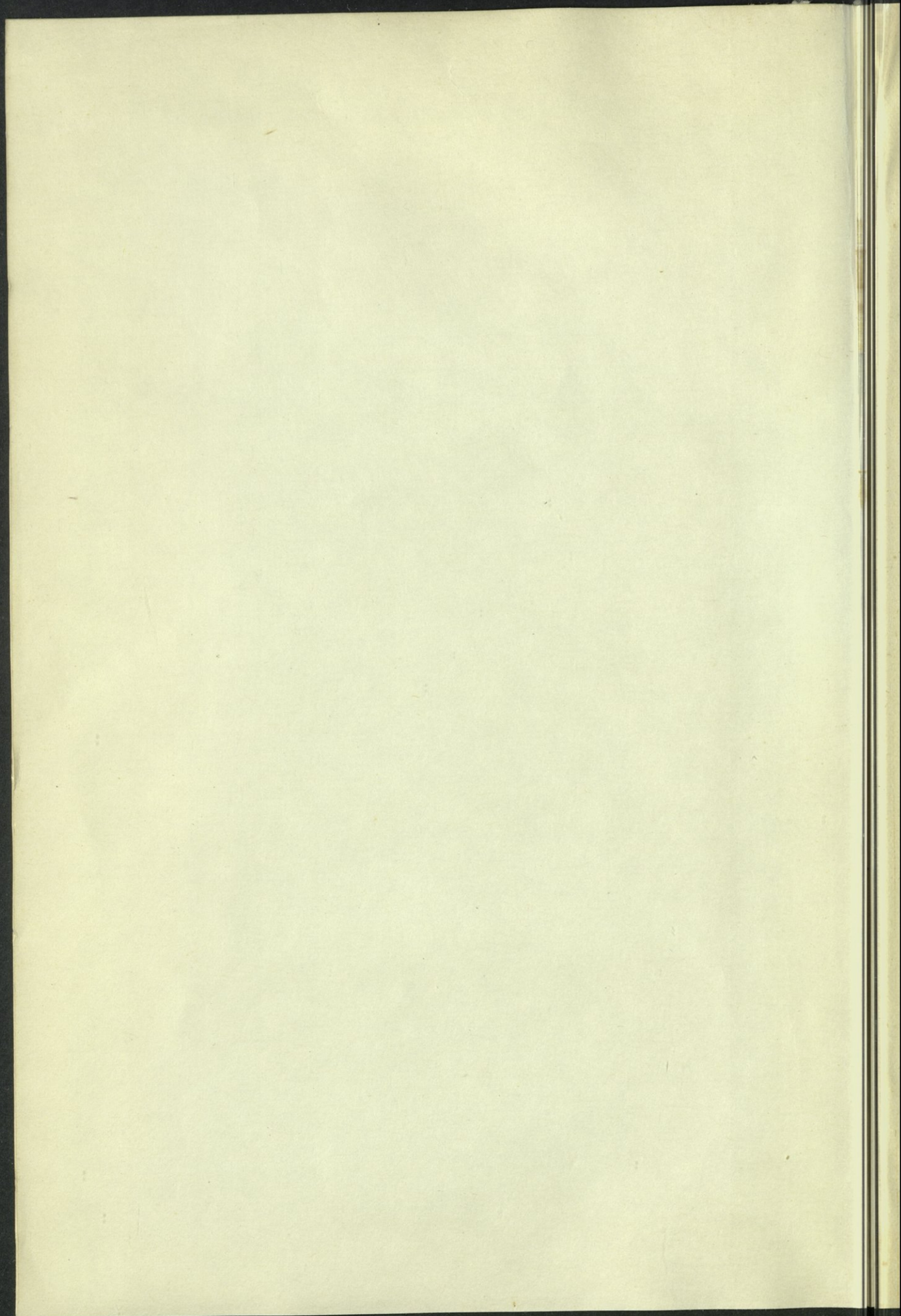


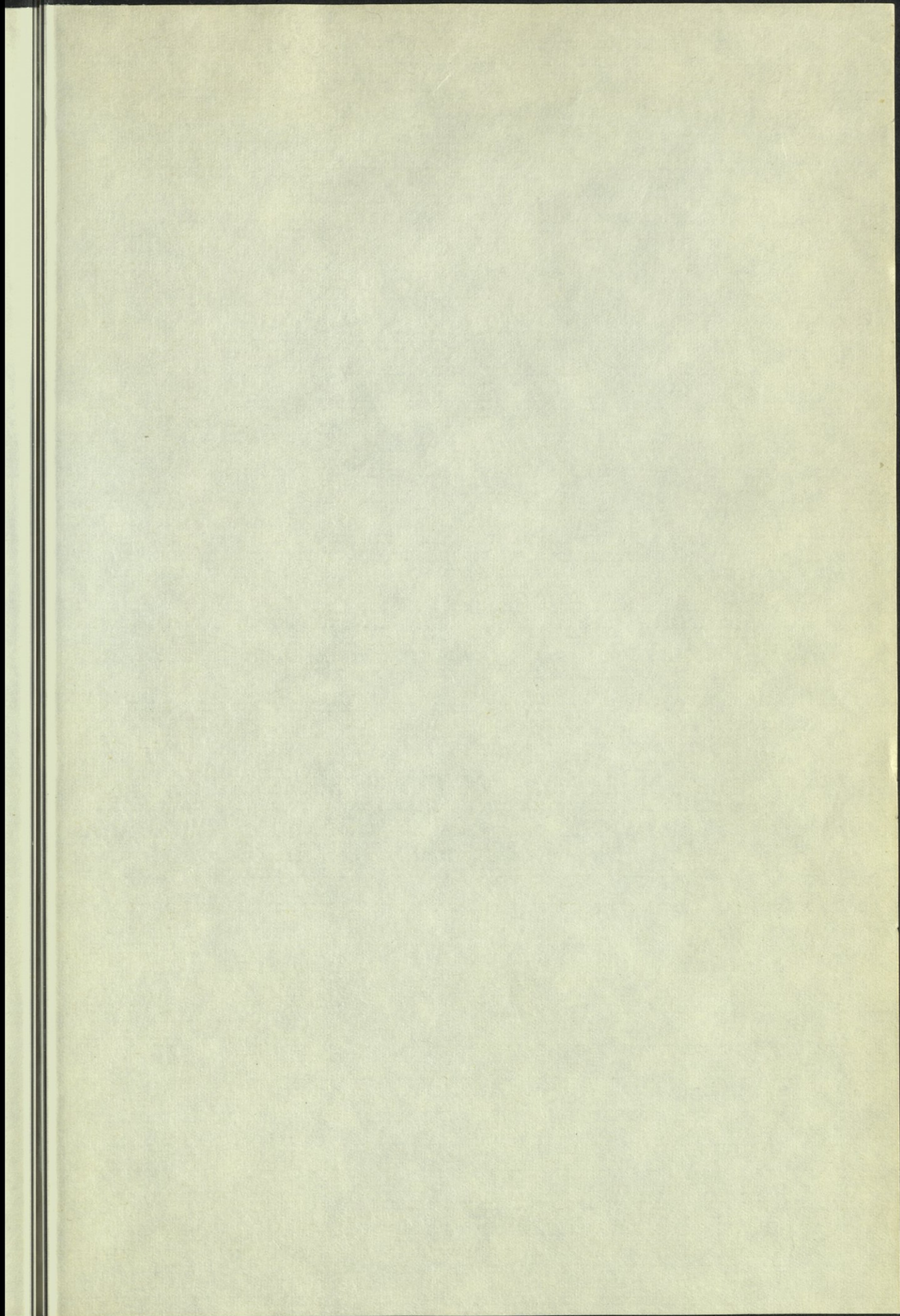
(١) متى ٥ : ١٦

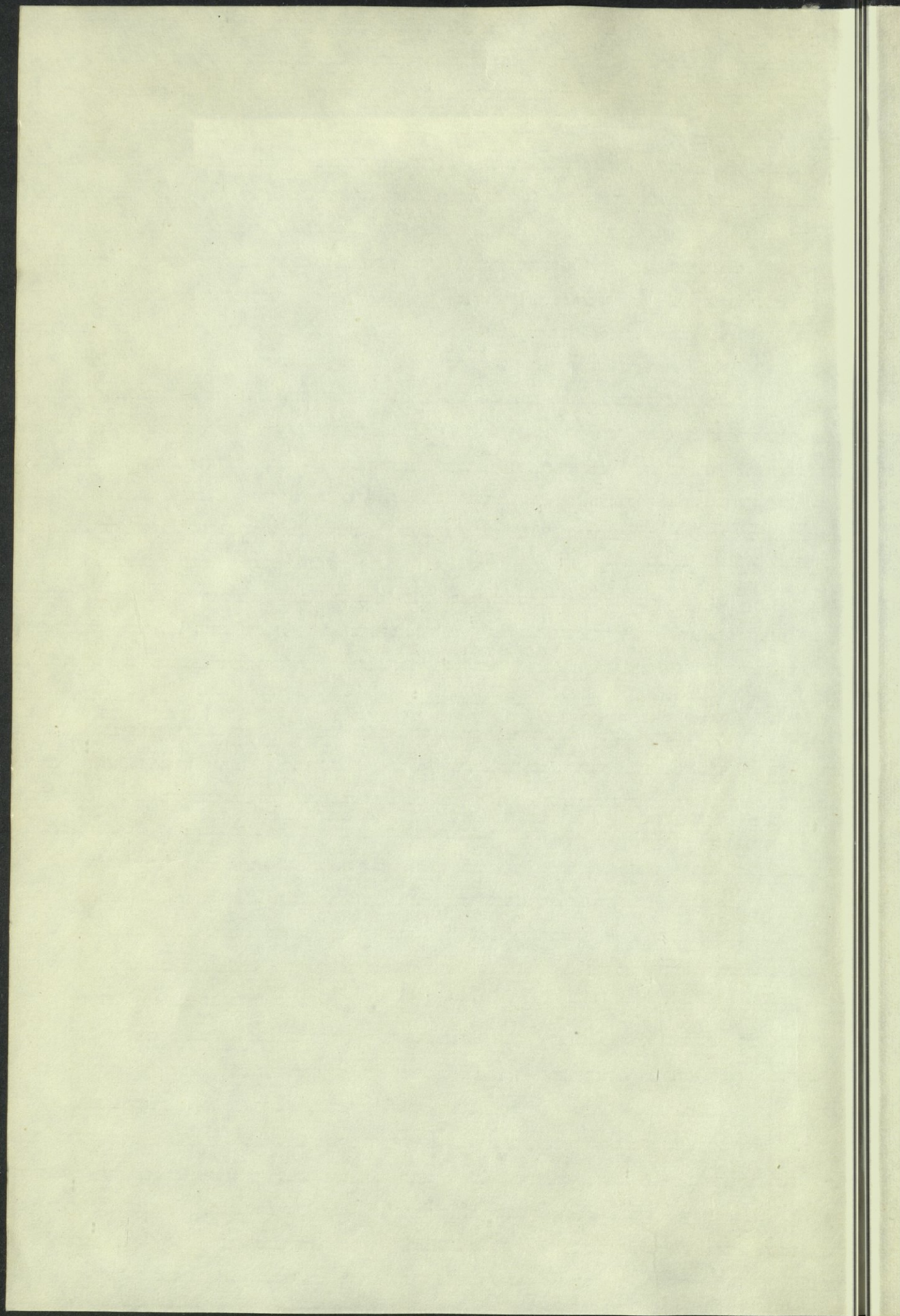
(٢) يوحنا ١٧ : ١١











7

CA'281.5:S53kA:c.1

شار، تيوفانس (الخوري)

الكنيسة عروس يسوع الملك

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01001481

CA

281.5
S53kA

